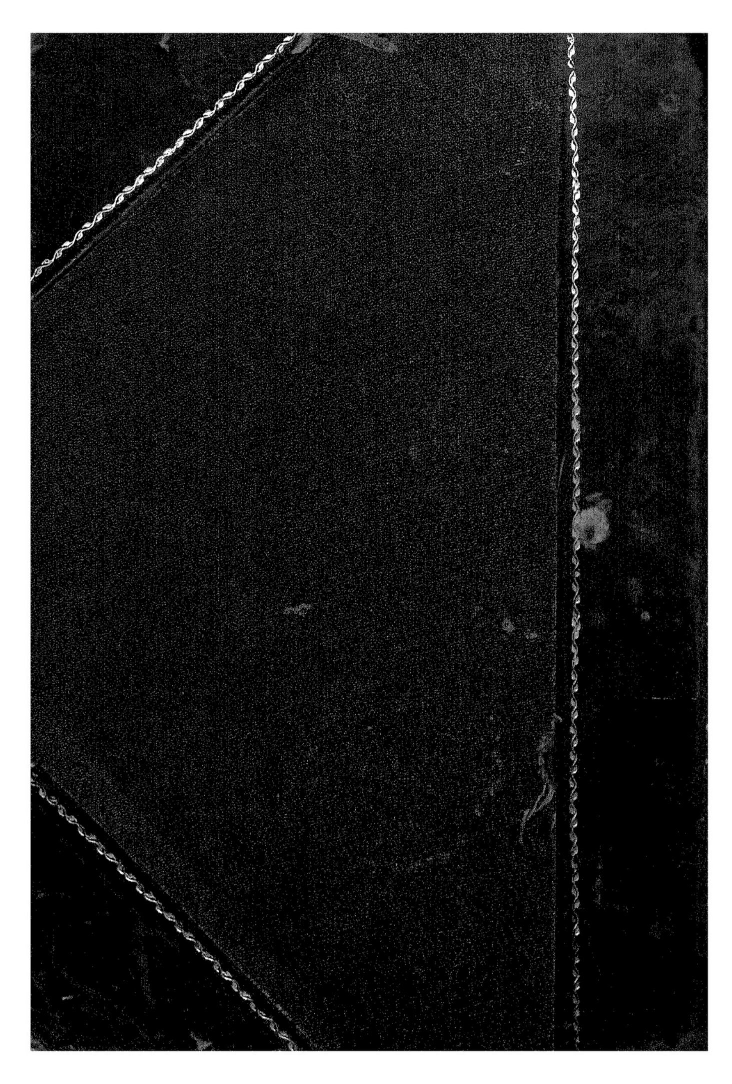




تاريخ الجـــــــدل

وضعه

محمد أبو زهرة

أستاذ تاريخ الجدل بكلية أصول الدين

والمدرس بكلية الحقوق

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أما بعد ، فهذه مذكرة فى تاريخ الجدل ، تشتمل على ملخص للمحاضرات التى القيتها على طلبة السنة الثانية من كلية أصول الدين ، تحريت فيها الايجاز ، من غير اخلال فى بيان الخلاف ومواضعه ، والاطناب من غير املال فى بيان صور الجدل وأحواله . وأسأل الله التوفيق ، وأن يجعل لها ثمرتها المرجوة وهى تربية روح الجدل المنظم فى نفوس أولئك الطلبة الذى يهيئون أنفسهم ليكونوا وعاظا ومرشدين، والله المستعان

المناظرة والجدل والمكابرة

تدور على الالسنة عبارات المناظرة والجدل والمكابرة ، وأحيانا تطلق احداهما فى موضع الأخرى ، وفى الحق ان بينها اختلافا واضحا فى الاصطلاح فالمناظرة يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب فى الموضوع الذى اختلفت أنظار المتناقشين فيه .

والجدل يكون الغرض منه الزام الخصم ، والتغلب عليه فى مقام الاستدلال

والمكابرة لا يكون الغرض منها الزام الخصم ، ولا الوصول الحق، بل احتياز المجلس ، والشهرة أو مطلق اللجاجة ، أو غير ذلك من الاغراض التى لا تغنى فى الحق فتيلا .

ويلاحظ امران : أحدهما أن المناقشة الواحدة قد تشتمل على كل هذه

الأنواع الثلاثة ، قد يبتدىء المناقشان متناظرين طالبين للحق ، فينقدح فى ذهن أحدهما رأى يثبت عليه ، ويأخذ فى جذب خصمه اليه ، والزامه به ، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا . وقد تدفعه اللجاجة إلى التعصب لرأيه ، وتأخذه العزة بالاثم ، تبدو له الحجج واضحة على نقيض رأيه ، ويبدهه خصمه بالدليل تلو الدليل ، فلا يحير جوابا، ومع ذلك يستمر فى لجاجته ، فينتقل الجدل إلى مكابره . وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة ، كأكثر المحاورات السقراطية . كان سقراط يبتدىء بمجادلة خصمه فيما يدعيه ، حتى يفحمه ، فيقتنع بجهله ، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده الى الحق .

ثانيهما — أن الجدل قد يطلق فى اللغة ويراد منه المناظرة كقوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وقد تطلق المناظرة ويراد منها الجدل أو المكابرة لغة. كقول الغزالى فى رسالة (أيها الولد) . « أيها الولد انى أنصحك بثمانية أشياء ، اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة ، تعمل منها أربعة ، وتدع منها أربعة : أما اللواتى تدع فاحداها الا تناظر أحدا فى مسألة ما استطعت ، لأن فيها آفات كثيرة ، فأثمهما اكبر من نفعهما ، اذ هى منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد ، والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها الخ الخ » والمناقشة التى تجر إلى هذه الرذائل انما هى جدل أو مكابرة وسنطلق فى كتابتنا كلمة الجدل على ما يشمله هو والمناظرة

العناية بالجدل — وقد عنى العلماء فى الاسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة ، من يوم أن نشب الخلاف الفكرى بين العلماء ورجال الفكر فى هذه الامة ، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة ، لكى يكونا فى دائرة المنطق والفكر المستقيم ، أسموها علم الجدل ، أو علم أدب

البحث والمناظرة ، وقد قال فيه ابن خلدون فى مقدمته « وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة ، التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فأنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صوابا ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصا منقطعا ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ، ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه انه معرفة بالقواعد من الحدود والاداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى ، وهدمه ، كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره ... .. » وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى ، ثم كثر التأليف فيه من بعدها .

الاختلاف ومنشؤه

لا جدل إلا حيث الاختلاف فى إدراك حقيقة من الحقائق ، ولو أردنا أن نعين مبدأ هذا الاختلاف الفكرى بين بنى الانسان ، ما اهتدينا ، ويظهر لى أن ذلك النوع من الاختلاف قديم بقدم الانسان فى هذه الأرض ، ابتدأ معه حيث ابتدأ ينظر إلى الكون فيشده بعظمته ، وتأخذه الحيرة فى إدراك كنهه وحقيقته ، وإذا كان العلماء يقولون إن الانسان من يوم نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون ، فلابد أن نقول : إن الصور والأخيلة التى تثيرها تلك النظرات تختلف فى بنى الانسان باختلاف ما وقعت عليه أنظارهم ، وما أثار إعجابهم ، وكلما خطا الانسان خطوات فى سبيل المدنية والحضارة اتسعت فرجات الخلاف ، حتى تولد من هذا الاختلاف المذاهب الفلسفية ، والديانات غير المنزلة ، وغير ذلك .

وأسباب الاختلاف فى الحقيقة كثيرة جدا منها :

١ ـ غموض الموضوع فى ذاته : تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة فى ذاتها ، وليست الطرق لفهمها وإدراكها معبدة ، فكل يرى ما تقع عليه بصيرته ، وما تهديه اليه هويته ، وربما كان الحق مجموع أقوالهم . وقد قال أفلاطون فى مثل هذا المقام : « إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ، ولا أخطئوه فى كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة ، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل منهم جارحة منه جسها بيده ، ومثلها فى نفسه فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة ، وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره . فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك وكل يكذب صاحبه ، ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل ، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم ، حتى فرقهم » . ومن الموضوعات التى كان غموضها سببا فى الاختلاف حقيقة النفس ، وحقيقة المنشىء للكون فى فترة من الرسل ، ومسألة صفات الله .

غموض موضع النزاع : كثيرا ما يختلف المتجادلان ، ويشتد بينهما الخلاف لأن موضع النزاع لم يعلم بالتعيين ، وكان سقراط يقول : « إذا عرف موضع النزاع بطل كل خلاف » وذلك لأن كلا المتناظرين المختلفين فى طلب الحقيقة يقع نظره على ما لا يقع عليه نظر الآخر ، ويبنى حكمه على ما وقع عليه نظره فكأنه فى الحقيقة لم يتلاق مع خصمه فى موضوع ، وذلك كما إذا رأى أحد الناظرين وجها لقرطاس فحكم بما رأى ، ورأى الآخر وجها آخر ، فحكم بما رآه ؛ ولذلك كان سقراط يعنى كل العناية بدلالات الألفاظ ؛ ليفهم كلا الخصمين

كلام الآخر ، فيتلاقيا فى نقطة واحدة ، وإذا تلاقيا انحسم الخلاف

٣ — اختلاف الرغبات والشهوات : قال اسبينوزا : « إن الرغبة هى التى ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا » وإذا كانت الرغبة تستولى على مقياس الحسن والقبح على النفس ذلك الاستيلاء ، كما قال ذلك الحكيم، ورغبات الناس مختلفة متضاربة ، فلابد إذن من أن يختلفوا باختلافها ، وتتباين آراؤهم لتباين رغباتهم .

٤ — اختلاف الأمزجة : قال ويليام جيمس : « إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة والبشرية ، وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضا شأنه فى ميدان الأدب والفن والحكومة » وذلك قول حق ؛ فان كثيرا من اختلاف الآراء . سببه اختلاف أمزجة القائلين لها . فذو المزاج العصبي الحاد يرى مالا يراه الوادع الهادى ، وإذا كانت الأحوال العارضة للانسان . من هدوء أو غضب ، واستقرار واضطراب تجعل آراءه مختلفة باختلافها، فلابد أن يعتقد أن اختلاف شخصين فى المزاج داع لكثير من اختلافهما فيما يذهبان اليه من آراء .

٥ — اختلاف الاتجاه : جاء فى الجزء الثالث من رسائل إخوان الصفاء : « القياسات مختلفة الأنواع ، كثيرة الفنون، كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها ، مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لاتشبه قياسات الأطباء ، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين ، وهكذا قياس المنطقيين فى الرياضات لاتشبه قياسات الجدليين، ولاتشبه قياساتهم فى الطبيعيات ولا الآلهيات » . وإذا كان لكل علم أقيسة خاصة به ، فمن غلبت عليه أقيسة علم إذا بحث فى موضوع مع صاحب علم آخر يختلف نظراهما ، وكل ينبعث فى تفكيره روح علمه، واعتبر

ذلك بالخلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين فى مسألة خلق القرآن ؛ فان الاختلاف بينهما كان سببه اختلاف مناهج البحث ، وإن شئت فقل اختلاف عقليتين : إحداهما تستنبط العقائد من الآثار كما تستنبط الأحكام العملية ، والأخرى تسير وراء العقل مهتدية به ، ومندفعه فى تياره .

٦ – تقليد السابقين ومحاكاتهم من غير نظر إلى الدليل ، وتقصى للبرهان وكثيرا ما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم للآباء ، ونعى عليهم اهمال العقل فى مثل قوله تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وقوله تعالى: «وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . ولا تزال نزعة تقليد السابقين فى نفوس الناس، وإن كانوا يتفاوتون فيها قوة وضعفاً ، وإن سلطان الأفكار التى كسبتها الأجيال قداسة يسيطر على القلوب ، فيدفع العقول إلى وضع أقيسة وبراهين لبيان حسنها ، وقبح غيرها . وطبعى أن يدفع ذلك إلى الاختلاف ، والمشاحنة ، والمجادلة غير المنتجة ، لأن كلا يناقش وهو مغلول بقيود الأسلاف ، من حيث لا يشعر . ولو فكت قيود المتناظرين للاح لهما وضح الحق المبين ، وأشد ما يكون الاختلاف بسبب التقليد فى المسائل الاجتماعية ...

٧ – اختلاف المدارك : بعض الناس قد آتاه الله عقلا راجحا ، وبصيرة نافذة ، وفكرا ثاقبا يدرك الموضوع من كل نواحيه ، ويلم بظواهره وخوافيه وبعضهم فيه قصور نظر ، فلا يستطيع يحوط الموضوع بنظرة شاملة ؛ وفيه قصور فكر ، فلا يدأب فى البحث عن الحقيقة الى النهاية ، ولابد أن تختلف النتائج التى يحصل من كان على هذه الشاكلة عما يصل اليه من كان من الصنف

الأول. وقد جاء فى رسائل اخوان الصفا : « إنك تجد كثيرا من الناس يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز ، سريع التصور ذكورا ، ومنهم من يكون بليدا ، بطيء الذهن ، أعمى القلب ، ساهي النفس ، فهذا أيضا بعض أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب لأنه اذا اختلفت ادراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك » .

٨ — الرياسة وحب السلطان : كثيرا مايدفع الغرض ذا السلطان الى الأخذ بآراء ساقته اليها رغبة ملحة جامحة ، ويحمل كثيرا من العلماء الذين جعلوا قلوبهم سلعة تباع بثمن بخس على المناداة بها ، والمجادلة لنشرها ، وقد يندفع هؤلاء فى دعوتهم حتى يخيل اليهم أنهم مخلصون فيما يدعون اليه ، أو أنه محض الحق والصواب ، وينبرى للرد عليهم رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فندبوا أنفسهم للذود عن الحقيقة ، وحفظ ذمارها ، فتكون بين الفريقين نار مشبوبة . وربما يكون من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : «أخوف ماأخاف على أمتي رجل منافق ، عليم اللسان ، غير حكيم القلب يغيرهم بفصاحته وبيانه ، ويضلهم بجهله ، وقلة معرفته »

٩ — التعصب : إذا تغلبت على الانسان فكرة ، فتحتاز عقله ، وتسيطر عليه ، وتمنعه من أن تصل اليه أية فكرة تناقضها ، أوخاطرة تنازعها ، تهتاج أعصابه ، ويثور ثورته إن هوجم فيها ، ومنشأ هذا التعصب الثائر ، إما قوة الايمان بالفكرة ، أو أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك مالم يثب اليها أولا ، أو غرور وخيلاء ، وحيثما كان التعصب لزمته المجادلة أو المكابرة ، وقد يخفى على الانسان موضع التعصب فى نفسه ، فيحسب أنه مخلص فى طلب الحق ، وهو منطو على عصبية تدفعه ، وقد تبين له الحقيقة إذا راقب نفسه ، وحاسبها حسابا عسيرا

(١٠) سيطرة الاوهام : تستولى على كثير من الناس أوهام تجعلهم يسلمون بأفكار غريبه في ذاتها ، وهم باعتناقهم لها يخالفون من لم يقعوا تحت تأثير أوهامهم ، وليست تلك الاوهام مقصورة على العوام، بل انها قد تكون فى أشد أحوالها عند بعض خواص العلماء ولقد قال بعض الحكماء الاوربيين: « ان خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون ازاء حوادث السحر » وما ذلك الا لسلطان الاوهام .

١ ـ جدل العرب فى الجاهلية

(ا) العقلية العربية - الجدل بين شخصين صورة لمنازعهما الفكرية ، واتجاهاتهما العقلية ، لذلك كان من الضرورى عند دراسة الجدل فى أمة دراسة عقليتها ، وماعرض لها من منازع، واذا كنا بصدد دراسة تاريخ الجدل عند العرب ، كان من اللازم أن نعرف العقلية العربية .

اختلف العلماء فى حقيقة العقلية العربية بين مغال فى اعلائهم ، ومغال فى التصغير من شأنهم ، فالجاحظ يجعلهم نظراء الفرس والروم واليونان والهند بل أعظم، وابن خلدون يقول فيهم : « هم أبعد الناس عن العلوم ، لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعلم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى ، ولذلك كان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم ، أو المستعجمون باللغة والمربى، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم » ويقول أوليرى فى وصف العربى « يملك الطبع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، ولا يميل كثيرا إلى

دين ، ولا يكترث لشيء إلا بمقدار ما ينتجه من فائدة عملية » ويقول رينان في كتابه اللغات السامية ، واصفا الأمم السامية ، ومنها العرب « ان الامم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال ، جافة التصور ، تدرك الأشياء ادراكا أوليا ، ولا تتعمق في بحثها ، ولا تسترسل في كشف الحقائق ومعرفتها ، وتحكم على الاشياء لأول وهلة ، حكم المعتقد الجازم بصحة الشيء الذي أقنعته التجارب والبراهين القطعية ، خيالاتها محدودة ، وإدراكاتها محدودة ، ونظمها الاجتماعية معروفة محدودة، لا تعرف الانتقال ، غير قابلة للمرونة ، وغير أهل للتقدم ، ليس في نظم حكومتها مايدل على سعة الأدراك ، ولا على أثر التفكير ، وليس لها في علم الادب والفنون أثر يذكر بالنسبة لما تركته الامم الأخرى مما يدل على مجدها ومظاهر الرقى في الاجتماع وفي باب الفنون » وقال « ان الامم السامية لا فلسفة لها ، ولا أثر للقوانين والنظم فيها ، وإن الشرائع التي أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لاوجود لها عند الأمم السامية » ثم قال ان هذا كله يرى في بلاغتهم ويقول « الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنوع ، فموضوعات الشعر محدودة قليلة العدد جدا عند الساميين » وقد تبع هذا الرأى كثير من علماء أوروبا في منتصف القرن الماضي .

ويظهر للمتأمل في هذا الكلام أنه يصف العرب: (١) بالقصور الفكرى (٢) ويعد ذلك فيهم طبعاً وجبلة ولازمة من لوازمهم ولا تفترق عنهم

(١) وفي الحق اننا نجده قد تجنى على الحقيقه ، وظلم التاريخ ، اذ أنكر على العرب بلاغتهم في كلامهم ، وخيالهم الشعرى ، فقدعد عدم تنوع شعرهم دليلا على نقص تفكيرهم بالطبيعة والسليقة . فأن التاريخ الادبي للعربي يضعهم في صف أقوى الامم أدبا ، وأكثرها انتاجا ، لانكر أنه ينقصه

الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولـكن ليس معنى ذلك نقصان فطرتهم عمن انتشر بينهم ذلك النوعان،لأن البيئة الفكرية لها حكمها ، وهذا النوعان لا يسودان إلا فى أمة لها علوم وتسود فيها الـكتابة والتدوين ، والعرب كانت أمة أمية ، علومها تجارب ، ودراستها تلقين ، ومعارفها تؤخذ باللسان والمشافهة ، والتمرس بالحيـاة وأهوالها .

(٢) ولسنا ننكر أن العرب لم تـكن عندهم فى الجاهلية علوم كاملة ، وبحوث متنوعة وأفـكار فلسفية عميقة كفلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، بل نقول ما قاله صاحب الملل والنحل فى حكماء العرب « هم شرذمه قليلة ، وأكثر حكمتهم فلتات الطبع ، وخطرات الفـكر » ولـكن ليس ذلك لأن عقل العربى غير قابل للعلوم ، بل لأنه فى عصره الجاهلى لم تعرض له ثقافات واسعة النطاق ، تنظم فـكره ، وتهيؤه لبحث علمى منظم يتقصى أطرافه،ويتعمق فى ظواهره وخوافيه

(٣) وما كان كل ذلك الا من أثر البيئة الطبيعية والاحوال الاقتصادية ولم يكن فيه فطرة وجبلة، وخاصة لا تفارقه ؛ كما يدعى ذلك الأوربى المتعصب وإن لبس لبوس العلماء ، ولو كان القصور الفـكرى الذى ظهر فى عرب الجاهلية فطرة وجبلة ما كان من سلالتهم أولئك الفلاسفة الأعلام ، كالـكندى وغيره ، من حملة الفـكر الاسلامى الذين قال فيهم العلامـة سديو : « بذل العرب همتهم فى العناية بجميع ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون ، واشتهروا فى غالب البلاد خصوصا أوروبا النصرانية بابتـكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف ، ولنا شاهد على علو شأنهم الذى جهله الفرنجة من أزمان بعيدة » بل إن ذلك العالم المخلص فى طلب الحقيقة يرى فى طبع العرب الاستعداد للمعارف والعلوم ، اذ يقول فيهم : « كانوا

مستعدين استعدادا طبيعيا ، لأن يكونوا وسائط بلاغ بين الامم »

ولقد تصدت دائرة المعارف البريطانية لأبطال ادعاء رينان وأمثاله من ان القصور الفكري طبيعة العقل العربى فقد جاء فيها « وليس من صواب الرأى ما فعله رينان ولاسن بأضافتهم صفات خاصة الى الجنس السامى هى فى الواقع ناشئة عن عوامل خارجية ، فهى نتيجة البيئة التى عاشوا فيها والأحوال التى أحاطت بهم ، وانهم لو عاشوا فى بيئة أخرى وفى أحوال أخرى لظهرت لهم صفات جديدة »

(٤) ولسنا مغالين اذا قلنا إن العرب من ناحيه الاستعداد الطبيعى كـكل الامم ذوات الاعصاب الحادة القوية ، على استعداد لتلقى أرقى الثقافات إن تهيأت لها أسبابها ، ولذلك ظهرت بحوث فلسفيه عميقه دقيقه لـكثير ممن عنوا بالفلسفه منهم أيام أن ازدهرت العلوم والمعارف فى العصر العباسى كما اشتهر كـثير منهم بالاستقصاء والضبط والنظر فى العلوم نظرة كاملة شاملة مستنبطه ، كالخليل بن احمد فى استنباطاته اللغوية ، والشافعى فى بحوثه الشرعية القانونية ، وهما عرب بالثقافة والسلالة

(ب) معلومات العرب ودياناتهم — كانت معلومات العرب قليلة ، ساذجه ولم تكن لهم علوم بمعناها الحقيقى

(١) وكان كـثير من معلوماتهم مبناه التجارب الشخصية التى توارثوها خلفا عن سلف ، كعلاجهم بالـكى وغير ذلك (٢) وقد وصلت اليهم بعض معلومات تسربت اليهم من مجاوريهم الفرس والرومان ، لأختلاطهم بهم فى التجارة ، أو بالمجاورة . ولذلك كانت القبائل التى فى الأطراف كالغساسنة والمناذرة اكـثر ثقافه وأرقى علوما ، وكـذلك القبائل التى كانت تختلط بالفرس والروم فى التجارة كـقريش ، كانت أرقى فـكرا .

وأوسع عرفانا .

(٣) وكانت الصحراء مأوى للذين يفرون بعقائدهم وحرياتهم الدينيه كالكلدان ، فأنهم لما أغار عليهم الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد، وفتحوا بلادهم،وأرهقوهم ، وتقبوا عن قلوبهم،فحاولوا أن يغيروا عبادتهم انسابوا فى الجزيرة العربية ، وأفاد العرب منهم معلومات كثيرة فى الفلك أخذوا عنهم بعض ما علموا وما وصل اليهم من علم الهنود وغيرهم . وربما كان أقوى مايدل على أن العرب أخذوا من هؤلاء بعض ما كان عندهم خصوصا فى الفلك أن كثيرا من أسماء النجوم والابراج تشير مع عربيتها إلى أصلها الكلدانى ـ فكلمه مريخ معربه مرداخ الكلدانيه ، وكلمه الثور أصلها بالكلدانيه ثورا ، والعقرب عقربا ، وغير ذلك ..

(ج)دیانات العرب : العبادة نتيجة لأحد شعورين:(١)شعورالأنسان بأن قوة خفية لا يستطيع أن يدرك كنهها تسير العالم ، وتدفعه إلى الحركة فى دقة وإحكام ، وهو شعور مستكن فى أعماق النفس متغلغل فى أبعد أغوارها ، لاينزعه منها مراء أو جدال ، حتى لقد قال بعض الحكماء « إن إدراك الله بدهى ، وعرفانه بالفطرة والوجدان ، لا بالمنطق والقياس » .

(٢) وشعور المرء خطأ بأن محسوسا من المحسوسات أوتى قوة ليست لغيره تسيطر على الأشياء كشعور المصريين بأن للعجل قوة تسيطر عليهم ، وهذا شعور يدفع إلى الخطأ ، ولكن كان له أثره فى الزمن القديم .

وقد كانت الجمهرة العظمى من العرب عندها هذا الشعوران ، فدفعهم الأول إلى عبادة الله ، واعتقدوا أنه خالق الكون ، وبارىء النسم ، وشعورهم الثانى ، دفعهم إلى عبادة الأوثان تقربا بها الى الله زلفى كما حكى الله عنهم فى

قوله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ولكن كيف وجد عندهم الشعور بأن فى الأصنام قوة تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ؟ يقول بعض المؤرخين فى سبب ذلك : إن العرب كانوا يأخذون شيئاً من أحجار الكعبة إذا رحلوا من مكة ، وأقاموا فى غيرها ، فيعظمونها تعظيمهم للكعبة ، فانتشر لذلك تعظيم الحجارة بينهم ، ولما ذهب عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهلها من تعظيم التماثيل ، والتقرب بها أخذ طائفة منها ، وأقامها على الكعبة (وقد كان سادنها) ودعا العرب إلى عبادتها .

ويظهر أن إيمانهم بالأصنام لم يكن قويا لأنه لم يكن على دعامة من الحق . قال العلامة دوزى « كانوا فى ظاهر أمرهم يمجدون الأصنام ويحجون الى » « محرابها .. ويذبحون القرابين فى هياكلها ... على أن عقيدتهم لم تزد . » « على هذا القدر من المظاهر ، فقد كانوا لايترددون فى تحطيم آلهتهم » « إذا لم تتحقق نبوءتها ... وقد تنزل بأحدهم كارثة ، فينذر لأحد الأصنام » « أن يذبح نعجة قربانا له إذا انكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى » « يستبدل بالنعجة غزالا ، لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده . » فالنفس العربية لم تكن مذعنة تمام الأذعان ، مؤمنة تمام الايمان بتلك الأحجار ولقد وجد من مفكريهم من أنكر عليهم عبادة الأوثان ، واعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، خالق الكون من غير شك ولا إنكار .

وقد انتشرت المسيحة واليهودية فى بلاد العرب ، فالمسيحية كانت منتشرة فى الجنوب ، وفى نجران وفى غساسنة الشام ، وقد قال دوزى : « كانت » « المسيحية فى ذلك الزمان بما تحويه من معجزات ، وبما فيها من عقيدة » « التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية ، بعيدة عن » « التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى » .

وأما اليهودية ، فقد سكنت الجزيرة العربية من الزمن القديم ، إذا وفد إليها طائفة من اليهود الأولين ، الذين كانوا أوغلوا فى الصحراء بعد خروجهم من مصر ، وفر إليها طوائف من اليهود الذين نجوا بعقائدهم لما فتح بختنصر أورشليم ، ودك أسوارها ، ومزق اليهود كل ممزق ، ومن هذه الطوائف قريظة وبنو النضير ولما عاد اليهود إلى بيت المقدس بعد ذلك التمزيق ثم شردهم الأمبراطور أدريان الذى ثاروا عليه ، الحق بهم الأذى وشتتوا مرة ثانية ، كان منهم كثيرون جاءوا إلى الجزيرة ، هذا وقد دخل فى اليهودية بعض القبائل العربية ، وكانت اليهودية فى زمن دين اليمن الرسمى ، و كانت المدينة قبيل الاسلام مرجع اليهود ومثابتهم فيها أحبارهم ، وربانيوهم .

ويظهر أن القبائل المجاورة للفرس كان منها من تسربت إليه بعض المبادىء المجوسة ، بل من آحادها من اعتنق هذه الديانة ، ومنهم من كانوا من الصابئة الذين كانوا يقدسون الكواكب ، وذلك لدخول كثير من الكلدان فى البلاد العربية ، وفيهم شاع تقديس الكواكب واحترامها .

هذا ولما لليهودية والنصرانية والمجوسية ، والصائبة من أثر فى البلاد فى جاهليتها ، ولما نفثه اليهود والنصارى والمجوس بين المسلمين بعد الاسلام من سموم الخرافات ، وبذور الفتن التى ترتب عليها تفرق المسلمين بعد الاسلام فرقا مختلفة فى السياسة وأصول الاعتقاد ، لهذا وذاك نتكلم عن كل ديانة من هذه الديانات كلمة موجزة أشد الايجاز .

اليهودية : نزلت التوراة مشتملة على شريعة موسى عليه السلام ، واستمرت معمولا بها منهم ، يهديهم إليها أنبياؤهم الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام ، حتى أغار على بلادهم بختنصر فى المرة الأولى والثانية ، وأجلاهم عن بلادهم ، فلما عادوا بعد ذلك ، ومضت قرون عدة ، اختلفوا العروض التغيير والتبديل ،

فى أصولهم الدينية واستمروا فى اختلافهم الشديد بعد تخريب الرومان بلادهم وانتهت أفكارهم الدينية إلى كتاب سموه التلمود أخفوا عنه كثيرا مما جاء به موسى عليه السلام ، وزوادوا فيه أحكاما من رأيهم . قال المقريزى : « وصاروا « منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم ، وضمنوه ما هو من » « رأيهم ، ينسبون مافيه إلى الله تعالى ، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم » بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من » « عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم » « مما يكسبون » ويقول المقريزى أيضا : « لما جاء عانان رأس الجالوت » « إلى العراق أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده » « هو الحق ، لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا (١) موسى عليه » « السلام الذى بخطه » .

وقد افترقت اليهود بعد تخريب بلادهم ثلاث فرق : (١) الربانيون . وهم الذين أخذوا بما فى التلمود ، واعتبروا أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد التخريب كالأول ، وينزلونه منزلته فى التقديس والاحترام .

(٢) والقراء ، وهم لايعتبرون فى التقديس إلا البيت الأول ، ولايعتبرون التلمود ، ويأخذون بما فى التوراة فقط .

ـ٣ـ والسمرة وهم من الفرس الذين تهودوا وأقاموا بالشام ، وهؤلاء يزعمون أن التوراة التى بأيدى اليهود ليست توراة موسى ، أما توراة موسى فهى ما بأيديهم

---

(١) المشنا معناه استخراج الأحكام من الأمر الالهى

وقد افترقوا فى طريق فهم كتبهم على ثلاث فرق أيضا :

(١) الفروشيم وقال المقريزى إن معناها المعتزلة وهؤلاء يقولون كما قال المقريزي : « بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم ».

(٢) وطائفة يقال لها الصدوقية ، ومذهبهم كما فى المقريزى أيضا « القول بنص التوراة وما دل عليه القول الألهى فيها دون ما عداه »

(٣) وطائفة الصلحاء ومذهبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله والأخذ بالافضل والاسلم فى الدين .

هذا وقد تأثر اليهود بالفلسفة اليونانية ، لوقوعهم تحت سلطان اليونان والرومان قرونا ، وكان من أحبار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية ، جاء فى كتاب فجر الاسلام للاستاذ الجليل أحمد أمين : « قال بلدوين فى كتابه معجم الفلسفة إن الشرق والغرب اختلطا فى الاسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على ايجادها بحث الغرب وإلهام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقا ، كان من نتائجه ظهور عقائد دينية ، لاهى من الفلسفة المحضة ، ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين ـ أحدهما ـ ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثرا بالعلم اليونانى ـ وثانيهما ـ أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية ، والقضايا الدينية المحضة التى جاء بها المشارقة ومن أى الجهتين نظرنا ، رأينا أن النتيجة ، كانت فلسفية دينية ، لاهى فلسفة محضة ، ولا هى دين خالص » .

جاء اليهود إلى البلاد العربية ، ومعهم تلك الذخائر من الفكر ، لذلك أدلوا على العرب بتلك الثقافة وكانوا يقولون عن عرب الجاهلية « ماعلينا فى الأميين

سبيل . واثروا فى أفكار المسلمين ، وكان كثير من الفتن التى وقعت بين المسلمين لهم اصبع فيها ، أو هم موقظوها ومثيروها. فعبدالله بن سبأ كان على رأس الفتنة التى انتهت بقتل الخليفة الشهيد عثمان ، وكعب الأحبار أدخل القصص والخرافات فى افكار كثير من المسلمين . وكان اليهود أحد ثلاثة : فريق بقوا على يهوديتهم وفريق دخلوا فى الاسلام ظاهرا وأبطنوا غيره ، وآخرون دخلوا فى الاسلام ولكنهم متأثرون بأقاصيصهم وأخبار أحبارهم ، وأولئك وهؤلاء ادخلوا فى الكتب الاسلامية ، وخصوصا فى بعض كتب التفسير شيئا كثيرا من أوهامهم ، وهم جميعا كانوا من حملة الثقافة اليونانية التى كان لها الأثر الاكبر فى الفكر الاسلامى أيام ازدهار العلوم فى الدولة العباسية

النصرانيه : النصرانية دين توحيد ، نزل على سيدنا عيسى عليه السلام ، فقد دعا الى التوحيد، وحث بنى اسرائيل وغيرهم على التسامح والعفو ، والدعوة بالبركة على المعتدين وغيرهم ، وفى الجملة جاء الانجيل فيه موعظة وهدى للمتقين ولكن بعد انتقال المسيح إلى الرفيق الأعلى ، أخذت عقيدة التوحيد تلبس لبوسا يبعدها عن لبه ، ويظهر أن ذلك لم يتم دفعة واحدة ، فالتاريخ يحدثنا أن من النصارى فرقة هى أصحاب بولس الشمشاطى ، وكان بطريركا بانطاكية كانوا يأخذون بالتوحيد المجرد ، ويقولون إن عيسى عبد الله ورسوله ككل الانبياء ، وكان بولس هذا إذا سئل عن الكلمة وروح القدس ، قال لا أدرى ومنهم فرقة اريوس ، وكان قسيسا بالاسكندرية ، اعتقد التوحيد ، وكون عيسى عبد الله ومخلوقه ، ولكنه زاد على ذلك أنه كلمة الله التى خلق بها السموات والارض ، ويظهر أن هذه كانت الخطوة الأولى إلى التعدد والتثليث

ثم جاءت فرقة اسمها البربرانية ، وهم يقولون إن عيسى وأمه إلهان ، ولعل

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم . «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله »

ثم جاءت بعد ذلك فكرة التثليث .وقد أجمع القائلون به «على أن معبودهم ثلاثة أقانيم وهذه الاقانيم الثلاثة شيء واحد ، وهو جوهر قديم ومعناه أب وابن وروح القدس ، والجميع إله واحد ، وأن الابن نزل من السماء ، فتدرع جسدا من مريم ، وظهر للناس يحى ويبرىء وينبىء ، ثم قتل وصلب وخرج من القبر ، فظهر لقوم من أصحابه ، فعرفوه حق معرفة ، ثم صعد إلى السماء » (١)

ولكنهم اختلفوا فى طبيعة المسيح من حيث اجتماع الالوهية والانسانية فيه

(١) فالملكانية ترى أن المسيح إله تام كله ، وإنسان تام كله ، وليس أحدهما غير الآخر ، ومريم ولدت الأله والانسان ، وانهما ابن الله ، ولكن الذى صلب وقتل الانسان منه ، والأله لم ينله شيء

(٢) والنسطوريون يرون مثل ذلك ولكنهم يقولون إن مريم ولدت الانسان ، ولم تلد الأله منه والأله لم ينله شيء (٢)

(٣) واليعقوبيون قالوا إن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح وكما قال ابن حزم عنهم إن الله هو المسيح نفسه ، ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم . لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم

وكان بين هذه المذاهب جدال عنيف فى العقائد كما سنبين .

وقد دخل مذهبان من هذه المذاهب فى البلاد العربية قبيل الاسلام وهما النسطورية واليعاقبة ، كان الأولون فى الحيرة ، والآخرون فى الشام .

وكان للنصارى أثر فى العرب فى الجاهلية وفى الاسلام . ففى الجاهلية

---

(١) المقريزى جـ ٤ ص ٤٠٧ ، بتصرف قليل (٢) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جـ (١) ص ٤٩.

دخل كثير من العرب فى النصرانية ،فانتقلت إليهم بعض الثقافات التى كانت عند النصارى ، وقد كانوا متأثرين بفلسفة الاسكندرية ، وكان النساطرة هم أساتذتها فى فارس ، فلا غرابة من أن تصل أثارة من هذه الثقافات الى النفس العربية ، وقد أثار النصارى كاليهود حركة جدل ونقاش فى الجاهلية سنبينها عند الكلام على الجدل فى الجاهلية إن شاء الله.

المجوسية : لب المجوسيه فرض قوتين تتنازعان العالم : إحداهما قوى الخير وثانيتهما قوى الشر ،ورمزوا للاولى بالنور،والثانية بالظلمة . وقد قال الشهرستانى فى الملل والنحل عن المجوس : « زعموا أن الأصلين لايجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى ، والظلمة محدثة » ثم اختلفوا فى حدوثها من النور على فرق مختلفة يطول بنا القول لو عمدنا إلى ذكرها.

ومهما يكن من الأمر ، فآلهة الخير فى نزاع مستمر ، مع آلهة الشر . وعبادة الانسان إعانة لآلهة الخير ، وفعله فى الحياة يجب أن يكون فيه هذا المعنى أيضا ، وقد جاء فى المجوس مصلحون متثقفون . غيروا كثيرا من لب العقيدة واختلفت آراؤهم الخلقية والاجتماعية، ومن هؤلاء زرادشت الذى يزعمه بعض العلماء نبي الفرس ، ومانى ، ومزدك .

الزرادشيه : وملخص تعاليم الاول أن قوى الخير شىء واحد سماه «يزدان» وقوى الشر شىء واحد سمى «أهرمن» وبذلك يكون عنده قوتان احداهما للخير والاخرى للشر ويقول صاحب الملل والنحل فى مذهبه «كان دينه عبادة الله ، والكفر بالشيطان،والامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث . وقال النور والظلمة اصلان متضادان ، وكذلك يزدان واهرمن ، وهما مبدأ وجود العالم ، وحدثت التراكيب من امتزاجهما »ومن هذا ترى أنه يعتبر قوى الخير والشر غير الآله الأعظم ،وأن الآله الأعظم وهو الله سبحانه

وتعالى ، جعل هاتين القوتين مبدأ ، وهما يتغالبان تحت سلطانه، ولئن صح هذا لكان هذا المذهب قريبا من المذاهب التوحيدية ، ولا يعد من مذاهب الثنوية ومن مبادئه أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية، وقد حث على العمل حتى انه حرم على أصحابه الصوم ؛ لكيلا يضعفهم عن العمل ، ففضل أن يكونوا أقوياء عاملين، على أن يكونوا صواما زهادا غير عاملين، وقد أثبت أن للانسان حياتين: حياة دنيا وحياة أخرى ، وأن الأخرى الباقية، وفيها الخير كله ، كما أثبت الصراط والحساب ، والثواب والعقاب

(ه) المانوية : وهم أتباع مانى ، وقد كان راهبا بحران ( ) وقد سن بعد ذلك لنفسه مذهبا جامعاً بين الزرادشتية والمسيحية ، وقال الأستاذ برون فى دياناته « لأن تعد زرادشتية منصره أقرب من أن تعد نصرانية مزردشة » (٢) وهو يؤمن بنبوة عيسى وزرادشت ، ويدعى أنه هو البارقليط المبشر به فى الانجيل ، وقد قال : إن العالم يرجع فى تكوينه إلى قوى الخير وقوى الشر ، وكلتاهما تحت سلطان الله كما قال زرادشت ، ولكنه يختلف عنه . (١) بأن زرادشت رأى أن فى امتزاج النور بالظلمة طريقاً لنصرة الخير على الشر ، ولما كان هذا الامتزاج فى الدنيا، فهو يرى أن الخير فى صراع مع الشر ، وأن الخير سينتصر حتما فى هذا العالم ؛ ولذلك حث على التناسل ، وعلى العمل على تعمير هذه الدنيا ، . أما مانى فيرى أن امتزاج النور بالظلمة شر ، يجب الخلاص منه ، ولذا حرم النكاح حتى نستعجل هذا الفناء .

يروى أن قاضى قضاة الفرس فى عهد بهرام ناقشه فقال له : « آنت الذى تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم ؟ فقال مانى واجب أن يعان النور على خلاصه ، لقطع النسل ، فقال القاضى : فن الحق الواجب أن يعجل لك

---

(١) مروج العيون (٢) فجر الاسلام

هذا الخلاص الذى تدعو إليه ، وتعان على إبطال الامتزاج المذموم ، فبهت مانى ، فأمر به ، فقتل » . . .

وقد كان يدعو إلى الزهد وترك العمل ،

ومما قال فيه بهرام عند قتله : « إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم ، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده » وقد اضطهد أتباعه قبل الاسلام ، ولكنهم مع ذلك عاشوا إلى الإسلام ، بل استمروا إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وأخذ بمذهبهم أناس من أوربا .

المزدكية : وهم أتباع مزدك ، وقد كان يرى أن العالم مكون من عنصرين النور والظلمة ، كالمانوية ، غير أنه زاد عليهم الأخذ بأن النور مختار حساس ، وأن الظلمة ليست كذلك ، وبين أن امتزاج النور بالظلمة وقع بالاتفاق من غير اختيار ، وقد دعا إلى مذهب اجتماعى اشتراكى مخرب ، وقال الشهرستانى فيه : كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » . وقال الطبرى فى تاريخه : « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الأرزاق فى الأرض ، ليقسمها العباد بينهم بالتساوى ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الاغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأن من كان عنده فضل من الاموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى من غيره ، فافترص السفلة ذلك ، واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه ، وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا قباذ (١) على تزيين ذلك ، وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صار لا يعرف الرجل

---

(١) قباذ ملك الفرس فى إبان ظهور مزدك .

منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به » .

وهذا كما ترى مذهب اشتراكى فوضى مخرب ، بناه كما بينا على دعوى نشر المحبة بين الناس . ولأن فيه خلعا لكل قيود الاجتماع والفضيلة ، ودعوة للانسياق وراء الرذيلة ، وانطلاق الشهوات والنزوات ، اندفعت جموع لمناصرته ولما ترتب على ذلك من الخراب والفساد حاربهم ملوك فارس غير قباذ ، بل قيل إن قباذ نفسه هو الذى قتل مزدك بعد أن رأى من الفساد ما هز ع لأخلاق ، وضيع الأنساب ، وأذهب المروءات وبعد أن تفاقم الشر وادلهم الامر ، وذاعت العداوة مما أسموه دعوة الى المحبة ، ومع اشتداد الدولة الفارسية فى محاربتهم والقضاء عليهم ، تسربت الى قليل من المسلمين بعض آرائهم ، كما سنبينه إن شاء الله .

هذه هى الديانات الثلاثة التى اعتورت العقل الفارسى قبل الاسلام ، وقد سرى بعضها الى العرب فى الجاهلية . انظر إلى ماقاله ابن قتيبة فى كتابه المعارف « كانت المجوسية فى تميم ، منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، ومنهم الاقرع بن حابس ، كان مجوسيا » . كما سرى كثير من افكارها إلى بعض المسلمين الذين دخلوا فى الاسلام وفى رؤوسهم تعاليمها ، فاستمرت مستولية على شعورهم ، مع أنهم ارتضوا الاسلام دينا ، ومنهم من دخلوا فى الاسلام ظاهرا ، واضمروا تلك النحل باطنا ، وهؤلاء وأولئك كانوا سببا فى ظهور كثير من الفرق الأسلامية ، كما أن بعض الفرق ما كانت الا لمحاربتهم ، وسترى أنهم كانوا السبب الأكبر فى حركة الجدل فى أصول الاعتقاد بين المسلمين .

الصابئة اضطربت أقوال المؤرخين والعلماء فى حقيقة الصابئة اضطرابا كبيرا ، واختلفوا فى شأنهم اختلافا لم يجتمعوا فيه على رأى ، ولم ينتهوا معه إلى قول يطمئن اليه الفؤاد .

فقد قال أبو بكر الرازى فى كتابه أحكام القرآن : «انهم فريقان : أحدهما بنواحى كسكر والبطائح ، وهم صنف من النصارى وان كانوا مخالفين لهم فى كثير من دياناتهم ، (لأن النصارى فرق كثيرة) وهم ينتمون الى يحيى بن زكريا وشيث، وينتحلون كتبا يزعمون أنها كتب الله التى أنزلها على شيث بن آدم ، ويحيى بن زكريا، والنصارى تسميهم يوحناسية . وفرقة أخرى قد تسمت بالصابئين وهم الحرانيون الذين بناحية حران ، وهم لا ينتمون الى أحد من الانبياء ، ولا ينتحلون شيئا من كتب الله »

وقال فى موضع آخر من كتابه: «والصابئون الذين يعرفون بهذا الاسم فى هذا الوقت (١) ليس فيهم أهل كتاب ، وانتحالهم فى الاصل واحد ، أعنى الذين بناحية حران ، والذين بناحية البطائح فى سواد واسط ، وأصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة ، وعبادتها ، واتخاذها آلهة ، وهم عبدة الأوثان فى الاصل إلا أنهم منذ ظهر الفرس على إقليم العراق ، وأزالوا مملكة الصابئين ، وكانوا نبطا لم يجسروا على عبادة الاوثان ظاهرا، لأنهم منعوهم من ذلك ، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين ، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول فى النصرانية، فبطلت عبادة الاوثان من ذلك الوقت ، ودخلوا فى غمار النصارى فى الظاهر ، وبقى كثير منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان، فلما ظهر الاسلام دخلوا فى جملة النصارى ، ولم يميز المسلمون بينهم وبين النصارى ؛ اذ كانوا مستخفين بعبادة الأوثان كاتمين لاصل اعتقادهم ، وهم أكتم الناس لاعتقادهم، ولهم أمور وحيل فى صبيانهم إذا عقلوا فى كتمان دينهم، وعنهم أخذ الاسماعيلية كتمان المذهب ، وإلى مذهبهم انتهت دعوتهم . وأصل الجميع

---

(١) الوقت الذى عاش فيه أبو بكر الرازى هو القرن الرابع الهجرى فقد توفى فى سنة ٣٧٠ من الهجرة

اتخاذ الكواكب السبعة آلهة وعبادتها ، واتخاذها أصناما على أسمائها ، لاخلاف بينهم فى ذلك وإنما الخلاف بين الذين بناحية حران ، وبين الذين بناحية البطائح فى شىء من شرائعهم ، وليس فيهم أهل كتاب »

والذى يستخلص من هذا الكلام أن القرن الرابع الهجرى لم يشهد إلا صنفا واحدا من الصابئين ، بعضهم يسكن بالبطائح ، وبعضهم يسكن بحران ، وقد اتفق الجميع مع تباين الأصقاع على عبادة الكواكب ، وإن اختلفا فى بعض الشرائع ، لا فى لب الاعتقاد ، ويظهر أن بعضهم قد لبس مسوح النصارى وظهر بمظاهرهم ، استخفاء بدينهم ، وكتمانا لحقيقة أمرهم

أما قبل القرن الرابع ، فيفيد كلامه أنهم كانوا فريقين : أحدهما ينتحل دين النصارى تقية وخوفا ، ولذا يقول « والذى يغلب فى ظنى فى قول أبى حنيفة فى الصابئين أنه شاهد قوما منهم ، يظهرون انهم نصارى وانهم يقرءون الانجيل وينتحلون دين المسيح تقية ؛ لأن كثيرا من الفقهاء لا يرون إقرار معتقدى مقالتهم بالجزية ، ولا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف » ويقول « وأما أبو يوسف ومحمد فقالا ان الصابئين ليسوا أهل كتاب ، ولم يفصلوا بين الفريقين » .

وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا شيئا فهو أن الفريقين كانا قبل القرن الرابع متقاربين إلى درجة الالتباس ولذا كان ذلك الاختلاف بين أبى حنيفة وصاحبيه . بل إن الاختلاف فى حقيقتهم لم يكن فقط بين فقهاء الحنفية ، بل كان بين فقهاء التابعين أيضا ، فقد روى عن الحسن البصرى أنه كان يقول فى الصابئين هم بمنزلة المجوس ؛ وروى عن مجاهد أنه قال : الصابئون قوم من المشركين بين اليهود والنصارى ليس لهم دين ، وروى عن جابر أنه سئل عن الصابئين أمن أهل الكتاب ، وطعامهم ونساؤهم حل للمسلمين ؟ فقال نعم .

ومن هذا ترى أن حقيقتهم كانت ملتبسة على فقهاء التابعين ، ولذا اختلفت

أنظارهم ، وتباينت آراؤهم ، ولو كانت حقيقتهم معروفة على التعيين أهم أهل كتاب أم ليسوا أهل كتاب ؟ ما اختلفوا ذلك الاختلاف . وذلك الالتباس كان لتقارب من انتحل منهم نحلة النصارى من غيرهم

ولنترك الفقهاء فى خلافهم ، ونول وجهنا شطر مؤرخى الملل والنحل . فسنجد أن الشهرستانى يذكر أن الصابئة فريقان :

(١) أصحاب الروحانيات . وهؤلاء يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى فاطر السموات والأرض ، وهو مقدس عن سمات الحدثان ، والواجب معرفته العجز عن الوصول الى جلاله ، وانما يتقرب اليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون فعلا وحالة ، الذين فطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم أنهم يرون فى الروحانيات أنهم يتوسطون فى الايجاد وتصريف الأمور ، فمن المطر روحانى يدبره ، وقد اعتقد هذا الفريق من الصابئة أن الروحانيات قد حلت فى السيارات السبع ، فقدسوها أو عبدوها .

(٢) وأصحاب الأشخاص ، وقد قالوا مقالة الأولين فى أن الله هو المنشىء الأول ، وأن الروحانيات متوسطات فى الايجاد والاختراع ، وأنها تحل فى السيارات ، ولكن لما كانت السيارات تطلع وتأفل اتخذوا أصناما على مثال الهياكل وهى السيارات ، كل شخص فى مقابل هيكل ، فدانوا بهذا من عبدة الأوثان ، وقد ذكر الشهرستانى بعد ذلك أن الخليل ابراهيم ناظر الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، ثم ناظر أصحاب الهياكل الروحانيين وقد ذكر الله ذلك فى قوله تعالى « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الآيات » . ويفهم من كلام الشهرستانى ومن المناظرات التى ساقها بين من سماهم حنفاء ، والروحانيين أن من الصابئة من اعتقد أن الروحانى هو الوسيط وهو الذى

يعبد من غير نظر الى هيكله (١)

ويقول في الحرانيين ابن النديم في الفهرست كلاما كالذي أثبته الشهرستاني ولكنه يزيد على عليه أن هؤلاء انتحلوا اسم الصابئة فرارا من القتل ، ويحكي في ذلك أن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاه الناس يدعون ، وفيهم جماعة من الحرانيين ، وكان زيهم إذ ذاك لبس الاقبية ، وشعورهم طويلة ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم من أنتم من الذمة ؟ فقالوا : نحن الحرانية ! فقال : أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهود أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فمجوس أنتم ؟ قالوا : لا ، قال لهم أفلكم كتاب أم نبي ؟ فجمجموا في القول فقال لهم : فأنتم إذن الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأنتم حلال دماؤكم ، لا ذمة لكم ، فقالوا نحن نؤدي الجزية . فقال لهم : انما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم عز وجل في كتابه ، فاختاروا أحد أمرين : إما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو دينا من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا امرت بقتلكم واستئصال شأفتكم (٢) ويقول إن المأمون رحل الى الروم وهم قد أسلم بعضهم ، وبعضهم قد انتحل اسم الصابئة ليكون في دين ذكر في القرآن .

والحق أني أشك في صدق هذه الحكاية (١) لأنه بعيد جدا أن يكون المأمون غير عليم بعقيدة الحرانيين ، إذ المأمون يعد من العلماء الفلاسفة الذين أوتوا حظاً كبيرا من علم الملل والنحل ، فكيف لا يعرف شيئا عن ملة قوم من رعيته ؟

(٢) ولأن بعض التابعين قد وصفوا الصابئة بالوصف الذي عليه الحرانيون من أنهم يعبدون الكواكب والأوثان ، إذن فالحرانيون كان يطلق عليهم اسم

---

(١) يراجع الموضوع كله في الملل والنحل للشهرستاني ج ٢

(٢) الفهرست ص ٤٤٥

الصابئة قبل المأمون

(٣) ولأن أباحنيفة وصاحبيه اختلفا فى حقيقة الصابئة كما علمت ، وأن صاحبيه وصفا الصابئه بالاوصاف التى يوصف بها الحرانيون ، فالحرانيون إذن كان يطلق عليهم اسم الصابئة قبل أن يجىء المأمون ، لأن الصاحبين عاصرا الرشيد ، ومن قبله ، كما يعلم كل من له المام بالتاريخ

(٤) ولأن القصة تذكر أن المأمون سألهم أهم نصارى ؟ أهم يهود ؟ أهم مجوس ؟ ولم تشر إلى أنه سألهم أهم صابئة مع أن الصابئين ذكروا بجوار اليهود والنصارى ، وبعيد أن يغفل المأمون عن الصابئين ، وهو المجادل الخصم الحاضر البديهة ، القوى العارضة ، الذى قضى أكثر حياته فى نضال فكرى قوى .

وعلى ذلك فنحن نميل إلى أن الحرانيين كان يطلق عليهم اسم الصابئة قبل المأمون بل قبل مجىء الاسلام ، كما تبين من فحوى كلام أبى بكر الرازى ، ونميل مع ذلك إلى أنهم كانوا يقدسون الكواكب ، ومنهم من اقتبس من النصرانية واليهودية على ماعلمت ، كما اقتبس المانوية من المسيحية على ما ذكرنا من أن دياناتهم كانت مزيجا من النصرانية والزرادشتية

بقى أن نتكلم فى أمر قد أثاره بعض الباحثين وهو أهؤلاء الصابئون هم المذكورون فى القرآن أم صابئة القرآن غيرهم ؟ ومن هم ؟

قد رأيت أن ابن النديم قد حكم بأن صابئة القرآن ليسوا هم الحرانيين ، ولا من يقاربونهم . وبرجوعنا الى كتب التفسير نجد المفسرين قد اختلفوا فى حقيقتهم ، كاختلاف المؤرخين وعلماء الملل والنحل أيضا .

١ – فالراغب الأصفهانى فى مفرداته فى غريب القرآن يقولون « الصابئون قوم على دين نوح ، وقيل لكل خارج من دين الى دين صابىء » .

٢ – وشيخ المفسرين ابن جرير يقول : « قالوا الذين عنى الله بهذا الاسم قوم

لادين لهم... عن مجاهد الصابئون ليسوا يهودا ولا نصارى ولا دين لهم» ثم يروى عن عطاء أنه قال: «الصابئون هل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل (١) يقولون لا إله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول» .

٣ــ وفخر الدين الرازى يروى الاختلاف فى شأنهم فيروى أن بعض المفسرين يقول إنهم طائفة من المجوس واليهود، وأن بعضهم يقول إنهم يعبدون الملائكة ثم يذكر أنهم يعبدون الكواكب فيقول «ثالثها وهو الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب» .

والحافظ ابن كثير يروى الاقوال السابقة ويزيد عليها قول الخليل أنهم قوم يشبه دينهم دين النصارى، وقول القرطبي انهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة .

وهكذا تدور أقوال المفسرين الاقدمين حول هذه الاقوال والكثرة ترى أنهم يعبدون الكواكب أو أن لها أثرا فاعلا فى الكون .

والمتأخرون من المفسرين لم يخرجوا عن ذلك النطاق، فالالوسى يقول فى شأنهم «هم قوم مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين، واتخاذهم وسائط، ولما لم يتيسر لهم التقرب اليها بأعيانها والتلقى منها بذواتها، فزعت جماعة منهم الى هياكلها، فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهند مفزعها الثوابت وجماعة نزلوا عن الهياكل الى الاشخاص التى لا تسمع ولا تبصر، فالفرقة الاولى هم عبدة الكواكب، والثانية هم عبدة الاوثان، وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى، مختلفون فى الاعتقادات والتعبدات.. وقيل هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم، وقيل أنهم يقرون بالله تعالى، ويقرءون الزبور، ويعبدون الملائكة

---

(١) لعله يقصد الصابئين الذين كانوا بالبطائح، وقد علمت أنهم كانوا يتفقون مع الحرانيين فى عبادة الكواكب، ويختلفون عنهم فى بعض الشرائع .

وقد أخذوا من كل دين شيئا» .

والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده يتردد بين كونهم فرقة من النصارى، وبين كونهم أهل دين آخر، فيقول .

فيقول « وأما الصابئون ، فأن كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما في كثير من التقاليد ، كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد، فالأمر ظاهر ، وهو أن حكمهم كحكمهم ، وأن كان الخلط عندهم أكثر، والبعد عن الأصل أشد ، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب ، على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى، فان عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة تؤثر عن المسيح عليه السلام، والنصارى هم أشد أمم الارض عتوا وطمعا وإسرافا في حظوظ الدنيا . ويقال إن الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الانبياء المعروفين ، ولكن قد اختلط عليهم الأمر كما اختلط على الحنفاء من العرب، إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام مالم يكن عند العرب » .

مضطرب فسيح ، ومزدحم من الآراء ، يتيه العقل في اختيار رأى يطمئن اليه ويسكن عنده، ولكن مع ذلك نلمح من بين ثناياها ، ومن خلال ذلك المعترك أن صابئة القرآن هم قوم يقدسون الكواكب أو يعبدونها، مع أخذ من النصرانية ، وهذا هو القول الذي عليه الكثرة الغالبة، وهو الذى يتفق مع التحقيق التاريخي الذى أسلفناه .

والنتيجة من ذلك السياق ، وهذه المقدمات أن الصابئة قوم يعبدون الكواكب أو يقدسونها ، وقد خلطوا بذلك بعض المبادىء النصرانية وبعض تقاليد النصارى، كما خلط مانى بالزرداشية مبادىء نصرانية، وأن هؤلاء هم الصابئة المذكور في القرآن والله أعلم بالصواب .

— د — الجدل بين أهل هذه الديانات : رأيت البلاد العربية كانت مسرحا لكثير من الديانات ، ومضطربا فسيحا للنحل المختلفة ، وحيثما اجتمع أهل دينين ، فلا بد أن الاحتكاك يشتد بينهما ، يأخذ أحيانا صورة الجدل البياني ، وأحيانا أخرى يمتشق الحسام ، وتتقارع الاسنه بدل مقارعة الحجج . والتاريخ يروى أن البلاد العربيه كان فيها هذا النوعان من الاحتكاك . فذو نواس اليهودي كان يحاول نشر اليهودية بين نصارى نجران بالسيف ، بعد أن عجز عن استمالتهم بالحجة والبرهان ؛ والحرب كانت قائمة وشديدة بين القبائل الوثنية بالمدينة وبين اليهود ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم .

وأما النزال بالبيان ، والجدل باللسان فقد كان كثيرا . وإنا ذاكرون لك طرفا منه ، واصفين حاله ، مبينين شعبه وأنواعه فنه :

ا — الجدل بين النصارى والمشركين : وكان ذلك بين القبائل العربية المشركة التي تجاور القبائل النصرانية ؛ لأن النصارى كثيرا ما كانوا يدعون تلك القبائل إلى عقيدتهم ، ويبشرون بها وينذرون بالبعث والنشور ؛ وغير ذلك مما كان بعض العرب ينكره ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى « أئذا متنا وكنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » بل كان القسيسون والرهبان يردون الأسواق العربية ، ويعظون ويبشرون ويذكرون البعث والجنة والنار ولعل خطبة قس بن ساعدة التي اشتهرت في كتب الأدب من ذلك النوع . ولكن يظهر أن العقل العربي الفطري لم يستسغ عقيدة التثليث ، ولا الايمان برب مصلوب ، لذلك تصدوا للرد على النصارى ، وابطال دعاويهم ، وكانت المناقشة بين الفريقين التحام عقل ساذج فطرى ، لايدرك تعقيدا ، وعقل معقد يدعو الى عقيدة ليس من السهل استساغتها ، وقد روى في التاريخ مناظرة تصور لك ذلك الالتحام تمام التصوير ، وهاهي ذه بما حاطها من أحوال .

أراد الأساقفة أن ينصروا المنذر الثالث ملك الحيرة حوالى عام ٥١٣ من الميلاد ، وإن المنذر ليصغى اليهم اذ دخل عليه قائد من قواده ، فأسر اليه بضع كلمات ، ولم يكد ينتهى فيها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق ، فتقدم اليه قسيس من القسيسين يسأله عما أشجاه ، فأجابه الملك : ياله من خبر سيء ! لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتاه عليه ، فقال القسيس : هذا محال ، وقد غشك من أخبرك ، فان الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ، فأجابه الملك : أحق ما تقول ؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت (١) .

انظر إلى تلك المناقشة التى تلمح فيها قوة العقل التى ترد أعقد المسائل الى أقرب البدهيات ، ليدركها النظر السليم ، وليفحم المجادل العنيد ، وألا تلمح سذاجة الفطرة القوية ، قد التقت مع التفكير المعقد فحلت عقدته ، وبينت له ما ينبغى أن يدركه الفكر القويم ؛

ولكن يظهر أن النصارى كانوا يلحنون عليهم بالحجة ، عندما كانوا يعمدون إلى تحطيم عقدة العرب فى عبادة الأوثان وإنكار البعث وغيرها . وكانوا يدلون عليهم بعلمهم وثقافتهم . وكل أولئك مسائل تجعل لهم الغلب فى مقام الجدل أحياناً . ولاجل هذا وماسبقه من استقامة الفكر العربى كانت المنازلة الفكرية سجالا ، لا انتصار لأحد الفريقين على الآخر .

(ب) جدل اليهود مع المشركين : تغلغل اليهود فى البلاد العربية ، واختلطوا بأهلها ، وكانت بينهم منافسات ومنازعات ، كالحال بين كل طائفتين من الناس ، لم تتوحد مشاعرها ، ولم تجمعهما عادات ، والوحدة الجنسية بينهما قوية الأواصر والمنازع الدينية ليست متحدة ، وقد كان اليهود يحاولون نشر دينهم فى البلاد

(١) جاء هذا فى كلام للمستشرق دوزى ترجمه الاستاذ كامل كيلانى

العربية كلها ، والعرب ينفرون من دعوتهم؛لأنهم وجدوا فى اليهود قوما مغالين فى تقدير أنفسهم ، ومنزلتهم الدينية ، حتى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، ومن كانت هذه حالة لايجيب الناس داعيـه ، ولا يغشون ناديه ، ولأن من اليهود من كانوا يستبيحون أموالهم ، ولايوفون بعهدهم ، كما حكى القرآن الكريم عنه : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم ما إن تأمنه بدينار لايؤده اليك، إلا مادمت عليه قائما ؛ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل» فهم كانوا ينظرون إلى العرب كأنهم فى المنزل الهون ، والمكان الدون فطبيعى أنهم اذا دعوهم الى دينهم لايدعونهم بالحسنى والرفق ، ولا يحاولون اجتذابهم ، وأولئك يجدون فى أخلاقهم ومعاملاتهم لهم مالا يرغبهم فى اليهودية لذلك كانت تكثر المجادلات والملاحاة ، والمخاصمات . وقد أشار القرآن الى شىء من ذلك فى مثل قوله تعالى فى شأنهم « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقا لما معهم،وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به» وقد حكى أصحاب السير والمفسرون شيئا من تلك المناقشات من ذلك ما جاء . فى السيرة النبوية لابن هشام منسوبا الى سلمة بن سلامة من أهل بدر « قال كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الاشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل . قال سلمة وأنا يومئذ أحدث من فيـه سنا على بردة لى ، مضطجع فيها بفناء أهلى ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنـة والنار،قال فقال ذلك لقوم أهل شرك ، أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت ، فقالوا له ويحك يافلان ، أوترى هذا كائنا ،أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار،يجزون فيها بأعمالهم . قال نعم : والذى يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى النـار يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ؛ بأن ينجو من تلك النار غدا.فقالوا ويحك يا فلان ، فما آية

ذلك؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة واليمن ، فقالوا ومتى نراه ، قال فنظر إلىّ وأنا من أحدثهم سنا ، فقال إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه ألا ترى من هذا صورة وإن لم تكن كاملة لمناظرة ؛ وضح فيها عقيدة البعث ، وناقشوه فيها ، ثم أتى لهم بما رآه دليلا ، وفيه تبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم.

جدل المشركين مع الحنفاء : علمت أنه كان من بين العرب من أنكر على المشركين عبادة الأوثان، فهجروها ، ومنهم من دخل النصرانية ، ومنهم من دخل في اليهود ، ومنهم من بقي على عبادة الله وحده ، ولم ير في المسيحية واليهودية في عصره دينا يطمئن اليه قلبه ، وتسكن اليه نفسه ؛ وسمى أولئك حنفاء (١) وكانوا يقولون إنهم آخذون بديانة ابراهيم عليه السلام ، وكانت

(١) وادعى بعض الفرنجة أن الحنفاء هم مشركو العرب ، وذلك قول باطل ليس له أساس من الحقيقة ، وقد خالفهم بعض الفرنجة ، فشهد عليهم بعض أهلهم ، ومن هؤلاء دوزى ، فهو يقول في الحنفاء « كان للحنفاء رأي واحد في رفض اليهوديه والمسيحية معا، والاعتراف بدين ابراهيم ... وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة الحجة سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العمليين ، صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة » ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الرد على الفريق الأول من الفرنجة: «قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج إن الحنفية هي ما كان عليه العرب من الشرك ؛ واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية « إن فعلت هذا أكون حنيفا » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة، وقد تأخرت بعض علماء الافرنج في هذا، فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني ، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها . ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الكلمة

دعوتهم اخوانهم العرب لهجر عبادة الأوثان حافزة للجميع على المناقشة ، ولم ينظر العرب اليهم نظرة عاطفة ، بل اضطهدوهم وأخرجوهم من ديارهم ، لما وجدوهم يحاربونهم فيما ألفوه ، ولم يجدوا لهم حجة يردون بها عليهم ، وحينما وجدت قوما آخذين بعقيدة راسخة ، لايستطيعون الدفاع عنها ، ولا الابراء عليها ، وأمامهم قوم ينقضونها ، فلا يقوون على الرد عليهم ، فاعلم أن العاجزين سيعمدون الى القوة حيث عجزوا عن الدليل ؛ وأمحل بهم البرهان ، ومن الحنفاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وإنا ذاكرون لك شيئا من أمره ، لتتصور كيف كان يناقش فى عقيدتهم ، وكيف اضطهد فى عقيدته . قال فيه ابن هشام ، بعد أن ذكر دخول من انكروا عبادة الأوثان فى النصرانية واليهودية «وأما زيد بن عمرو ابن نفيل ، فوقف فلم يدخل فى يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال : اعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعيب ماهم عليه ، قال ابن اسحق ، وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : « لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا ، مسندا ظهره الى الكعبة ، وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ماأصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لوأنى أعلم أى الوجوه ، أحب اليك عبدتك به ، ولكنى لاأعلم ، ثم يسجد على راحته » وكانت زوجه صفية بنت الحضرمى تناقشه ، وتنكر عليه عبادته .

تدل لغة على الشرك ، وإنما مراده بكلمة البراء من دين العرب مطلقا . وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء وينتسبون إلى ابراهيم ويزعمون أنهم على دينه . وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضا . والسبب فى هذه التسمية أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة

ولما اعتزم الخروج من مكة استنكارا لعبادة أهلها الأوثان ؛ منعه عمه الخطاب بن نفيل من الخروج وعاتبه ، وجعل زوجه صفية هذه عينا عليه ، تخبره كلما أراد الخروج وتهيأ له ، وقد استمر يناقشهم فيما ارتآه ، ويدعوهم اليه ، حتى أغروا به سفهاءهم ، وآذوه كراهة أن يفسد عليهم دينهم ، وأن يتابعه أحد ؛ فضاقت به الحال ، وخرج الى الموصل والجزيرة ، طلبا لقوم يتدينون بدين ابراهيم ، وهو حيثما حل ناقش من يلاقيهم من أهل الديانات ، حتى انه شام اليهودية والنصرانية ؛ فلم يرض شيئا منهما ، ولما توسط بلاد لخم عائدا الى مكة داعيا الى عقيدته قتلوه ، وقد قال فيه النبي ﷺ «انه يبعث أمة واحدة » ألا ترى من هذا صورة مصغرة لجدل ، كان يقوم بين المشركين ، وأولئك الموحدين وقد كان جدل قوم ، وصلوا بعقولهم إلى الحق ، فيهم من قوة النفس ، وقوة الفكر شطر كبير ، مع قوم اتبعوا ما ألفوا ، ولم يريدوا أن يغيروه ، فبينا ترى في الأولين حركة فكر وقوة استدلال ، ترى في هؤلاء جمودا وعكوفا على فكرة بالية ، وكسلا ذهنيا يمنعهم من التحليق في غير الجو الفكرى الذى عاشوا فيه وألفوه حقا كان أو باطلا ، وكذلك يكون دائما الجدل بين النشطاء ذوى الفكر المستقل العامل ، والمقلدين ذوى الفكر التابع الخامل ، وسترى صورة لذلك النوع من الجدل ، هى على أوضح منهاج له ، وأبين شكل من أشكاله فيما يلى

الجدل فى عصر النبوة

جاء النبي ﷺ بدين يخالف كل الأديان التى كانت فى البلاد العربية ، فى عقائده ، وعباداته ، وشرائعه الاجتماعية ، وآدابه الخلقية ، من بعد أن كان يسود البلاد العربية عبادة الأوثان. جاءهم محمد ﷺ بعبادة إله واحد هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، ولكل انسان أن يدعو الله فيجيبه من غير وساطة «ادعونى أستجب لكم» وأن يفهم الدين كتاب وسنة رسوله من غير توسيط أحد ، فليس لأحد كائنا من كان سلطة على الناس فى عقائدهم ، وبذلك خالف دين محمد اليهود والنصارى «الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» وقد آمن النبي ﷺ وتابعوه، كما أمرهم ذلك الدين الحنيف بالأنبياء السابقين ، فخالف بذلك اليهود والنصارى أيضا الذين يريدون ألا يعترفوا بغير اليهودية أو النصرانية دينا ، «وقالوا كونوا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، قولوا ءآمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به، فقد اهتدوا، وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم»

دعا ذلك الدين الجديد إلى الايمان بحياة أخرى ، فيها يجزى الانسان بالخير خيرا ، وبالشر شرا «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وبذلك خالف ماكان عليه بعض المشركين من إنكار البعث والنشور فقد قالوا « ذلك رجع بعيد ».

خالف ذلك الدين فى آدابه وشرائعه كثيرا مما كان عليه المشركون فى

الجاهلية ، وحرم الدعوة الى العصبية الجاهلية ، فقال عليه السلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية » وان شئت أن تعرف خلاصة ماجاء به ذلك الدين مخالفاً ما كان عليه العرب فى جاهليتهم ، فاستمع الى ما روي عن جعفر بن أبى طالب ، إذ قال مخاطبا النجاشى ملك الحبشة : « كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا » .

جاء محمد ﷺ بكل ذلك ، فخالف العرب قاطبة فى كل ما كانت عليه من عبادة ، فكان طبيعيا أن تحدث دعوته هذه حركة فكرية جدلية واسعة النطاق ، وأن تكون شاغلا للذهن العربى حقبة طويلة من الزمان ، بل إن الانسان لا يعدو الحقيقة إذا قال : إن النبى ﷺ بمجرد أن دوى صوته الرهيب فى الجزيرة العربية مناديا العرب عامة وقريشا خاصة قائلا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن

كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالاحسان احسانا، وبالشر شرا، وانها للجنة أبدا أو النار أبدا ، وانكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد» بمجرد أن نادى النبي ذلك النداء ، صارت الجزيرة كلها تتحدث فى شأنه ، وتتجادل فى أمره ، بين حائر مضطرب بين قديم قد ألفه ، وجديد قدعرفه ، ومنكر ملاح ؛ لأنه رأى فى الجديد ما يناقض غاياته ومآربه وميال الى ما قال الرسول ؛ لأنه رأى فيه وضح الحق المبين ، بل ان الجدل فى شأن النبي ﷺ تجاوز فى عصره (ﷺ) ربوع البلاد العربية الى الروم والفرس والحبشة ، كما رأيت من كلام جعفر بن أبى طالب السابق للنجاشى ، وكما سنبين فى مناقشة هرقل لأبى سفيان .

ولأجل أن نحصر الجدل فى عصر النبي نقول : ان الجدل فى عصره عليه السلام ، كان من نواح ثلاث :

(ا) جدل النبي ﷺ مع المشركين (ب) وجدله عليه السلام مع اليهود والنصارى . (حـ) وجدل العرب والروم والحبشة مع بعض القرشيين .

ـ ا ـ جدل النبى عليه السلام مع المشركين : دعا النبي عليه السلام الى ربه بالحسنى ، وبين لهم عقيدة الاسلام بالتى هى أحسن ، ويقول ابن جرير الطبرى فى تاريخه : «صدع رسول الله ﷺ بأمر الله ، ونادى قومه بالاسلام ، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه بعض الرد فيما بلغنى حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل ذلك ، ناكروه ، وأجمعوا على خلافه وعداوته الا من عصم الله منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون » ويفهم من هذا أن المشركين عندما ناداهم بالدعوة أعرضوا ونفروا ، ولكن لم يظهروا عداوة ، ويظهر أن النبي ﷺ لاحظ ذلك الاعراض ، فأراد أن يجذبهم الى مناقشته ، والمناقشة بين الأكفاء محك الصواب ، ومخبار الحقيقة ، فذكر آلهتهم ، وبين بطلان

عبادتها ، فأقبلوا مجادلين ،ولكن الجدل باللسان أعجزهم ، وهم القوم الخصمون فعمدوا الى الاستهزاء والسخرية ، وأغروا السفهاء به ﷺ ثم انتقل الأمر من جدل ومقارعة بالحجة الى اضطهاد ومقاطعة للنبي عليه السلام ، مما تعلم أمره فى السيرة النبوية .

وهنا نذكر لك شيئا من جدلهم له عليه السلام يصور لك حالهم ، ويبين مآلهم .

جاء فى سيرة ابن هشام أن المشركين عند ما ضاقوا بالنبى عليه الصلاة والسلام،وذهبت معه كل حيلة لهم ، بعثوا اليه ليكلموه ويخاصموه ، فجاءاليهم عليه السلام«فقالوا له يامحمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين،وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا جئته فيما بيننا وبينك،فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب الشرف فينا،فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذرفيك ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ : مابى ما تقولون ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ؛ ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابه وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ؛ فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخر ، وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا يامحمد : فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك ، فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشامنا

فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ؛ وليبعث لنا من مضى من آبائنا ؛ وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخ صدق ؛ فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فان صدقوك صدقناك ؛ وعرفنا به منزلتك من الله ؛ وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : مابهذا بعثت اليكم ؛ انما جئتكم من الله بما بعثنى به ؛ وقد بلغتكم ماأرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بينى وبينكم.قالوا فاذا لم تفعل ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا ، وكنوزا من ذهب وفضة ، يعينك بها عما نراك تبتغى ، فانك تقوم فى الأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ ماأنا بفاعل ، وماأنا بالذى يسأل ربه هذا، ومابعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وأن تردوه على أصبر، حتى يحكم الله بينى وبينكم ، قالوا فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لوشاء فعل،فأنا لا نؤمن لك إلاأن تفعل.فقال رسول الله ﷺ ذلك الى الله انشاء أن يفعله بكم فعل . قالوا يامحمد أفما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك مانطلب،فيتقدم اليك فيعلمك ماتراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا اذا لم نقبل منك ما جئتنا به . انه قد بلغنا أنك انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يامحمد . وانا والله لا نتركك وما بلغت منا ، حتى نهلكك ، أو تهلكنا

هذا ماذكره ابن هشام ، وقد رأينا فى القرآن ردا على كل ماقالوه ،وقد كان يتلوه بين ظهرانيهم صباح مساء . ويعلمهم أنه آية نبوية ، ومعجزة رسالته ، وقد حكى الله تعالى مطالبهم والرد عليها فى سورة الاسراء اذ قال تعالت كلماته : «وقالوا لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدي الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا »وقد بين سبحانه قبل ذلك الحجة القائمة عليهم ، والآية الواضحة،وهى القرآن فقال « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله،ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . ورد الله تبارك وتعالى عليهم انكار كون البشر رسولا،وزعمهم أنه لابد أن يكون ملكا بقوله تعالى فى سورة الانعام ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر، ثم لاينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون »

وترى من هذا أنهم ينساقون وراء مطالب لايقصدون بها الا تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبى يرد الحجج بالقرآن ، ويبين لهم أنه الحجة القائمة عليهم ، فان أتوا بمثله بطل كل دعوي يدعيها ، وإذا لم يأتوا وعجزوا وجب أن يسلموا بكل ما يدعى .

كان النبي يرد عليهم بالقرآن ، ويتلوه على مسامعهم ، فيرون فيه ردا قاطعا

لهم ، ومعلما قائما ، يثبت عجزهم ، فقالوا كما حكى الله عنهم فى قوله: « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن،وألغوا فيه لعلكم تغلبون » ولكن القرآن كان يجذبهم اليه ، ويجدون فى أنفسهم شوقا ملحا إلى سماعه

ولما أمحلت بهم كل الحجج ، ذهبوا الى اليهود يستشيرونهم فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسألونهم علما بالكتاب ، لكى يستطيعوا الرد على النبي عليه السلام ، فقالوا لهم: «سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : ماكان أمرهم ؟ فانه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى؟» . فسأل المشركون النبي عن هذه المسائل فانتظر عليه السلام حتى نزلت سورة الكهف مشتملة على الأجوبة فكان الثلاثة هم أصحاب الكهف ، والطواف هو ذو القرنين ، والروح كان الجواب عنها فى سورة الاسراء :«ويسئلونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

من هذا كله ترى صورة لجدل المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، هم معاندون مكابرون ،ولذلك وقفوا موقف المعاند الذى يجادل ليعجز ، لا ليطلب الحق والصواب ،كان همهم فى جدلهم أن يقدموا مطالب لاحدود لها وكل ماتجود به مخيلتهم يقدمونه مطلبا ، ويتخذون من عدم اجابته حجة يبرهنون بها ، ودليلا مموها يقدمونه ، والنبي يرد عليهم ، ويتلو القرآن وفيه إبطال لتمويههم،وهو الحجة القائمة عليهم التى لايستطيعون لها ردا ، وكلما شعروا بقوتها ، وشدة وطأتها على باطلهم ،وغزوها لنفوسهم،وهم المعاندون المكابرون اندفعوا فى أقول واهية ، الغرض يدفع اليها،والحقد يوسوس فى نفوسهم بها

واستمع لما يقوله أبو جهل كبير سفهائهم، وزعيم الشر فيهم «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فاعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فتى ندرك مثل هذا، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه»

وقد اعتصم النبي صلى الله وسلم فى جدله معهم بصفات جعلته المثل الكامل للبشر :

(١) اعتصم بالحلم والصبر على الاذى (٢) وخفض الجناح والرفق وحسن المعاملة وكان إذا اشتد آذاهم ، وانغمروا فى الشر إلى لحاهم ، قال مقالة الصابر المطمئن «اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون ، وكان إخلاصه ﷺ لله ، ولما يدعو اليه داعيا لأن يجعل الكثيرين من ذوى القلوب النيرة ينساقون لسماع قوله، وإذا سمعوا القرآن خفقت قلوبهم بالايمان ؛ فمن كتبه الله من السابقين سارع ؛ ومن لم يقدر له الله ذلك ، سلط عليه من شياطينهم من يوسوس إليه ، فيفسد عليه ما اطمأن به قلبه ، وعمرت به نفسه ، كما كان شأن عتبة بن ربيعة وغيره

(٣) وقد كان مع الصفات السابقة التى كانت تجعل كلامه ينساغ فى النفوس قوى الشخصية، ذا مهابة روحية، جاء فى تاريخ الطبرى عن عمرو بن العاص « اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وطاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم كذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ؛ ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ؛ فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك فى وجهه ؛ ثم مضى ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها ، فوقف فقال :أتسمعون يامعشر قريش ، أما والذى نفس

محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح قال فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنما
على رأسه طائر واقع، وحتى إن أشدهم فيه مقالة قبل ليرفؤه بأحسن ما يجد من
القول حتى إنه ليقول : انصرف ياأبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا »
فالنبي صلى الله عليه وسلم مع صبره على الأذى ، وحلمه وخفض جناحه ماكان فى
نظرهم المهين، الصغير الشأن الضئيل الأمر

ب ـ جدل النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود والنصارى: لم يذكر كتاب السير
شيئا من الاحتكاك وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود وهو بمكة حتى
هاجر إلى المدينة فالتقى بهم إذ كانوا مساكين للمسلمين وجيرانا لهم وطبعى
أن يدعوهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى دينه ، لعموم رسالته ووجوب تبليغ
دعوته، وكان الظاهر أن يجيبوه دعايته عليه السلام لأنهم كانوا من قبل يستفتحون
على الذين كفروا بنبي قد جاء زمانه وقد حكى الله عنهم ذلك فى مثل قوله تعالى
« وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ،
فلعنة الله على الكافرين » ولكنهم أعرضوا ولاحوا النبي صلى الله عليه وسلم
لأنهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولأنهم رأوا فى أنصار النبى
صلى الله عليه وسلم أقواما من خصومهم فى الجاهلية ، فأمروا العداوة، ونابذوه
الشر، ولأن اليهود لا يعترفون بنبي من غير بنى اسرائيل، بل كانوا يعدون ظهور
رجل من غير بنى اسرائيل يدعو إلى توحيد الاله ، وتمجيد ابراهيم وموسى،
وسائر النبيين أمرا غريبا فى البشر، ولعل ذلك هو الذى دفعهم لأن يقولوا نحن
أبناء الله وأحباؤه ، وكان هو المحرك لغرورهم الذى دفعهم إلى الانكار والمكابرة
والمهاترة، ولذلك اندفعوا لمجادلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وسائر المسلمين
وناقشوهم مناقشات دينية أخذت أولا دورا دينيا هادئا، ثم أخذت من جانبهم
سبا واستهزاء وخيانة حتى اضطر النبى صلى الله عليه وسلم إلى إجلاء بعضهم ،

ومحاربة الآخرين، وفى دور المجادلة كانت المجادل واسعة والنطاق غير محدود، لأن النبى كان يخاطب أقواما يقرون بكتاب، ويؤمنون برسول ، فالنبى كان يلزمهم بما جاء فى كتبهم، وينعى عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم ، وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شىء من الدقة والمعرفة وإن كانوا ضالين وقد أمر الله نبيه أن يجادلهم برفق وحسن موعظة فقال تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وقال تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن »

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينكر فى جدله معهم ـ ١ ـ تحريفهم التوراة واختلافهم فيها ويكفى ذلك الاختلاف وطعن كل فريق فيما عند الآخرين يكفى ذلك دليلا على الشك فى حقيقة ما بأيديهم قال تعالى: « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم . وويل لهم مما يكسبون »

ـ ٢ ـ وأنكر منهم النبى صلى الله عليه وسلم مخالفتهم للأحكام التى أتى بها الأنبياء ، وهجرهم لشرائعها ومحاولتهم الأخذ بغيرها إن وجدوا فيه ما يخالف مأربهم، ورغباتهم الدنيوية ، ويتفق مع أكلهم الرشوة التى كانوا يقبلونها من الكبراء، ليغيروا بها حكم الله . قال تعالى فى شأنهم عندما حكموه فى شأن الزانى رجاء أن يحكم عليه السلام بغير الرجم ليوافق هواهم . « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء »

(٣) وأنكر منهم النبى صلى الله عليه وسلم انهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينهم من كتبه ، بل من الأحبار . وأولئك يعبثون بأفكارهم . ولا يعلمونهم

حقيقة كتبهم ، وقد قال الله فيهم وفى النصارى: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

(٤) ونعى عليه السلام . أنهم متعصبون ، أشداء فى تعصبهم إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الايمان لأحد من غير جنسهم ولو دخل الايمان قلوبهم ، وغزت الحقيقة نفوسهم ، وقد قال تعالى حاكيا قول بعضهم : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ؛ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »

(٥) ونعى عليهم النبى صلى الله عليه وسلم أكلهم أموال الناس بالباطل وأكلهم الربا ، وقد نهوا عنه ، واستحلال بعضهم أموال العرب زاعمين أنهم أميون وليس لهم سبيل على أهل العلم والفكر والثقافة ، قال تعالى فى شأنهم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار واحد لا يؤده اليك إلا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

(٦) وأنكر منهم النبى صلى الله عليه وسلم حرصهم الشديد على الدنيا وتمسكهم بملاذها وشهواتها ، وليس ذلك بشأن الأقوام المتدينين الذين يقدسون الدين ، ويعبدون الله راجين ما عنده

وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات فكان النبى عليه السلام يأخذها عليهم ، من مثل ادعائهم أن جبريل عدوهم كما يأخذ غيرها من مثل ادعائهم أن الله فقير وهم أغنياء

هذا بعض قليل مما كان ينكره منهم عليه السلام ، ويدلى به حجة عليهم ، ودليلا على بطلان ماهم عليه ، وماهم متمسكون به

وقد كانوا هم فى مجادلاتهم يدعون أن ابراهيم عليه السلام كان على ديانتهم

وقد رد الله عليهم تلك الدعوى فى قوله تعالت كلماته : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين »

وقد احتجوا على النبى ﷺ بوجود النسخ فى الشريعة الاسلامية ، وأنكروا نسخ المعجزات والآيات، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية، أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير »

وكانوا يطلبون آية أخرى تدل على رسالة النبى ﷺ ، غير القرآن ، ويدعون أن تلك الآية عهد من الله إليهم ألا يؤمنوا بغيرها ؛ وقد قال تعالى حاكيا عنهم: «الذين قالوا إن الله عهد الينا ، ألا نؤمن لرسول، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذي قلتم، فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين» وطلبوا من النبي أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، يقرءونه ، وقد قال تعالى حكاية عنهم : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ».

— وترى من هذا أن جدلهم مع النبي ﷺ كان كجدل أسلافهم مع موسى عليه السلام — جدل المتعنتين الذين لا يطلبون رشادا، ولا يبغون سدادا ولا يريدون حقاً ينصرونه ، بل باطلا يلوون السنتهم به ، والنبي يأخذهم برفق وعطف وأناة حينا ، وحزم حينا ، وقد أمره الله ، ان يطلب اليهم أن يتمنوا الموت إن كانوا حقا صادقين فى تكذيبهم النبي فى دعواه ، فما تمنوا لأنهم يعرفون بينهم وبين أنفسهم صدق مايدعى عليه السلام

وكانوا يجادلون غير ذلك فى أمور كثيرة وقد آن لنا أن نحكى لك بعض مناظراتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، لتعرف منها أن النبي كان يعاملهم برفق ،

فيستحلفهم بأنبيائهم . ويلزمهم بهم، جاء في السيرة النبوية لابن هشام - « إن نفرا من أحبار يهود ، جاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فأن فعلت ذلك اتبعناك ، وصدقناك ، وآمنا بك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني . قالوا : نعم قال : فاسألوا عما بدا لكم . قالوا : فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما غلبت صاحبتها كان لها الشبه ، ؟ قالوا اللهم نعم . قالوا فأخبرنا كيف نومك ؟ فقال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل ، هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به ، تنام عينه وقلبه يقظان ؟ فقالوا . اللهم نعم ؛ قال فكذلك نومى ، تنام عينى ، وقلبى يقظان . قالوا . فأخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه . قال أنشدكم بالله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل ، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب اليه ألبان الابل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب اليه شكرا لله . قالوا : اللهم ، نعم ، قالوا : فأخبرنا عن الروح قال : أنشدكم بالله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتينى . قالوا . اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك إنما يأتى بالشدة ، ويسفك الدماء ، ولولا ذلك ، لاتبعناك فأنزل الله عز وجل فيهم « قل من كان عدوا لجبريل ، فانه نزل على قلبك باذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين الى قوله تعالى أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم »

وترى من هذه المناظرة كيف كان النبي ﷺ رفيقا بهم ، عطوفا عليهم

يقسم عليهم بأحب أيامهم إليهم ، ليستدينهم اليه ، وفى الوقت نفسه يلزمهم بما عندهم ، فهو يستدنيهم ، ليقروا بما عندهم ، فيلزمهم بما يقرون ، وهكذا يكون المجادل الأريب ، فكيف اذا كان المجادل رسولا من رب العالمين؟

هذا جدل النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود وقد كان كثيرا ، لأن الاحتكاك كان كثيرا بسبب الجوار .

وأما جدله عليه السلام مع النصارى فقد كان قليلا ، لبعدهم عنه وعدم اختلاطهم بالمسلمين الا قليلا

وكان النبى ﷺ فى جدله معهم يهاجمهم فى عقيدة التثليث، ويبين كفرهم بها كما قال تعالى. «لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » وينكر عليهم ادعاءهم أن عيسى وأمه الهان من دون الله ؛ وينكر عليهم ان الله هو المسيح وينكر عليهم عبادة الصليب ؛ وأكلهم الخنزير ؛ وادعاءهم أن لله ولدا. ولم يكونوا يتقدمون باعتراضات كثيرة على المبادىء الاسلامية ؛ لشعورهم بأنها تثبت على المناقشة والاستدلال وممن جادلهم النبى نصارى نجران بالمدينة

وكتب السيرة تبين أنهم أوفدوا وفدا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة ؛ اذ بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة ، فسارعوا بالقدوم عليه ، حتى يروا صفاته . مع ما ذكر منها فى كتبهم ، فقرأ عليهم القرآن ، فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم ؛ أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ، فصبأتم ؛ فقالوا سلام عليكم ؛ لانجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترنا ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : «والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ واذا يتلى عليهم ، قالوا آمنا به انه الحق من ربنا ، انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لانبتغى الجاهلين »

وأوفدوا له عليه السلام وهو بالمدينة وفدا ، يتألف من ستين رجلا ، و قد أهدوا إلى النبي هدية ، بسطا ومسوحا ، فقبل المسوح ، ورد البسط ، ودعاهم إلى الاسلام ، فأبوا ، وقالوا كنا مسلمين قبلكم . فقال عليه السلام يمنعكم من الاسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا . قالوا فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل فى ذلك قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين » وليظهر الله أنهم فى شك من أمرهم أنزل قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ..... الخ » فدعاهم عليه السلام إلى المباهلة ، فرفضوا ، وقبلوا الجزية ، وقد جاء فى البخارى : « عن زفر بن الحذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ ، يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيا ، فلاعننا ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا ، فقال لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ « هذا أمين هذه الأمة »

تحدث الملوك فى شأن النبى ﷺ : شغلت دعوة النبى عليه السلام البلاد العربية كما بينا بل إنها تجاوزت هذه البلاد وأخذ يتحدث بشأنها قيصر فى بلاده ، وكسرى مع طاغوته .

وانا ذاكرون لك حديث قيصر الروم ، مع أبى سفيان فقد أخذ شكل محاورة ، ومناقشة ، وها هو ذا الحديث ، كما جاء فى البخارى فى كتاب بدء الوحى « عن عبيد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب ، أخبره أن

هرقل: أرسل اليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادفيها أباسفيان وقريشا ، فأتوه ، وهو بأيلياء ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه ، فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان . قلت أنا أقربهم نسباً . قال: أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم: أنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبنى فكذبوه . قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا ، لكذبت عليه ، ثم كان من أول ماسألنى عنه ، أن قال: كيف نسبه فيكم ؟ قلت . هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله . قلت لا قال: فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا . قال فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت بل ضعفاؤهم ، قال: أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون . قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قلت : لا. قال فهل يغدر ؟ قلت لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ماهو فاعل فيها، قال ولم يمكن كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال فهل قاتلتموه قلت نعم . قال . فكيف كان قتالكم ، قلت الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم . قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف والصلة ، فقال للترجمان قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل ، تبعث فى نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك ،

فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت ان ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل. وسالتك أيزيدون أم ينقصون. فذكرت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم . وسالتك أيرتد أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الايمان حين يخالط بشاسة القلوب .وسالتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسالتك بماذا يامركم فذكرت انه يامركم بان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الاوثان . ويامركم بالصلاة والصدق والعفاف. فان كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو انى أعلم أنى أخاص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث إلى عظيم بصرى فدفعه الى هرقل، فقرأه، فاذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، وأما بعد فانى أذعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم اليريسيين . ويأهل الكتاب تعالىا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فأن تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون» قال أبو سفيان فلما قال ماقال وفرغ من قراءة الكتاب كثر الصخب وارتفعت الاصوات وأخرجنا فقلت لاصحابى حين أخرجنا لقد أمر أمر ابن أبى كبشه إنه يخافه ملك بنى الاصفر فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الاسلام

وكان ابن الناطور صاحب ايلياء يحدث أن هرقل حين قدم أيليا ، أصبح

خبيث النفس. فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك ، قال ابن الناطور ، وكان هرقل حزاء ، ينظر فى النجوم. فقال لهم حين سألوه : انى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان ، قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة ، قالوا ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك ، فيقتلوا من فيها من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل رجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ، فنظروا اليه فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب . فقال يختتنون ، فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل الى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم ، وسار هرقل الى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ ، وأنه نبى فأذن هرقل لعظماء الروم ، فى دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا لهذا النبى ، فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب ، فرأوها غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الايمان، قال : ردوهم على ، وقال إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت، فسجدوا له ، ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل رواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهرى » اهـ

فى هذين الحديثين ترى صورة واضحة لاشتغال هرقل وأهله مملكته بأمر النبى ﷺ ودينه . وترى صورة للجدل الذى كان يجرى بينه وبين كل من له اتصال ، ومعرفة بالنبى ﷺ ، وفوق كل هذا ترى نور الايمان ، وقد أفسدته المطامع والرغبات والشهوات . فهذا هرقل شام نور الايمان فلاحت

بأرقته ، وطلب الهدى ، فانبثق له فجره ، وملك عليه نفسه وحسه . ولكنه السلطان ، والرغبة فى بقائه ، والخوف من ذهابه ، إن خالف أهل مملكته ، كل هذا أفسد عليه قلبه ، وطمس نور الايمان فى نفسه ، فآثر الفانية على الباقية ، والعاجلة على الآجلة ، فكان ذلك خسرانا مبينا . وكذلك تعبث شهوة السلطان ، بثورة الايمان ، وتغلب الشهوة الدليل ، وتستولى سورة الملك على قوة الحق فى النفس ، فيكون الضلال مع العلم ، والكفر مع المعرفة ، والبهتان مع العرفان ، والله الهادى

ومن الملوك الذين تحدثوا فى شأنه ﷺ النجاشى ملك الحبشة ، واسمه أصحمة فقد بعث النبى ﷺ اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام وكان الرسول له عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى ، فجادل النجاشى فى العقيدة الاسلامية ، وقال له : يا أصحمة ان على القول ، وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا ، وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيرا قط ، إلا نلناه ولم نخفك على شىء قط الا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز ، واصابة المفصل ، والا فأنت فى هذا النبى الأمى ، كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرق النبى ﷺ رسله الى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر . فقال النجاشى . أشهد بالله أنه النبى الأمى ، الذى ينتظره أهل الكتاب وان بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وان العيان ليس بأشفى من الخبر

ثم كتب النجاشى الى النبى ﷺ باسلامه

جدل القرآن

— ١ — علمت أن النبي ﷺ كان عماده في مجادلة المشركين واليهود والنصارى وغيرهم القرآن، يحتج به عليهم لاثبات دعواه، وكلما أوردوا اعتراضا نزل في الرد عليهم قرآن، فيتلوه عليهم النبي ﷺ. ويعلن لهم به وضح الحق ان كانوا لهم طالبين، ويرد كيدهم في نحورهم ان كانوا معاندين مستكبرين

وفي الحق ان كتاب الله فوق أنه معجزة النبي ﷺ الكبرى، وفوق أنه مشتمل على أكثر الأجوبة عن الاسئلة التي اعترض بها المشركون وغيرهم على الاسلام، هو فوق هذا وذاك المثل الكامل الذي لا يتسامى الى بيانه متكلم أو محتج، ولا يناصي أساليب احتجاجه واستدلاله مستدل أو مجادل، لذلك وجب علينا أن نعرف شيئا من طرائق جدله واستدلاله لا طمعا في محاكاته، ولا طالبا لمساماته، ولكن للاقتباس من نوره: والاستضاءة بضوئه، والاهتداء بهديه، ولنجيب أمره: « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن ».

— ٢ — وأي مسلك سلك القرآن للاستدلال على ما جاء به من بينات، ولاثبات ما جاء به من حق؟ أسلك مسلك المنطق والبرهان؟ أم مسلك الخطابة والتأثير بالبيان؟ أم مسلك الجدل والالزام؟

من أجل أن نعرف ذلك على التحقيق، وكيف كان أثر القرآن في النفوس ومكانته من الحق، وجب أن نتكلم كلمة في أصناف الناس وما يناسب كل صنف من خطاب، وما يليق بهم من دليل فنقول.

— ٣ — ان طباع الناس متفاوتة، ومشاربهم متباينة، وأهواؤهم متضاربة ومسالكهم في طلب الحق مختلفة

ـ ا ـ فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه الا قياس تام أو ما يجرى مجراه،ويسير فى طريقه،وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية، وكان لهم من أوقاتهم ماأزجوه فى دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفى والمنزع العلمي .والمستقرى لأحوال الأمم،المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف من الناس قلة فى الكون الانسانى وعدد محدود بالنسبة لغيرهم من بنى الانسان،اذأن أكثر من فى الأرض قد انصرف الى المهن المادية فما كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ولعل هذا هو الصنف الذى أمر الله نبيه أن يدعوه بالحكمة فى قوله« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة الآية »

ـ ب ـ ومنهم غلب عليه مذهب دينى أو غير دينى فداستأثر بلبه، وسيطر على هواه،وسد مسامع الادراك فى قلبه ، اذ استولت عليه نحلة مذهبية ، فتعصب لها ، والتعصب يعمى ويصم ، ويجعل النفس لاتكاد تسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة ؛ إذ أن ذلك لايكون الابالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجا وأعز دواء من علاج الأجسام، وهؤلاء لابد لهم من طرق جدلية تزيل مالبس الحق عليهم، ويتخذ الحق بها قوة ممايعتقدون ؛ إذ يلزمهم بما عندهم، ويفحمهم بمابين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لقبول ما يرفضون ، وهذا الصنف من الناس وإن كان أكثر عددا من الأول إلا أنه ليس الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ،ولعله الصنف الذى أمرنا الله سبحانه وتعالى بمجادلته بالتى هى أحسن فى الآية الكريمة الآنفة الذكر

ـ حـ ـ أما الجمهور الأعظم من الناس فليس هؤلاءولاأولئك، بل هو فى تفكيره أقرب الى الفطرة، فيه سلامتها وفيه سذاجتها، فيه حسنها وجمالها، وفيه اخلاصها وبراءتها، وهو لا يخاطب بتعقيد المنطق، ولا بتفكير الفلاسفة، ولا بما

ترضى المتفكرين تفكرا علميا. بل يليق به ما التقى فيه الحق بالتأثير الوجداني، وما اختلطت فيه الحقائق بطرق إثارة لأهواء وميول، وما التقت فيه سياسة الحق بسياسة البيان، وليس ذلك إلا بالاسلوب الخطابي، أو ما يقرب منه.

٤ــ والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة، وبعث بها النبي صلى الله عليه وسلم للناس جميعا بشيرا ونذيرا من غير أن تقتصر دعوته على قبيل، ولا أن تختص شريعته بجيل، بل بعث للأحمر والأسود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك وجب أن يكون القرآن وهو حجته الكبرى كما علمت، فيه من الأدلة والمناهج العقلية ما يقنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم، وتباين أفهامهم، وتفاوت مداركهم، ووجب أن يكون أسلوبه الفكري والبياني بحيث لا يعلو على مدارك طائفة، ولا ينزل عن مدارك أخرى، ولا يرضى طائفة دون أخرى، بل يصل إلى مدارك الجميع يجد فيه المثقف بغيته، والفيلسوف طلبته، والعامة من سواد الشعب غايتهم. وكذلك سلك القرآن، فالمتدبر لآياته والمتفكر في مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل، وينبه الغافل، ويرضى نهمة العالم. اقرأ قوله تعالى: «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يبصرون» إقرأ هذه الآية وارجع البصر فيها كرتين، ألا تراه فيها قد وجه الاذهان إلى عظيم قدرته وقوة سلطانه على الوجود، وبين كيف اخترع وأبدع، وبرأ على غير مثال سبق ليثبت أنه وحده الأحق بالعبادة من غير أن يشاركه وثن أو صنم. وألا ترى أن الشخص من الدهماء يقرؤها فيرى فيها علما بما لم يكن يعلم. قد أدركه في أيسر كلفة وأقرب طريق، وأبلغ بيان، ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث في نشأة الأكوان دقة العلم وأحكامه وموافقته لاصدق ما وصل اليه العقل البشري مع سمو البيان وعلو البرهان. فتبارك الذي أنزل الفرقان واقرأ قوله تعالى: «ولقد خلقنا

الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه من نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم انكم يوم القيامة تبعثون الخ الآيات الكريمات » ثم تدبر فى آيات الله البينات . تجد أن العامى يستفيد منها علما غزيرا، فوق أنه يستدل منها على قدرته جل وعلا على الأعادة، كما قدر على الأبداع والأنشاء، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الانسان، والدارس لحياة الحيوان جرثومة، فجنينا، فموجودا على ظهر الوجود حيا، فيرى دقة العلم، وصدق الحكاية عن أدق مسائله، حتى لقد قرأها بعض كبار الاطباء فى أوربا، فاعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم أمهر طبيب رأته الاجيال السابقة، فلما علم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من عند الله بارىء النسم، جلت قدرته .

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله، وما فيه من أدلة أنه واضح للعامى يدرك منه ما يناسب خياله، ويسمو اليه إدراكه، وما يدركه منه صدق لا شبهة فيه، ويرى فيه العالم الباحث المحقق حقائق صادقة، ما وصل اليها البحث الحديث، إلا بعد تجارب، ومجهودات عقلية عنيفة، وكلما ازداد المتبصر فى الآيات التى تتعلق بالكون فى القرآن تأملا، ازداد استبصارا، ورأى علما أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه، وأعلى مما يهتدى اليه بعقله المجرد. (١)

---

(١) تصدى ابن رشد لاثبات أن الحكيم الفيلسوف يستفيد من أدلة القرآن كما يستفيد العامى الجاهلى، ويرى فيه ما يرضى شهوته العقلية، وبين ذلك فى كتاب فصل المقال فقال: « لما كانت طرق التصديق منها ما هى عامة لاكثر الناس، أعنى وقوع التصديق من قبلها، وهى الخطابية والجدلية، والخطابية أعم من الجدلية . ومنها ما هي خاصة بأقل الناس، وهى البرهانية، وكان

ـ ٥ ـ بهذا الهدى الكريم ، وبذلك الحق المبين ، وبتلك الدلائل البينات وعظ القرآن وجادل ، فمن أى الانواع دلائله ، ومن أى الأصناف حججه

الشرع مقصوده الأول العناية بالاكثر من غير اغفال لتنبيه الخواص ، كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الاسلامية على أربعة أصناف : أحدها أن تكون مع انها مشتركة خاصة بالأمرين جميعاً ، أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينيه مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة أو مظنونة أن تكون يقينيه ، وعرض لنتائجها أن أخذت أنفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الاقاويل الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد له أو المتأول كافر . والصنف الثانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية ، وتكون النتائج مثالات للامور التى قصد انتاجها ، وهذا يتطرق اليه التأويل ، أعنى لنتائجه . والثالث عكس هذا ، وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد انتاجها نفسها ، وتكون المقدمات مشهورة ، أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقيليه . وهذا أيضاً لا يتطرق اليه تأويل ، أعنى لنتائجه ، وقد يتطرق لمقدماته . والرابع أن تكون مقدماته مشهورة أو منظومة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه ، وهذه فرض الخواص فيها التأويل ، وفرض الجمهور امرارها على ظاهرها ، وبالجملة ، فكل ما يتطرق اليه من هذه التأويل لا يدرك الا بالبرهان ، ففرض الخواص فيه هو ذلك التأويل ، وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها فى الوجهين جميعا ، أعنى فى التصور والتصديق اذ كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك وقد يعرض للنظار فى الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق » .

أهى من قبيل الأدلة البرهانيه أم من قبيل الأدلة الجدلية ؟ أم من قبيل الأدلة الخطابية ؟

وقد آن لنا أن نجيب عن ذلك السؤال ،فنقول : قال ابن رشد إن أدلة القرآن من قبيل الادلة الجدلية ، والخطابية،وقال ان أكثرها خطابى وبعضها جدلى قصد فيه الالزام والافحام .

وفى الحق أن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من المنطق ، فبينا تراه قد اعتمد فى مسالكه على الأمر المحسوس ، أو الأمور البدهية التى لا يمارى فيها عاقل ، ولا يشك فيها إنسان ، تراه قد تحلل من بعض قيود المنطق التي تتعلق بالأقيسة وأنماطها ، والقضايا وأشكالها ، من غير أن يخل ذلك بدقة التصوير وإحكام التحقيق ، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج. فى أحكام العقل ، وثمرات المنطق . ولهذا نحن لا نعد أسلوب القرآن منطقا ، وإن كان فيه صدقه وتحقيقه، وهو إلى الأسلوب الخطابى أقرب، وان كان كله حقا ، لا ريب فيه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ،وإنك لترى كثيرا من أوصاف الأسلوب الخطابى قد أتى القرآن فيها بالمثل الكامل ، فتصريف فنون القول من استفهام إلى تقرير إلى أخبار ، قد نحا فيه القرآن مناحى تعلو على قدر البشر ، و كثير من أشكال الأقيسة الخطابية تراه قد استعمل فى القرآن على مثال أكمل من استعمل فى الخطابة .

٦ ــ ونستطيع أن نذكر بعض مناحى القرآن الكريم فى الاستدلال ولا نستطيع لها إحصاء، ومن مناحيه فى الاستدلال .

ا ــ الأقيسة الأضمارية : وهى الأقيسة التى تحذف فيها إحدى المقدمات ، وهى شائعة الاستعمال فى الاستدلال الخطابى ، قال ابن سينا فى الشفاء «الخطابة

معولة على الضمير (١) والتمثيل » وإن الناظر فى أدلة القرآن الكريم المستقرى لها ، يرى أكثرها قد حذفت فيه إحدى المقدمات، ولقد قال الغزالى بحق « إن القرآن مبناه الحذف والايجاز(٢) »واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون إن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » ، ألا ترى فى هذا دليلا قويا مبطلا لما يدعون،وفى الوقت نفسه لم تذكر فيه سوى مقدمة واحدة ، وهى إثبات مماثلة آدم لعيسى ، وطوى ما عداها ، وكأن سياق الدليل هكذا إن آدم خلق من غير أب كعيسى فلو كان عيسا ابنا بسبب ذلك لكان آدم أولى لكن آدم ليس ابنا باعترافكم فعيسى ليس ابنا أيضا . وأنت ترى أن حذف هذه المقدمات قد أعطى الكلام طلاوة ، وكسبه رونقا ، وجعل الجملة مثلا مأثورا يفيد فى الرد على النصارى وفى الوعظ العام،إذ هو يذكر الجميع بأن آدم ، (والناس جميعا ينتهون إليه) من تراب ، وهكذا يرى المتتبع لكثير مما فى القرآن من استدلال ،وما يشمل عليه من احتجاج .

ب ـ القصص : ومن الأساليب التى اتخذها القرآن طريقا للاقناع والتأثير القصص ، وتضمين القصة الأدلة على بطلان مايعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع القصص رجلا محترما ممن يجادلهم القرآن إذ يدعون محاكاته فى دينه ، واتباعه فى ملته ، فيجىء برهان الله على لسانه ، فيكون ذلك أكثر اجتذابا لافهامهم ، وأقوى تأثيرا فى قلوب . وانظر الى قصة إبراهيم عليه السلام

(١) الضمير هو القياس الاضمارى والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ويسمى هذا فى عرف الفقها قياسا ، بينما يسمى فى عرف المناطقة تمثيلا .

(٢) يقصد الحذف والايجاز فى شكل الأقيسة .

مع أبيه، وقصته مع قومه ترى فى القصتين أدلة واضحة قوية ، تثبت بطلان عبادة الأوثان . وذلك لأن ابراهيم عليه السلام كان شرف العرب ، ومحتدهم الذى إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون انهم على ملته ، فاذا جاءهم الخبر عنه بأنه كان موحدا ، وسيق لهم ما كان يحتج به على قومه وأبيه كان ذلك مؤثرا أى تأثير فى قلوبهم ! ومن ذلك قوله تعالى حاكيا قول ابراهيم لابيه ليبين له بطلان عبادة الاوثان «واذكر فى الكتاب ابراهيم، إنه كان صديقا نبيا، إذ قال لابيه ياابت، لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئا . ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » ألا ترى أن الكلام متضمن إبطال عبادة الاوثان على أبلغ وجه ، إذ بين أنها لا تسمع ولا تبصر فهى دون الانسان وكيف يعبد الانسان مادونه . وفوق ذلك فالعبادة دعاء، وكيف يدعو الانسان ما لا يسمع ولا يبصر

وإن مجىء الدليل فى ضمن خبر لرجل يعترف بفضله المجادلون، يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين من ، جهة الدليل فى ذاته، ومن جهة أن الذى قاله رجل محترم فى نظرهم، يدعون هم أنهم أتباعه، فهم ملزمون بقوله، مأخوذون برأيه

وقد يجىء الدليل أحيانا على لسان حيوان فى قصة فيكون فى ذلك غرابة تسترعى الذهن، وتثير الانتباه وتملأ النفس بالحقيقة ايمانا ، كما جاء دليل التوحيد على لسان الهدهد فى سورة النمل ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكيا عن سيدنا سليمان عليه السلام : « وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد، أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذابا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد، فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله

وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم »

ـحـ ـ قياس الخلف . وهو الذي يتجه فيه الى اثبات المطلوب بابطال نقيضه وقد يتجه اليه القرآن الكريم في استدلاله كاثباته سبحانه وتعالى الوحدانية بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » ، وقوله تعالى : « لو كان معه آلهة كما يقولون، إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا » ، وكاثبات الله سبحانه وتعالى أن القرآن من عند الله بقوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، ففي كل هذه الآيات الكريمة قد أثبت المطلوب بابطال نقيضه وأنت ترى أن حذف بعض المقدمات في كلها، مما يدل على كثرة الأضمار في دلائل القرآن .

د ـ السبر والتقسيم : وهو باب من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل حجة لابطال كلام خصمه ، بأن يذكر أقسام الموضوع المجادل فيه ، ويبين أنه ليس من خواص واحد منها ما يوجب الدعوى التي يدعيها الخصم ، وقد ذكر السيوطي أن من أمثلته في القرآن قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم، إن كنتم صادقين * ومن الابل اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير

علم ؛ إن الله لايهدى القوم الظالمين». . وبين السيوطى وجه الاستدلال فقال:
« إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم ، فقال : ان الخلق لله تعالى ، خلق من زوج مماذكر ذكرا وأنثى ، فمم جاء به تحريم ماذكرتم ، أي ما علته ؛ لايخلو إما أن يكون من جهة الذكورة ، أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لايدرى له علة ، وهو التعبدى بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى ، إما بوحى وإرسال رسول ، أو سماع كلامه ، ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما ، والثانى يلزم عليه أن تكون جميع الأناث حراما ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ؛ فبطل مافعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة ؛ لأن العلة على ماذكر تقتضى إطلاق التحريم ؛ والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى ﷺ ، وإذا بطل جميع ذلك ، ثبت المدعى ، وهو أن ماقالوه افتراء على الله تعالى وضلال».(١)

ﻫ التمثيل : وهو أن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه على أمر معروف. ويبين الجهة الجامعة بينهما ، والآيات الكريمة التى تنهج ذلك المنهج كثيرة ، انظر إلى قوله تعالى : «يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ؛ فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ؛

(١) الاتقان فى علوم القرآن

وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى ؛ وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » . ألا تراه سبحانه وتعالى قاس أمر الاعادة للانسان خلقاً سويا فى الحياة الآخرة الذى كان يثير استغراب العرب على الأمر الذى ليس موضع ريب، ولامجال للشك فيه ، وهو الانشاء الأول ، وكان القياس على أبلغ وجه وأجمل أسلوب ، قد التقى فيه الجلال والكمال والجمال ومثل ذلك قوله تعالى : فى سورة يس حاكيا اعتراض المشركين والرد عليهم : «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيي العظام ، وهي رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فاذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى ، وهو الخلاق العليم »

وهكذا فى القرآن شيء كثير فى هذا الباب بلغ من سمو البيان أقصاه ، وبلغ من قمته أعلاها ، وأخص مايتجه اليه سنة التدرج من المحسوس إلى المعقول ومن الشاهد إلى الغائب فى بيان يأخذ بالألباب ، ويقطع كل مجادل مرتاب

٧ - هذا ويلاحظ القارىء للقرآن الكريم ، المتتبع لأحكامه ، المتبصر فى أدلته ، أن خدك القرآن يتجه أحيانا كثيرة إلى إرشاد المجادل ، والأخذ بيده إلى الحق، وتوجيه نظره الى حقائق الأشياء ، ومافى الكون من عبر ، كما ترى فى قوله تعالت كلماته : « أولم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، وكذلك الخروج » وكما ترى فى قوله تعالى فى سورة

الرحمن : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان علمه البيان، والشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، أن لا تطغوا فى الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، والأرض وضعها للانام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، الخ .... » وفى هذا ترى الجدل متجها كل الاتجاه الى الارشاد والأخذ بيد السامعين الى الحقيقة السامية، وهى توحيد الله جل وعلا .

وأحيانا يبتدىء بإلزام المجادل وإفحامه ، ثم يأخذ بيده الى الحقيقة إذ يبينها له واضحة كاملة، كما ترى فى قوله تعالى ردا على مازعمه المشركون من أن الرسول يجب أن يكون ملكا . « وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون . ولو جعلنا ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون » . وكما ترى فى رده سبحانه وتعالى على اليهود عندما ادعوا أنه قد عهد اليهم ألا يؤمنوا برسول ، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، فقد فقد قال سبحانه وتعالى حاكيا ورادا : « الذين قالوا إن عهد الينا ألا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم أن كنتم صادقين » ، وكما يرى فى قوله تعالى يرد على من أنكر أن ينزل الله على بشر شيئا فقد قال جلت قدرته: « وماقدروا الله حق قدره، إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس » وفى هذا الآيات كلها ترى الالزام المفحم والحجة القاطعة ، والفيصل الفارق، قد الزم به الخصم، وادحضت حجته ، وأرشد الى المحجة، ووضعت له الصوا والاعلام ، ليسير على الجادة ، بعد أن بددت

وأذهب ضوء الحق ظلام فكره ؛ فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الاخسرين أعمالا

٨ — وعند توجيه الله سبحانه وتعالى نظر المجادل أو القارىء الى الحقائق من غير اتجاه الى الزام من أول الامر أو بعد الزامه واخامه ، يكون تصاريف البيان ؛ ومناحى التأثير ، والعبارات التى تخاطب الوجدان ، وتمس مواطن الاحساس ، تتنوع المناهج ؛ وتتكرر المعانى من أن تفقد جدتها وطلاوتها ، بل مع التكرار تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات وتتنوع الاساليب من استفهام الى تعجب الى تهديد الى اخبار ويختلف الاتجاه الى مواضع الاستدلال ومصادره

ا — فمرة يكون الاستدلال برد المسائل إلى أمور بدهية معروفة ، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر بين يديها المجادل صاغرا ، كما ترى فى رد الله سبحانه وتعالى على من زعم أن لله ولدا إذ يقول: « بديع السموات والارض ، أن يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لااله الا هو خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل ، لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف » ألا تراه سبحانه قد استدل على بطلان أن يكون له ولد سبحانه بامر معروف مألوف ، لايمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ، ولم يدع أحد ان له سبحانه صاحبة فيجب ألا يكون له ولد .

ب — وأحيانا يضرب سبحانه وتعالى الامثال ، ليقرب الحقائق الافهام ويدنيها من الانام ، ومن ذلك قوله تعالى فى الرد على من يعبدون الاصنام : « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ، ولا يستطيعون ، فلا تضربوا لله الامثال ، ان الله يعلم ، وأنتم لاتعلمون . وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا ، فهو ينفق منه

سرا وجهرا . هل يستوون؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم، لا يقدر على شيء، وهو كل على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » ففى هذه الآيات الكريمة قد بين سبحانه وتعالى بطلان عبادة الأوثان؛ لأنها لا تملك رزقا ولا تنفع ولا تضر، وضرب مثلين يبينان أنه لا يستوى فى عرف الناس ومألوفهم غير القادر مع القادر فكيف يسوى الوثنى بين القادر سبحانه وبين أحجار لا تنفع ولا تضر

حـ — وأحيانا يوجه نظر الناس الى المخلوقات، والى ما فى الكون مما يدل على قدرة الصانع، وعلم المبدع وارادة الجبار انظر الى قوله تعالى: «والهكم اله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيهما من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون».

د — وأحيانا يقص سبحانه وتعالى على الناس خبر قوم كانت حالهم كحال من يثبت بطلان اعتقادهم، مضمنا القصص الادلة على بطلان ما يعتقدون، وصحة ما يدعو اليه النبى ﷺ، وقد بينا ذلك فيما مضى، ولنكتف هنا بالتيمن بقراءة هذه الآيات الكريمة المشتملة على أروع القصص وأبلغ الاستدلال وهى قول الله تعالى فى سورة الشعراء « واتل عليهم نبأ ابراهيم، إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ . قالوا نعبد أصناما، فنظل لها عاكفين، قالوا هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم، أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذي خلقنى، فهو يهدين، والذي هو يطعمنى

ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم »

ويلاحظ أن القرآن الكريم فى الجدل الذى يلزم الخصم ويفحمه يجيئه فى الافحام من أقرب الطرق ، وأشدها الزاما . ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى فى مجادلة ابرهيم لمدعى الالوهية فقد قال تعالى « ألم تر إلى الذى حاج ابرهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال ابرهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال ابرهيم : فأن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » وقد مرت بك آيات أخرى ، منها يتبين كيف كان الالزام من أقرب طريق

وطرق القرآن فى هذا كثيرة ـ ١ ـ منها التحدى كما تحدى الله سبحانه وتعالى بالقرآن ، وكما تحدى ابرهيم مدعى الالوهية بأن يأتى بالشمس من المغرب ـ ٢ ـ والاخذ بموجب كلام الخصم واستنباط غير ما يريده ومن ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين والرد عليهم « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ـ ٣ ـ ومنها مجاراة الخصم فيما يقول ثم التعقيب عليه بما يبطل مدعاه ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن الرسل مع أقوامهم قالت لهم رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدون عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ! قالت لهم رسلهم ، إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فترى من أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم

نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء » فكأنهم قالوا ماقلتموه من أننا بشر حق ، ولـكن ما تريدون أن تبنوه عليه من اثبات أننا لسنا برسل باطل به ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده، فلا مانع من أن يمن علينا بالرسالة .

٩ — هذه قبسة من ذلك النور العظيم الذي أضاء الله به الخليقة ، لتهتدى الاجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو اليه إذ أظلمت عليها الجهالات ، وتاه في مسالك الباطل ، ومثارات الشيطان ، وما أردنا بذلك البيان إحصاء لطرق القرآن فى استدلاله، ولا استقراء لمسالكه فى جدله ، فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الظهر ، ويقصر الشاو ، ولـكن أردنا أن يرى القارىء الكريم مثلا من طرق جدل القرآن ، وكيف كانت أعلى من المنطق تدقيقا، وإن لم تتقيد بأساليب المناطقة ، ولا بأشكال الأقيسة ففيها التقديم والتأخير والحذف والاطناب تبعا لحسن البيان لا تبعا لأشكال البرهان . وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة ، وإن كان بيانه المثل الأعلى للخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا باثبات العقائد ، والجدل فيها ، سلكوا مسلك القرآن ، وساروا فى سمته لـكان علمهم أكثر فائدة، وأدنى جنى وأينع ثمارا ولـكنهم سلـكوا مسلك المنطق ، وقيوده والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة ، من غير ان يفيد العامة وقد وازن الغزالى بين طريق القرآن وطريق المتكلمين فى رسالة الجام العوام عن علم الكلام وقال فى ذلك « أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الاكثرون . بل ان أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الادلة كالاطعمة التي ينتفع بها الاقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا »

وفى الحق إن الناس لوشغلوا بدراسة القرآن ومافيه من استدلال لينهجوا على نهجه (١) . وييسيروا فى طريقه لكان لهم من ذلك علم كثير ؛ فان القرآن

(١) قد استنبط الغزالى من القرآن الكريم خمسة من أشكال الاستدلال سماها ميزان التعادل الأكبر ، وميزان التعادل الأوسط، وميزان التعادل الأصغر ؛ وميزان التلازم ؛ وميزان التعاند .

ومثل للأول بما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام فى مجادلته مدعي الألوهية إذ قال : «إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» وقال أبو حامد فى ذلك «رأيت فى هذه الحجة أصلين قد ازدوجا، فتولدمنهما نتيجة هى المعرفة ؛ إذ القرآن مبناه على الحذف والايجاز، وكمال صورة هذا الميزان : كل من يقدر على اطلاع الشمس فهو الإله فهذا أصل ، وإلهى هو القادر على الاطلاع وهذا أصل آخر، فلزم من مجموعهما أن إلهى هو الإله دونك يانمروذ

ومثل للثانى بقوله تعالى حاكياً عن إبراهيم : «فلما جن عليه الليل رأي كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين » ويقول فى بيانه وكمال صورة هذا الميزان أن النجم آفل ، والإله ليس بآفل ، فالقمر ليس بإله، ويفرق بينه وبين الأول بأن كلتا القضيتين موجبة فى الأول أما هذا فأحداها موجبة والأخرى سالبة .

ومثل للثالث بقوله تعالى «وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس» ويفرق بينه وبين السابقين بأن نتيجته جزئية ، وهى إثبات إنزال الله الكتب على بعض البشر .

ومثل للرابع بقوله تعالى : « لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »

قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال ، والجدل ، والتأثير ؛ تكشف عن أدق نواميس النفس الانسانية ؛ وتبين شيئا كثيرا من أحوال الجماعات النفسية والفكرية ؛ وفيه الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها ، وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام المؤثر والحجج الدامغة ؛ واعتبر ذلك بأثره فى مخالفيه من المشركين ؛ وأثره فى المسلمين الاولين .

ولقد بلغ من أثره فى المشركين أن كل من كان يسمعه يناله من نوره قبس. سمع الوليد بن المغيرة النبي يقرأ القرآن، فقال مخاطبا قريشاً : فوالله ما منكم رجل أعرف بالاشعار منى، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده مني ؛ والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته

وكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال وجدانه أثره، حتى لقد

ومثل للخامس بقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . ويقول رحمه الله بعد بيان هذه الأقسام : «سميت الأول ميزان التعادل (الأكبر والأوسط والأصغر) لأن فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متحاذيتان ، وسميت الثانى ميزان التلازم لأن أحد الأصليين يشتمل على جزءين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » فان قوله لفسدتا لازم ، والملزوم قوله لو كان فيهما آلهة ، ولزمت النتيجة من نفى اللازم ، وسميت الثالث ميزان التعاند ، لأنه رجع الى حصر قسمين بين النفى والاثبات ، يلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ؛ ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر ؛ فبين القسمين تعاند وتضاد .

تناهى زعماؤهم عن سماعه ، وتعاهـدوا على ذلك ، لمـا رأوه من نيل كل من سمعه للإيمـان .

وقد كان من أثر القرآن فى المؤمنـين الأولين أن عكفوا عليه يرتلونه ويتفهمونه ، ويتعرفون أحكامه ومراميه ، وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم إذا اختلفوا ، ومنهل العقائد ينهلون منه ما يقوى إيمانهم ، ويثبت يقينهم ولم يعرفوا حجة سواه ، ولا محجة غير طريقه وهـديه ، به يجادلون ، وعن هديه يصدرون .



الجدل بعد النبي ﷺ

تمهيد في افتراق الأمة وسببه

جاء فى البخارى « عن زينب بنت جحش أنها قالت : استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه يقول : لااله الا الله ؛ ويل للعرب من شر قد اقترب » ويروى عن النبي ﷺ أنه قال« افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وفى بعض الروايات اسقاط النصارى وفى بعضها زيادة « كلها فى النار الا واحدة » وقال المقبلى فى كتاب (العلم الشامخ) « حديث افتراق الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة ، يشد بعضها بعضاً ، بحيث لاتبقى ريبة فى حاصل معناه »

ونرى من هذه الآثار ان النبي ﷺ تنبأ بهذا الافتراق قبل وقوعه ، وأخبر عن حدوث الفتن قبل أن تنبت فى الرؤوس ، وتلك خصائص النبوة ومزايا الرسالة ، وقد أخبر لتتنبه الأذهان ، وتعتصم بالحق ، وتتجنب الشطط ، والفتن فى كل حال أمر واقع ، ليس له من دافع ، ولماذا اختلف المسلمون ، وبين أيديهم كتاب الله لا يضلون ما ان تمسكوا به ، وأمامهم سنة رسول الله ، ومن أخذ بها اعتصم من الشر بسور شديد ، لايأتيه الباطل ، ولا يصل اليه زيغ الشيطان .. ؟

ان أسباب اختلاف المسلمين كثيرة ، لا يمكن تقصيها ، ولا يستطيع الباحث استقراءها ، اذ أن كل فكرة نبتت وكل فرقة نشأت ، أحيطت نشأتها بأسباب تضافرت على تكوينها ، وتآزرت فى احداثها ؛ فلنكتف ببيان الاسباب اجمالا ، وقد يغنى الاجمال عن التفصيل ، والتعميم عن التخصيص وهاهى ذى

(١) العصبية العربية ، كان العرب ، منقسمين إلى شعبين عظيمين ، قحطانيين وعدنانيين ، وبين الفريقين التنافس الشديد ، والعداوة

المستحكمة ، والنفار الذى لايكون معه اتفاق ، وكان العدنانيون أنفسهم على قسمين . ربعيين ومضريين ، وكل حرب على الآخر لا يسالمه ، ولا يهادنه ، ولا يساكنه . والقبائل العربية فيما بينها فى تناحر شديد ، وتقاتل ، وتنازع مستمر . فلما جاء الاسلام حرم النداء بالعصبية فيما حرم ، فقد قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عندالله أتقاكم . » وقد قال ﷺ كلكم لادم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » وقال ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبة ، ليس من قاتل على عصبية ، ليس منا من مات على العصبية » فسترت العصبية حينامن الزمان أخذا بتلك التعاليم العالية ، وهذه الاداب السامية ، ولكن سرعان ما استيقظت نارا مشبوبة على الوحدة الاسلامية ، والجامعة الدينية ، فظهرت العصبيات فى الاسلام ، ظهرت أولا فى الردة ، يروى أن مسيلمة الكذاب حينما تنبأ فى بنى حنيفة ، اتبعه الناس على العصبية ، وكان منهم من يقول : « إنا لنعلم أن محمدا صادق ، ومسيلمة كاذب ، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » ولما انتهت الردة خمدت العصبة ، حتى استيقظت فى الفتن الاسلامية بعد ذلك ، وكان بعض الخلفاء والأمراء من الأمويين يذكى نيرانها ، ويؤجج لهيبها ، حتى عادت جاهلية ، ونور الاسلام فى الافاق ، وقد كانت تلك العصبية سببا فى نشوء فرق اسلامية واختلافها ، حتى إنك لترى أكثر الخوارج ربعيين .

(٢) التنازع على الخلافة : وطلب الملك . ولعن الله طلب الملك ، فقد كان شرا مستطيرا على الوحدات والجامعات فى الامم ، وقد ابتلى الله الامة الاسلامية بذلك النوع من الابتلاء ، وأحيانا كانت تتغلب قوة الايمان على رغبات النفوس ، كما حدث فى الاختلاف بين المهاجرين والانصار ، فقد

تغلب الايمان القوى ، ودوى صوت الحق فى وسط تلك الزوبعة ، فقرت الأمور ، وأقروا على الخلافة أمثلهم، وأقواهم ايمانا. وأحيانا كانت تنتصر الرغبة كما حدث فى منازعة معاوية لعلى فى الخلافة ، وقد اشتدت المحن بعد ذلك ، وتشعبت الاحن ، وكانت الخوارج بفرقهم ، والشيعة بنحلهم ، وانقسم المسلمون بذلك فرقا وأحزابا « وكل حزب بما لديهم فرحون»

(٣) دخول طوائف كثيرة فى الاسلام من أصحاب الديانا القديمة ، والملل والنحل السابقة ، فقد بقى أولئك على كثير مما ورثوه من عقائدهم ، إذ لم يستطيعو أن يخاصوا منه ، وأن يهجروه دفعة واحدة . فقد مكنته الأجيال فى قرارات نفوسهم، ومنهم من كانوا يحاولون إن يخلعوا ذلك القديم وبعضهم نزعوا الى تقريب الاسلام مما ألفوه ، وتفسيره بما عرفوه، وقد يكون ذلك منهم وهم لا يشعرون .

(٤) مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة . وسريان كثير من أفكار أولئك الى المسلمين خصوصا، لم يكن ثابت العقيدة قوى الايمان وقد دلنا على ذلك تقارب كثير من آراء بعض اليهود والنصارى ، فترى تقاربا شديدا بين آراء فرقة الفروشيم من اليهود ، من آراء المعتزلة ، وترى تقاربا شديدا بين أفكار الرافضة الذين يدعون أنهم مسلمون وآراء اليهود . قال ابن عبد ربه فى الجزء الاول من العقد الفريد ناقلا عن الشعبى : « احذرك الاهواء المضلة ، وشرها الرافضة ، فانها يهود هى الامة ، يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا فى الاسلام ، رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتا بأهل الاسلام ، وبغيا عليهم ، وقد حرقهم على ابن أبى طالب رضى الله عنه بالنار ، ونفاهم الى البلدان منهم عبد الله بن سبأ نفاه الى ساباط ، وعبد الله بن سباب نفاه الى الحازر ، وأبو الكردس . وذلك

أن محبه الرافضة محبة اليهود . قالت اليهود لا يكون الملك الا فى آل داود وقالت الرافضة لا يكون الملك الى فى آل على بن أبى طالب . وقالت اليهود لا يكون جهاد فى سبيل الله ، حتى يخرج المسيح المنتظر ، وينادى مناد من السماء . وقالت الرافضة لاجهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى ، وينزل من السما . واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم . وكذلك الرافضة واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئا ، وكذا الرافضة واليهود لاترى على النساء عدة وكذا الرافضة . . واليهود تبغض جبريل وتقول هو عدونا من الملائكة وكذلك الرافضة تقول غلط جبريل فى الوحى الى محمد ، بترك على بن أبى طالب. واليهود لاتأكل لحم الجزور وكذلك الرافضة . اه باختصار قليل .

وترى من هذا كيف كانت التعاليم اليهودية تسرى الى بعض من يدعون الاسلام، اما لاضمارهم غير الاسلام ، واظهارهم الاسلام ، واما لأنها سرت الى بعض ضعفاء الايمان من مجاوريهم ، ولعله كان من الرافضة الفريقان

(٥) محاولة أعداء الاسلام افساد الامر بين المسلمين . فنشروا بينهم أهواء مردية ، وأفكارا باطلة . كما كان يفعل الزنادقة والقرامطة وغيرهم فقد كانوا يفعلون ما يفعلون مستظلين بلواء الاسلام ، منتمين اليه . قال ابن حزم فى كتاب الفصل « والاصل فى أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الامم ، وجلالة الخطر فى أنفسهم ، حتى انهم كانوا يسمون انفسهم الإحرار والابناء وكانوا يعدون جميع الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظمت الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام ، بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، ففى كل ذلك يظهر الله الحق .... فأظهر قوم منهم الاسلام ، واستمالوا أهل

التشيع ، باظهار محبة أهل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الاسلام ، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر، يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ؛ إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار ؛ إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر ، وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة ، وقوم سلكوا بهم المسلك الذى ذكرنا من القول بالحلول ، وسقوط الشرائع ، وآخرون تلاعبوا فأوجبوا خمسين صلاة فى كل يوم وليلة »

(٦) ترجمة الفلسفة فى آخر العصر الأموى والعصر العباسى ، فقد كان للكتب الفلسفية المترجمة أثر واضح ، إذ غزا الفكر الاسلامى كثير من المنازع الفلسفية ، والمذاهب القديمة فى خالق الكون ، وظهر كثير من علماء المسلمين نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين ، وأخذوا بطريقتهم .

وظهر فى العصر العباسى أقوام شكيون ، ينزعون فى الشك منزع السوفسطائية الذين ظهروا فى اليونان والروم ، فكان كل ذلك ضغثاً على إبالة ، أضاف إلى أسباب الخلاف أسبابا أقوى وأشد خطرا .

(٧) التعرض لبحث كثير من المسائل التى ليس فى استطاعة العقل البشرى الوصول إليها منفردا عن الشرع ، كمسألة إثبات الصفات ونفيها ، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب وغير ذلك ، فان البحث فى هذه المسائل يفتح بابا واسعا من أبواب الاختلاف ، إذ تختلف الأنظار ، وتتباين المسالك ، ويتجه كل اتجاها يخالف الآخر . وربما كانت أكثر المسائل التى وقع فيها الاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة من هذا القبيل .

(٨) ورود المتشابه فى القرآن الكريم ، فان بعض ذوى الأفهام حاول

الوصول إلى تأويله وإدراك كنه المراد فاختلفوا فى ذلك ، وبعض آخر . ممن يضربون بينهم وبين الزيغ حجابا مستورا توقفوا .

(٩) استنباط الاحكام الاسلامية : اختلف المسلمون بسبب استنباط الاحكام الاسلامية من الكتاب والسنة ، إذ تشعبت أمامهم طرق تعرف الاحكام ، وكل أخذ بما انقدح فى نفسه من رأى ، أوبما اقتنع به من حديث أو أثر . وربما كان هذا الخلاف أخف أنواع الخلاف خطرا ، وأقواها أثرا ، وأبينها ثمرا ، إذ نتج من مجموع الآراء المختلفة المتقاربة قانون محكم ، يعادل أحكم القوانين وضعا ، وأدقها نظاما ، وأعدلها منهجا ، وأقواها على مسايرة الزمن ، ومساوقة الفطرة الانسانية .

(١٠) القصص : ظهر القصص فى عصر عثمان رضى الله عنه ، وكرهه على رضى الله عنه حتى أخرج القصاص من المساجد (١) ، لما كانوا يضعونه فى أذهان الناس من خرافات ، وأساطير ، بعضها مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف ، وعراها التغيير . وقد كثر القصص كثرة فاحشة فى عصر الأمويين ، وكان بعضه صالحا وكثير منه غير صالح . وربما كان السبب فى دخول كثير من الاسرائيليات فى كتب التفسير وكتب التاريخ الاسلامى هذا القصص الذى لايتحرى فيه الصدق والحق فى بعض الأحيان . وطبعى ان أفكارا غير ناضجة تلقى فى مجالس القصص المختلفة قد تكون سببا من أسباب الخلاف خصوصا إذا شايع القاص صاحب مذهب ، أو زعيم فكرة ، وشايع الآخر غيره ، فان ذلك الخلاف يسرى إلى العامة . وتسوء العقبى ، وقد كان شىء من ذلك يحدث فى العصور الاسلامية السابقة .

---

(١) ولم يستثن إلا الحسن البصرى .

الجدل والمناظرة فى عصر

الخلفاء الراشدين

قويت الوحدة الاسلامية فى عصر الخليفتين الاولين ، حتى انه ما كان يحدث خلاف إلا انتهى إلى اتحاد ، ولا افتراق إلا انتهى باتفاق ، حتى ظهرت الفتن فى عصر الخليفة الثالث ، فاتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ؛ وانشقت الوحدة الاسلامية ، وانشعبت من غير تلاق ، وانفرعت من غير اتفاق ، وركبت الأهواء الرءوس ، وقامت فتنة خير وصف لها ماجاء فى صحيح البخارى: « عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ،والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا ، فليعذ به » ولسنا الآن بصدد بيان هذه الفتن ولكنا ذاكرون آثارها فى الجدل الاسلامى . مع الاشارة إلى أسبابها فى موضعه .

وقد تناول الجدل فى عصر الخلفاء الراشدين شعبا ثلاثة (١) جدلا فى الامامة (٢) وجدلا فى أصول العقيدة (٣) وجدلا فى الفروع . ولم يكن الجدل فى هذه الشعب بمقدار واحد بل يتفاوت فيها تفاوتا عظيما .

(١) الامامة : قبل أن نذكر الخلاف فى الامامة والجدل فيها نتقدم بكلمه موجزة عن كنهها ، والداعى إليها والشروط الشرعية فيها .

قال ابن خلدون فى بيان حقيقة الخلافة والفرق بينها وبين الملك : « إن الملك الطبعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة

إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به»

وهذه التفرقة بين الملك والخلافة كانت واضحة فى عصر الخلفاء الراشدين ، كانوا رضوان الله تعالى عنهم مقيمين للحدود ، منفذين لأحكام الشرع الشريف ، حراسا على الناس فى تنفيذه ، دعاة إليه، مبينين لاحكامه ، موضحين لما عساها يبهم على الناس، وقد كان ذلك شأن الخلافه حتى انقلبت ملكا عضوضا ، كما ورد بذلك الأثر .

ولما فى الخلافة من المعنى الدينى ، والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية ، فيجب على الكافه إقامه خليفه ، بحيث يأثمون جميعا ، إن لم يقم . قال ابن حزم فى كتابه الفصل: « اتفق جميع أهل السنه ، وجميع المرجئة ، وجميع الشيعه ، وجميع الخوارج على وجوب الأمامة ، وإن الامة واجب عليها الانقياد لامام عادل ، يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله ﷺ ، حاشا النجدات من الخوارج ؛ فأنهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الامامة ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، وهذه فرقة ما نرى بقى منهم أحد ، وهم المنسوبون إلى نجده بن عويمر الحنفى باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفى فى الرد اليه وابطاله اجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والنسبة قد وردا بايجاب الامام ؛ من ذلك قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الأئمة وإيجاب الامامة» ثم بين أن الفرض إقامة إمام واحد ولا يجوز إقامة إمامين فقال . « ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الامامة على أنه لا يجوز كون إمامين فى وقت فى وقت واحد فى العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد إلا محمد بن كرام السجستانى ، وأبا الصباح السمرقندى ، وأصحابهما ؛

فانهما أجازوا كون إمامين فى وأكثر فى وقت واحد ، واحتج هؤلاء بقول الأنصار أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين: منا أمير ، ومنكم أمير . واحتجوا أيضا بأمر على والحسن مع معاوية رضى الله عنهم،وكل هذا لا حجة لهم فيه ؛ لأن قول الانصار رضى الله عنهم ما ذكرنا لم يكن صوابا ، بل كان خطأ ؛ أداهم إليه الاجتهاد ، وخالفهم فيه المهاجرون ، ولا بد إذا اختلف القائلان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقا ، والآخر خطأ ، وإذا كان ذلك كذلك فواجب رد ما تنازعوا فيه إلىماافترض الله عزوجل الرد إليه عند التنازع؛إذ يقول : «فاذا تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول » إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر»فنظرنا فى ذلك ، فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: إذا بويع لامامين فاقتلوا الآخر منهما ، وقال تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا وقال تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم ووجد التنازع ، ووقعت المعصية ... فصح أن قول الانصار رضى الله عنهم خطأ رجعوا عنه إلى الحق وعصمهم الله من التمادى عليه . وأما أمر على والحسن ومعاوية فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة على رضى الله عنه ، فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أنذر عليه السلام بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، فصح أن عليا هو صاحب الحق ، وكان على السابق إلى الأمامة فصح بعد أنه صاحبها ، وان من نازعه فيها فمخطىء ، فمعاوية رحمه الله مخطىء مأجور مرة ؛ لأنه مجتهد ولا حجة فى خطأ المخطىء ، فبطل قول هذه الطائفة أيضا » اهـ باختصار قليل .

وقد ذكر ابن خلدون شروط الامامة فقال « وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس ، واختلف فى شرط

خامس وهو النسب القرشي» وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » .

أما الاختلاف الذى أشار اليه ابن خلدون فى النسب القرشي فواسع النطاق ، مترامى الأطراف ، مختلف النواحى ، قال ابن حزم « اختلف القائلون على وجوب الامامة فى قريش فذهب أهل السنة ، وجميع الشيعة ، وبعض المعتزله ، وجمهور المرجئة الى أن الامامة لا تجوز إلا فى قريش خاصة من ولد فهر بن مالك ، وأنها لا تجوز فيمن كان أبوه من غير بنى فهر بن مالك ، وان كانت أمه من قريش ولا فى حليف ، ولا فى مولى ، وذهبت الخوارج كلها ، وجمهور المعتزلة ، وبعض المرجئة الى أنها جائزة فى كل من قام بالكتاب والسنه ؛ والواجب أن يقدم الحبشى ، لأنه أسهل لخلعه اذا حاد عن الطريقه » ثم قال « واختلف القائلون بأن الامامه لا تجوز الا فى قريش . فقالت طائفه هى جائزة فى جميع ولد فهر ، وهذا قول أهل السنة ، وجمهور المرجئة ، وبعض المعتزلة .. وقالت طائفة لا تجوز الخلافة إلا فى ولد على بن أبى طالب .... وبلغنا عن بعض بنى الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة إلا فى بنى عبد المطلب خاصة ، ويراها فى جميع ولد عبد المطلب وهم أبو طالب ، وأبو لهب ، والحارث ، والعباس ، وبلغنا عن رجل كان بالأردن انه يقول لا تجوز الخلافة إلا فى بنى أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتابا مؤلفا لرجل من ولد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يحتج بأن الخلافه لا تجوز الا لولد أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما »

وترى من هذا أن جماهير العلماء من المسلمين يرون أن الخليفة من قريش ومن عداهم أقل عددا وأضعف ناصرا ، وقد احتج أولئك الكثرة من العلماء بحديث الأئمة من قريش . وفى رواية « الأمراء من قريش » ، واذا رجعنا الى

إلى أقوال الرواة والشراح في ذلك الحديث نرى أمرين .

(أحدهما) أنهم اختلفوا في معناه : فريق خرج الحديث على أنه خبر بما سيقع ، وهو أن الامامه الحقيقية الشرعية ستكون في قريش ، لا في غيرهم ، وفريق قال إن المقصود الأمر والتكليف ، واستمع الى ما يقوله ابن حجر في شرح حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان» التقدير لا يزال هذا الأمر أي لا يسمى بالخليفة الا من يكون من قريش ، الا أن يسمى به أحدهم من غيرهم غلبة وقهرا . واما أن يكون المراد به الأمر .« وإن كان لفظه لفظ الخبر » ثم قال « قال النووى: حكم حديث ابن عمر الى يوم القيامة ما بقي من الناس اثنان ، وقد ظهر ما قاله صلى الله عليه وسلم فمن زمنه إلى الآن لم تزل الخلافة في قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ، ومن تغلب على الملك بطريق الشركة ، لاينكر أن الخلافة في قريش وإنما يدعى أن ذلك بالنيابة عنهم » ثم قال « قال القرطبي: هذا الحديث خبر عن المشروعية أي لاتنعقد الامامة الكبرى الا لقرشي ، مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنح إلى أنه خبر بمعنى الامر

١١ — ثانيهما أن الروايات تضافرت على أن أولوية قريش مقيدة بعدلهم، واقامتهم الحق ، بل طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لقريش « أنتم أولى الناس بهذا الأمر ، ما كنتم على الحق ، إلا أن تعدلوا فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة » وقوله صلى الله عليه وسلم « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فان لم يستقيموا ، فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فابيدو خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء »

ويفهم من كل هذا أن القرشي أولى بالخلافة ما تساوى مع غيره كفاية

وعدلا ، فان لم يكن فى كفاية غيره وعدالته . فغيره أولى ، ويؤيد ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال « إن أدركنى أجلى ، وأبو عبيدة حى استخلفته ، فان أدركنى أجلى ، وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل » ومعاذ بن جبل غير قرشى . وقوله صلى الله عليه وسلم . « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى ، كأن رأسه زبيبة » فهذا وذاك يؤيد جواز أن تكون الولاية فى غير قرشى .

اختلاف المسلمين فى الخلافة

ولنرجع إلى اختلاف المسلمين فى الخلافة فى عصر الخلفاء الراشدين، فنقول اختلف المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه فى شأنه من يخلفه فى ولاية أمر المسلمين ، فالانصار رأوا أن الخليفة يكون منهم ، لما لهم من فضيلة الايواء والنصرة ، ولأنهم هم حماة الاسلام ، ونصراء الرسول ، والدعاة اليه ، ولم يروا أن النبي صلى الله عليه خصها ببطن من بطون العرب ، ولا بقبيلة من قبائلهم . وفريق آخر على رأسهم أبو بكر وعمر ، رأوا أن الامر للمهاجرين وفريق ثالث جعلوها فى بنى هاشم ، ونادوا بعلى لامتيازه على كل بني هاشم بالسابقة فى الاسلام ، والدفاع عنه ، والمواقف فى الجلى ، والعلم والفقه فى الدين ، ولم يدم الخلاف طويلا ؛ فان الفريق الوسط قد غلب الفريقين، وتبعه جماهير المسلمين ، وسكن الرأى الأول حتى نادى به الخوارج ، وخمد الرأى الثالث حتى استيقظت رءوس الفتن فى عهد الخليفة الشهيد عثمان رضى الله وذلك لأن شخصية الخليفتين ، وماقد قدماه من فداء وبلاء بهرا الانظار ، فلم يفكر الناس فى رجعة أو انتكاث .

وفوق ذلك فقد شغل المسلمون بالجهاد فى سبيل الله ، والتعاون فى تدبير الأمور لتلك الفتوح التى اتسعت بها رقعة الحكم الاسلامى ، ولذلك لم يحفظ

التاريخ من المجادلات فى الخلافة من لدن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه إلا مجادلة الانصار للمهاجرين ، وانتهاء الامر بمبايعة أبى بكر رضى الله عنه ، والامتناع على رضى الله عنه وبعض أهل بيته ومن ينتمون إليه عن البيعة زمنا قيل إنه ستة أشهر ، وما تخلل ذلك من مناقشات له رضى الله عنه فى اثبات حقه فى الخلافة ، وإدلائه اليها بقرابته وسابقته ، ولما بايع أحسن الطاعة ، ولم يحدث نفارا ، ولم يشاقق خليفة فيما يعتقده حقا له ، فأدى للخلافة حقوقها ، ولولى الأمر مايجب له من نصيحة وموعظة حسنة ، ومشورة خالصة .

وقد سلك الصحابة فى طريق انتخاب الخلفاء ثلاثة مسالك ، لانهم لم يجدوا نصا شرعيا يقيدهم بطريق ، ويأخذهم بمذهب إذ الشرع ترك الناس أحرارا فيه ، يسلكون أى مذهب يوحى به العقل ، وتوافق عليه الكثرة لأن ذلك يختلف باختلاف الازمنة ؛ فلم يقيدهم الشرع بطريق قد يصلح فى زمن وربما لايصلح فى غيره

والمسالك التى سلكها الخلفاء

(١) طريقة الانتخاب المباشر من المسلمين وقد حصل ذلك فى انتخاب أبى بكر رضى الله عنه الذى تم سريعا فى سقيفة بنى ساعدة

(٢) وطريقة العهد لمن بعده ، وكان ذلك لايتم الا بعد مبايعة المسلمين لمن يعهد اليه ، وقد حصل ذلك فى انتخاب عمر رضى الله عنه اذ اختاره أبو بكر ، وعهد اليه ، ثم أخذ البيعة له من المسلمين . ولو أردنا أن نرد الحقائق إلى نصابها فى هذه الطريقة ؛ لقلنا إن عهد الخليفة ما كان الا اقتراحا ، وقد نفذه المسلمون بمبايعتهم ذلك المستخلف . والأمر الذى جعل أبا بكر يعمد إلى

ذلك هو خوفه أن يضيع أمر الأمة سددا بددا ، والجيوش قد ذهبت فاتحة ، ضاربة في الأرض ، والأعداء في كل مكان يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويريدون الفرصة فينتهزونها .

(٣) وطريقة الاختيار الشورى من أشخاص يعينهم الخليفه ، ليختار منهم من يخلفه ، وقد فعل ذلك عمر رضى الله عنه عندما ضربه أبو لؤلؤة المجوسي لعنه الله . والذي حصل أن ثلاثة من الستة الذين عينهم عمر . فوضوا لعبد الرحمن ابن عوف اختيار على أو عثمان ، فاختار عثمان رضى الله عنه ، وبايع الناس ، وما اعتبر عثمان خليفة إلا بعد أن تمت له البيعة من المسلمين بالمدينة . وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن الانتخاب العام كان روح هذه الطريقة ، والفرق بينها وبين سابقتها أن هذه اقتراح بانتخاب شخص من بين ستة ، قال عنهم عمر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنهم راض ، فلم يجد لأحدهم فضلا على الآخرين ، ولم يرد أن يتحمل التبعات حيا وميتا .

الفتن في عهد عثمان : استيقظت الفتن في عهد عثمان رضى الله عنه ، وكان العامل فيها خمسة عناصر .

(أولها) سماحه للقرشيين وكبار المهاجرين والأنصار بالذهاب الى الاقاليم ، فان أولئك ذهبوا الى البلاد ، فانسابوا فيها بعد أن كان عمر رضى عنها قد منعهم منها ، وقد كان فيهم جرأة على الحكام بسبب قدمهم السابقة في الاسلام ثم من القرشيين من كونوا ارستقراطية عربية ، لها مجالس خاصة ، ومميزات تجعل لهم الصدر ، وقد اختلفوا في هذه المجالس ، وتناولوا الخليفة وعماله بالنقد ومن المهاجرين الأولين من رأى أعمالا ينكرها ، وأمورا لم يقرها ، فشدد النكير بسببها على الخليفة ، وعماله ، كما فعل أبو ذر رضى الله عنه ، فأنه يروى أنه كان يقول في الشام : « والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هي في

كتاب الله ، ولا سنة نبيه ﷺ ، والله أني لأرى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا، وأثرة بغير تقى، وصالحا مستأثرا عليه . فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية : ان أباذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله ، ان كان لك فيه حاجة ، وقد كثرت أقواله على هذه الشاكلة حتى شكى معاويه الى عثمان رضى الله عنه منه فأمره عثمان بأن يحمله اليه . وترى من هذا كيف كان سماح عثمان لهؤلاء العلية من الصحابة فاتحا بابا لنقد أمره بين أقوام قريبي عهد بكفر، أو دخلوا فى حكم المسلمين كارهين لا طائعين ، ولو أبقاهم بجواره لاستطاع أن يجد منهم المستشارين والمعينين ان أراد ذلك

(ثانيهما): اشتهار سيدنا عثمان رضى الله عنه بحبه لأقاربه وليس فى ذلك من أثم ولا لوم ، ولكنه وثق بكثير من الأمويين وهم أسرته ، وبعضهم ليسوا بأهل لهذه الثقة ، فكان يستشيرهم فى كثير من أمور الدولة ، وبذلك نفرمنه عظماء من علية الصحابة ذوى السبق فى الاسلام كطلحه ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعائشة أم المؤمنين ، لأنهم رأوه قد أخذ يشاورهؤلاء بدل أن يشاور أولئك السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بأحسان . وقد كان عمر رضى الله عنه قد اختص بشوراه الخاصة أولئك الممتازين ، وكان كلما جد أمر من الأمور ذوات الخطر جمع سكان المدينة أجمعين، واستشارهم فى شورى عامة

وقد كان أولئك الأمويون يحاولون القبض على ناصية الأمور ، يروي أن عثمان لما أحاط به المصريون والكوفيون والبصريون ، استعان بعلى رضى الله عنه فى صرف المصريين ، فصرفهم ، وأشار عليه على بأن يكلم الناس بكلام يسمعونه ، يشهد الله على ما فى قلبه من النزوع والأنابة ، فتكلم بكلام، فرق الله الناس، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة ، وكادت القضب

يرجع إلى أجفانها ، وتموت نوازع الشر فى خلاياها ، ولـكن مروان جاء اليه وقال له بأبى أنت وأمى ، والله لوددت أن مقالتك هـذه كانت ، وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضي بها ، وأعان عليها ، ولـكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل والله لاقامة على خطيئة تستغفر منها أجمل من توبه تخوف عليها . وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقرر بالخطيئة ، وقد اجتمع اليك على البـاب مثل الجبال من الناس ، فقال عثمان : فأخرج اليهم ، فكلمهم فانى لاستحيي أن أكلمهم ، فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا ، فقال ماشأنكم فقد اجتمعتم ، كأنـكم قد اجتمعتم لنهب .شاهت الوجوه ، كل انسان آخذ باذن صاحبه ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملـكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا . أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا إلى منازلـكم ، فانا والله مانحن مغلوبين على ما فى أيدينا (١)

(ثالثها) تولية بعض العمال فأنهم لم يكونوا من ذوى السبق ، وبعضهم قد أباح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دمه اذ ارتد بعد ايمان ، وهو عبـد الله بن سعد بن أبى السرح ولاه أمر مصر بعد عمرو بن العاص ، فاكتسب من عمرو عدوا شديد الخصومة ، ولم يكتسب من عبد الله نصيرا يرد الشبهة وينشر الحق . فقد أخذ عمرو يؤلب الناس على عثمان ، حتى إنه روى فى الطبري أنه كان يقول : «والله ان كنت لألقى الراعى . فأحرضه عليه » وأما عبـد الله ابن سعد فقد كانت ولايته مصر سببا لنشر قالة السوء عن سيدنا عثمان رضى

---

(١) الطبرى الجزء الخامس صفحة ١١٢ . قد نقل ذلك الطبرى ، وهو من الثقات ، ونبئني كيف يكون وقع هـذا الـكلام فى النفوس ؟ لابد أن يكون يأسا من اشكاء ومع اليأس العصيان ، وكذلك كان

الله عنه ، اذ أخذ الناس يتحدثون فى شأن توليته ، وهو الرجل الذى آمن ثم كفر ، ثم كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وادعى أنه لبس على المسلمين دينهم ، إذقال انه كان يكتب القرآن بخلاف ما كان يأمره به صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الدعاوى الخطره التى نسبت اليه . وفوق هذا لم يكن البر الرحيم الذى يأسو الجراح الناغرة بحسن سياسة، ويرقأ النفوس الثائرة بحذق وكياسة، بل كان فى سياسته العنف الذى لم يمازجه عدل . جاء فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة « وذكروا أن أهل مصر جاءوا يشكون ابن أبى السرح عاملهم ، فكتب اليه عثمان كتاباه يتهدده فيه ، فأبى ابن أبى السرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من آتاه من قبل عثمان من أهل مصر ، حتى قتله » فانظر الى الرجل كيف يستهين بأمر أمير المؤمنين وكيف تدفعه غوايته الى الجرأة على ايذاء من أوصاه بالعدل بينهم ، والرأفة بهم . ثم اذا شعر النـاس بأن أمر الخليفة يهون على من ولاه ، ألا ييئسون من اقامة العدل ، وفى اليأس فتح باب الشر والفتن والقتل والقتال ؛ إذ الشعور بالعدل هو الحـاجز الحصين الذى يحول بين الشعوب ، والنزوع الى الفتن والآثام والشرور .

(رابعها) لين سيدنا عثمان رضى الله عنه : لم يكن سيدنا عثمان رجلا عنيفا ممن يأخذون الأمور بالشدة . ويعالجونها بالحزم بل كان رجلا مسالما يميل إلى أخذ الأمور ومعالجتها بالحسنى ، وكثير من الفتن لا تعالج الا بالسيف ، ولا تأخذ الا بالشدة . ولو أن سيدنا عثمان رضى الله عنه أخذ أولئك العصاة بالشدة عندما تحركت رءوس الى الانتقاض ، وقضى على فتنهم حتى أيأسهم من أن تـكون الثورة وسيلة للعلاج ، ثم بعد ذلك يأخذ فى رد الأمور الى نصابها ومعالجتها ، وأبعد الولاة الذى كانوا سببا فى شيوع القالة ، وانتشار

السوء ، لو فعل ذلك لنجا ، ولكنه آثر العافية للناس،وكان أهل المدينة وعظماء الصحابة كلما هموا بحمل سيوفهم للوقوف فى وجه أولئك الذين ساوروا المدينة ثبطهم ومنعهم ، فان الرواة يقولون إن ثمانمائة من الصحابة كانوا على استعداد لحمل السلاح ، وكلهم من بقايا السيف ، وبقايا السيف أبقى عـددا ، وأحفظ للبيضة ، وأشد من يحامون عن الحوزة ، وقد منعهم سيدنا عثمان من التقدم لاخراج هؤلاء إيثارا للعافية ، ومنعاً للقتل والقتال ، فـكان هو رضى الله عنه أول فداء ، وأول قربان ألقى فى تلك النيران التى تأججت .

خامسها : وهو أعظم الأسباب ، وجود طوائف من الناقمين على الاسلام الكائدين له بين ربوع المسلمين ، فعملوا على تفريق أهله ، وتمزيق وحـدتهم ، وتضييعهم سدداً بدداً ، لا جامعة تجمعهم . وكان أولئك يلبسون لباس الغيرة على الدين ، ويشيعون السوء عن عثمان ، ويذكرون علياً بالخير ، وينشرون روح النقمة والتمرد بين الشعوب الاسلامية ، ويتخذون من بعض مايفعله ولاة لعثمان مايبنون عليه دعوتهم ، لأنهم يحبون أن تشيع المظالم فى الذين آمنوا وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء جميعاً عبـد الله بن سبأ ، واستمع إلى مايقوله الطبرى فيه : « كان عبـد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالهم ، فبدأ ببلاد الحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على مايريد عند أحـد من أهل الشام ، فأخرجوه ، حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما يقول لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال عزوجل إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى فقبيل عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان

ألف نبي ، ولكل نبي وصى ، وكان على وصى محمد . ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصى رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ؛ ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله ﷺ ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته ؛ وكاتب من كان استفسد فى الأمصار ؛ وكاتبوه ؛ ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم ؛ وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيوب ولاتهم ؛ ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك . ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم ؛ وهؤلاء فى أمصارهم ؛ حتى تناولوا بذلك المدينة،وأوسعوا الأرض إذاعة ؛ وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير مايبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء إلا أهل المدينة . فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار ، فقالو : إنا لفى عافية مما فيه الناس » .

انظر إلى أولئك المنافقين الذين يعيشون فى الأرض كيف يملأون الجو صياحا . ويجأرون بالشكاوى الكاذبة . وتبنئ كيف يكون حالهم إذا وجدوا هناة لأمير ، أو ذنبا سابقا أو لاحقا لوال ، لابد أن يذيعوه ، وينشروه ؛ ليملئوا نفوس الناس بأن أمر الأمة قد فسد وضاع ، وليوقظوا فيهم إحساسا بأن ظلما واقع ، وعدلا ضائع ؛ ويشعروهم باليأس من النصفة إلا بتغيير وفى التغيير تأريث للعداوات ، وتذكية لنيران الاحقاد ، وفتح أبواب الشر على مصاريعها ، فتفشل الأمة ، وتذهب ريحها ، وذلك ما يبغون .

تضافرت الأسباب السابقة ؛ فأوجدت تلك الفتن التى ابتدأن بقتل ذلك

الخليفة الشهيد ، وانتهت بتقسيم الامة الاسلامية إلى فرق وشيع وأحزاب ، تتجادل أحيانا باللسان ، وتتناحر أحيانا بالسيف .

فى ظل تلك الفتن نبتت الشيعة ، وإن كان لعلى أنصار فى الحقيقة ، قبل ذلك يرجع وجودهم الى الخلاف الأول الذى نشأ ، بعد وفاه النبي ﷺ ولكن لم يأخذوا شكل طائفة تجمعها آراء ومبادىء تتعلق بالامامة ، الا بعد أن أخذ عبد الله بن سبأ يدعو دعوته هذه ، وينشر ذلك الرأى الذى ارتآه طريقاً لغايته ، ولما قتل سيدنا على رضى الله عنه أخذت آراء الشيعة تتسع ، وتنقسم فرقا مختلفة على ماسنبين ان شاء الله عند الكلام على الشيعة

وفى صدى هذه الفتن ، وآثارها التى استمرت طول مدة الخليفة الرابع على كرم الله وجهه ، وجد الخوارج الذين خرجوا على على رضى الله عنه بعد التحكيم ، وأخذوا ينادون بتلك الكلمة التى كانوا يرددونها وهى لا حكم الا لله ، وقد أخذوا يجادلون علياً ، وعلى يجادلهم ، حتى قتلوا عبد الله بن خباب ابن الأرت ، ولم يسلموا قاتله ، وقالوا كلنا قتله ، فقاتلهم على رضى الله عنه حتى كاد يبيدهم .

الجدال فى الخلافة فى هذا العصر : كثر الجدال فى الخلافة الاسلامية فى ثلاثة أدوار فى عصر الخلفاء الراشدين . ففى الدور الأول كان يدور الجدل أولا حول استحقاق الأنصار أو المهاجرين للخلافة ، وكان الأنصار يحتجون بالنصرة والايواء والمهاجرون يقولون أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم ، ويحتجون بأنهم أقرباء النبي ، وقد انتهى ذلك الجدل بالاقرار للمهاجرين ، وقد كانت روح الدين تسود المتجادلين ، والاخلاص كان يسيطر على الفريقين ، ولذلك انتهى الخلاف وشيكا . وقد عقب ذلك خلاف آخر قوامه شعور على بأنه أحق بالخلافة لقرابته القريبة ، وهو يحتج بقوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم

أولى ببعض فى كتاب الله ، ويحتج بأن المهاجرين احتجوا بأن رسول الله منهم ففازوا ، وإن يكن الفلج لهم فالها شميون أولى . لأنهم الأقربون وإلا فالأنصار على حجتهم . وقد انتهى ذلك الجدال بمبايعة على رضى الله عنه لأبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لأنه لم يرد لهذه الأمة شقاقاً ولا تفارا . فاخلاص الصحابة هو فى الحقيقة الذى حسم الداء

أما الدور الثانى فقد كان فى تلك الفتن التى قامت فى آخر عصر الخليفة الثالث رضى الله عنه ، وقد كان بعضه يجرى سرا فى الأقاليم كالذى كان يجرى بين السبئية فيما بينهم ، وقوام هذا النوع الغرض ، وقصده الكيد ؛ فهو من نوع التآمر المفسد . وكان بعضه يجرى علنا فى صورة شكوى من الظلم والظالمين ، وبعضه كان يجرى فى صورة نقـد كما كان ينتقد بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم أعمال سيدنا عثمان . وبعضهم كان يصارحه بها . وبعضهم كان يتحدث فى المجالس ناقدا مستنكراً كما كان يفعل عمرو بن العاص بعـد عزله وعمار بن ياسر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، وعائشة رضى الله عنها وغيرهم.

وكان عثمان رضى الله إزاء نبال النقد التى كانت تصوب إليه من كل ناحية يدافع عن نفسه وعن ولاته ، ويرد على مايهاجمه به خصومه :

وإنا ناقلون لك مجادلتين من المجادلات لتعرف منهما شكلها ، وروحها والدوافع إليها

احداها : أنه لمـا كثرت القالة فى شأن عثمان رضى الله عنه وعماله اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فكلموا على بن أبى طالب فدخل على عثمان وقال له : الناس ورائى ، وقد كلمونى فيك والله ما أدرى ما أقول ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لاتعرفه ، انك لتعـلم مانعلم ، ما سبقناك الى شىء فنخبرك عنه ، ولاخلونا بشىء فنبلغكه ، وماخصصنا بأمر دونك ، وقـد رأيت وسمعت وصحبت رسـول الله ﷺ ونلت صهره . وما ابن أبى قحافة

بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحما ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ، ولا سبقناك إلى شيء ، فالله الله فى نفسك ، فانك والله ماتبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كلا لبين ، وإن السنن لقائمة ، لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل ، وضل به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر ، وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى فى جهنم ، فيدور فى جهنم كما تدور الرحى ، ثم يرتطم فى غمرة جهنم وإنى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فان عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول فانه يقال: يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعا ، فلا يبصرون الحق ، لعلو الباطل ، يموجون فيها موجا ، ويمرجون فيها مرجا ، فقال عثمان : قد والله علمت ليقولن الذى قلت . أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكرا إن وصلت رحما ، وسددت خلة ، وأديت ضائعا ووليت شبيها بمن كان عمر يولى ، أنشدك الله يا على ، هل تعلم أن المغيرة ابن شعبة ليس هناك ، قال نعم ، قال فتعلم أن عمر ولاه ، قال نعم ، قال فلم تلومنى ، إن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ، قال على سأخبرك: إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى ، فانما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ، ورفقت على أقاربك ، قال عثمان:

هم أقاربك أيضا ، فقال علي : لعمري إن رحمهم مني لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته فقال علي : أنشدك هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه . قال نعم: قال فان معاوية يقتطع الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية ، ثم خرج علي من عنده (١) .

ويستنبط القارىء لهذه المجادلة (١) ألم سيدنا عثمان لتشنيع الناس عليه واستنكار الصحابة له . (٢) وأنه لا يرى تولية الاقارب الا برا برحمه ، مادام لم يقرهم على ظلم (٣) وانه يختار ولاة لا يقلون عن عمر ، فيرد عليه علي بأن المأخوذ عليه ضعفه ورفقة بهم ، واستبدادهم بالأمر دونه ، وبان الفارق بينه وبين عمر أن عمر كان شديدا على ولاته يهابونه ، ويخافونه فلا يقطعون الأمور دونه . فالجدل يحوم حول العمال وشئونهم والحكم عليهم ، وهذا صورة لما كان يجرى بين الناس عامة ، والصحابة خاصة ، وتلمح في ثنايا الألفاظ شيئا من تجافي النفسين ، وإن كان كلاهما يريد هداية لا غواية فيها ، وحقا قائما ، لا ظلم بجانبه . فالصورة التي تعطيها لنا هذه المجادلة (١) التجافي بين المتجادلين (٢) واختلاف وجهة النظر ، واخلاص كل منهما فيما يرى .

ثانيتهما: أنه لما جاء وفد الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان جمعهم في المسجد ، وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعد كلام إن هؤلاء ذكروا امورا قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ، ليوجبوها علي عند من لا يعلم ، وقالوا : أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم . ألا وإني قدمت بلدا فيه أهلي ، فأتممت ، أو كذلك ؟ قالوا

١ — الطبري جزء خامس صفحة ٩٧

اللهم،نعم . وقالوا حميت حمى ؛ وإنى والله ما حميت حمى قبلى ، والله ماحموا شيئا لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها، لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحد ، ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى ثاغية ولا راغية ؛ وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيرا وشاء ؛ فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم. وقالوا كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحدة. الا وأن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وانما أنا فى ذلك تابع ، أكذلك ؟ قالوا نعم وقالوا إنى رددت الحكم ،وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم رده ، أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم . وقالوا استعملت الأحداث،ولم استعمل إلا مجتمعاً محتملا مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم ، فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلدهم ، ولقد ولى من قبلى أحدث منهم ؛ وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله اسامة ؛ أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم يعيبون للناس مالا يفسرون وقالوا أنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وانما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند انهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذاك لهم ، أكذلك ؟ قالوا نعم . وقالوا انى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فاما حبى فانه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم فانى أعطيهم من مالى ، ولا استحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبه من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ حريص شحيح

أخين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ، وإنى والله ما حملت على مصر من الامصار فضلا، فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم على الاخماس ، ولا يحل لى منهم شىء . فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى . . وما آكل الا من مالى »

وترى من ذلك الدفاع المحكم الذى دافع به سيدنا عثمان رضى الله عنه وساجل الصحابة فيه وذاكرهم اياه صورة لما كان يجرى من النقد المر العنيف له رضى الله عنه ، وما كان يشيعه السبئيون من قالة السوء . وما يعملون على ترويجه من باطل وزيف ، فقد أجمل رضى الله عنه ذكر الاعتراضات التى كانوا يعترضون بها عليه . وبين وجه الحق فيما يفعل وأنه كان على بينة من أمره، وعلى حجة من دينه ، ولكنهم مغرضون لا يريدون رشادا ، ولا يبغون سدادا . فمجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يتربص به الدوائر ، ويتسقط هفواته لينفذ أغراضاً ، ويلقى فى نفوس عنه اعراضا ، ومن كان شأنه كذلك لا تقنعه الحجة ، ولا يهديه الدليل . ومن يضلل الله فلا هادى له

أما الدور الثالث فقد كان بعد أن بويع على رضى الله عنه بالخلافة ، فقد تقدمت طائفة من كبار الصحابة تناقش عليا الحساب ، وتدعوه الى القصاص من قتلة عثمان رضى الله عنه، وقد حاول على رضى الله عنه أن يعرف القاتل من بينهم ، فما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانتظر أن يجىء أولياء الدم يرفعون الأمر اليه ، ويطلبون القود ، وبمعاونتهم يستطيع العثور على القاتل ، ولكن بدل أن يأتى أولئك الأولياء بما هو الشرع ، اخذوا يتهمون عليا بالممالأة فى قتله ، وحماية القاتلين، وصار الأمر هرجا ، وتقدم جمع من المسلمين على رأسهم عائشة رضى الله عنها ، وطلحة والزبير، وحاربوا عليا فى واقعة الجمل المشهورة وقد تخلل ذلك مجادلات كثيرة فى ذلك الموضوع. منها ما جاء فى العقد الفريد

«عن أبي حرب عن أبي الأسود عن أبيه ، قال خرجت مع عمران بن حصين وعثمان بن حنيف الى عائشة ، فقلنا اخبرينا عن مسيرك هذا ، عهد عهده اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم رأى رأيته .قالت بل رأى رأيته حين قتل عثمان بن عفان ؛ إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط ؛ وموقع المسحاة المحماة ؛ وأمرة سعيد والوليد ، وعدوتم عليه فاستحللتم منه الثلاث:حرمه البلد وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ، أمرك ان مصصتموه كما يماص الأناء ، فغضبنا لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيفكم !! قلنا ما انت وسيفنا وسوط عثمان ، وانت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم امرك ان تقرى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض . قالت وهل احد يقاتلنى او يقول غير هذا؟ قلنا نعم. قالت ومن يفعل ذلك ،هل مبلغ عنى ياعمران ؟ قال لست مبلغا عنك حرفا واحدا . قلت لكننى مبلغ عنك ، فات ماشئت قالت اللهم قتل مذمما قصصا بعثمان وارم الاشتر بسهم من سهامك لا يشوى ، وادرك عمارا بحيرته على عثمان

وبعد واقعة الجمل • ظهر طمع معاوية فى الخلافة وإن كان قد ستره أولا بطلب قتلة عثمان . وكان جدل كثير بين المسلمين أيهما أحق بالخلافة • وكانت المراسلة دائمة بين معاوية فيها صورة واضحة لهذا الجدل ، وانا نثبت لك هنا كتابا لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه يتبين لك منه كيف كان جدل الرجلين ، وكيف كان يحتج كل لحقه ، وهاهوذا · اما بعد فقد أتانا كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمد صلى الله عليه وسلم وآله لدينه . وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه ، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا ، اذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته علينا فى نبينا، فكنت فى ذلك كنا قل التمر الى هجر أوداعي مسدده الى النضال. وزعمت أن افضل النـاس في الاسلام فلان وفلان

أمرا ان تم اعتزالك كله. وان نقص لم يلحقك ثلمته. ما أنت والفاضل والمفضول ، والسائس والمسوس ، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء ، والتمييز بين المهاجرين الاولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم . هيات لقد حن قدح ليس منها،وطفق يحكم فيها من عليه ، الا تربع الى الانسان على ظلعك وترضى بقصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر . وانك لذهاب فى التيه ، رواغ عن القصد ، الا ترى غير مخبر ، ولكن بنعمة الله أحدث ان قوما استشهدوا فى سبيل الله من المهاجرين ولكل فضل ، حتى اذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيره عند صلاته عليه ، اولا ترى أن قوما قطعت أيديهم فى سبيل الله ، ولكل فضل،حتى اذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل الطيار فى الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجها آذان السامعين ، فدع عنك من مالت به الرمية ، فانا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عادى طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا ، وانكحنا فعل الاكفاء ، ولستم هناك ، وأنى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ، ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنكم أسد الاحلاف ومنا سيد شباب أهل الجنه ، ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة الحطب ، فى كثير مما لنا . وعليكم . فاسلامنا قد سمع ، وجاهليتنا لاتدفع ، وكتاب الله يجمع ماشذ عنا ، وهو قوله تعالى (وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وقوله تعالى (ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) فنحن مرة أولى بالقرابة ، وتارة أولى بالطاعة، ولما احتج المهاجرون على الانصار يوم السقيفة

برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحجوا عليهم ، فأن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم وإن يكن بغيره فالانصار على دعواهم

وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فان يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون عذرها اليك ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . وقلت انى كنت اقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع ، ولعمر الله أردت أن تذم فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوما ، ما لم يكن شاكا فى دينه ، ولا مرتابا بيقينه ، وهذه حجتى الى غيرك قصدها ، ولكننى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه ، فاينا كان أعدى عليه ، وأهدى الى مقاتله ، أمن بذل نصرته فاستقعده واستكفه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون اليه ، حتى أتى قدره عليه ؟ كلا والله «لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ، ولا يأتون البأس الا قليلا »

وما كنت لاعتذر من أنى انقم عليه أحداثا ، فان كان الذنب اليه ارشادى وهدايتى له فرب ملوم لاذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

وذكرت انه ليس لى ولأصحابى الا السيف ، فلقد اضحكت بعد استعبار ، متى الفيت بنى عبد المطلب عن الاعداء ناكلين ، وبالسيوف مخوفين ، لبث قليلا يلحق الهيجا جمل ، فسيطلبك من تطلب ، ويقرب منك ما تستبعد ، وانا مرقل نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان شديد زحامهم ، ساطع قتامهم ، متسربلين سربال الموت ، أحب اللقاء اليهم لقاء ربهم ، قد صحبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية قد عرفت

مواقع نصالها فى اخيك وخالك وجدك ، وأهلك (وما هى الظالمين ببعيد)

ونرى من ذلك الكتاب كيف كانت الحدة مسيطرة على الفريقين المتناظرين وكل مجادلة بينهما بتبادل كتب كانت توسع الهوة ، وتمزق الخرق ، ولا ترتق الفتق ، واذا التقوا الى فكرة جامعة فى مراسلة تنافروا بعدها ، واشتد النفار ، وأحد الفريقين يحتج بالسابقة فى الاسلام ، والقرابة القريبة كما ترى ، والآخر وهو معاوية لا يفضل نفسه على على ، ولكن يلطخه بدم عثمان رضى عنه ، ويثير شبهات حوله وحول أعماله مع الخلفاء السابقين ، ولكل أقوام يصدقون دعوته ، ويصدرون عن رأيه ، وينهضون بحجته ، وقد لبس الحق ، وغشى بستائر من بطلان ، ولو كانت الحجة وحدها تشق حجب الظلمات لكان ما أدلى به على رضى عنه كافيا لازالة الشبهات ، ورد الحق الى نصابه ، ولكن الحجة لا تكفى الا اذا كانت النفوس على فطرتها ، ولم تعبث بها مطامع وأغراض ، وسبحان من تنزه عن الخطأ والغرض ، واختص بالعلم وهو الواحد القهار .

وقد استمر الجدل بينهما فى شأن الخلافة حتى كان التحكيم ، فلما كان انشقت الوحدة فى جنود على رضى الله عنه ، وأصبح بأسهم بينهم شديدا ، وانتقلت المناظرة الى جواز التحكيم ، ثم أخذت المجادلة دورا آخر فى شأن مرتكب الكبيرة ، وصار الخوارج الذين لم يجوزوا التحكيم بعد أن نادوا به ينتقلون من فكرة مبتدعة الى أخرى ، لا يقيدون أنفسهم بفكرة أو نظر على ماسنبين أمرهم عند الكلام عليهم ان شاء الله تعالى .

(ب) الجدل فى أصول الدين فى عصر الخلفاء الراشدين : كان المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، يشتقون عقيدتهم من القرآن الكريم ، ويعرفون مايليق بذاته تعالى ، وما ينزه عنه جل وعلا من

آياته تعالت كلماته ، ولذا لم يكن بينهم جدل فى شأن من شئون العقائد ، بهذا جاءت الأخبار ، وتواردت الآثار، قال المقريزى فى خططه : «اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا ﷺ رسولا إلى الناس جميعا ، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين ، وبما أوحى اليه ربه تعالى ، فلم يسأله ﷺ أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شىء من ذلك، كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرذلك مما لله فيه سبحانه وتعالى أمر ونهى ، وكما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار ، اذ لوسأله انسان منهم عن شىء من الصفات الالهية ، لنقل كمانقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ، ومسانيدها وجوامعها . ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم ، عن أحد الصحابة رضى الله عنهم على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شىء مما وصف الرب سبحانه وسبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ولافرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أوصفة فعل وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة ، والحياة والارادة والسمع والبصر ، والكلام والجلال والاكرام ، والجود والانعام ، والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا » .

والحقيقة أن تلك الأحوال التى ذكرها كانت خاصة بالمؤمنين الصادق

الايمان الذين أسلموا وجوههم لله تعالى، أما غيرهم فقد كان منهم أسئلة كثيرة الغرض منها تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حكى الله حالهم بقوله تعالى «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

١ — ويظهر أن المسألة التى كانت أحياناً تثير بعض مناقشات فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، مسألة القدر ، وهى المسألة التى شغلت أذهان أصحاب الديانات القديمة وسرت إلى المشركين ، حتى كانوا أحياناً يحتجون بها وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم بعض ذلك ، فقال تعالى حاكياً عنهم : « لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء » ، وحكى قول طائفة أخرى فقال : «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه» . وقال تعالى مبيناً حال المشركين : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ؛ كذلك كذب الذين من قبلهم ، حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم، فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون » ويقول الألوسى فى تفسير هذه الآية « لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح إذا لم يعتقدوا قبح أفعالهم، وهى أفعى لهم ، بل هم كما نطقت به الآيات يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأنهم يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى، وأن التحريم إنما كان من الله عز وجل فما مرادهم بذلك إلا الاحتجاج على أن ما ارتكبوه حق . ومشروع ، ومرضى عند الله بناء على أن المشيئة والإرادة تساوق الأمر وتستلزم الرضا كما زعمت المعتزلة فيكون حاصل كلامهم ، إن ما ارتكبه من الشرك والتحريم ، وغيرهما تعلقت به مشيئة الله تعالى وإرادته وكل ما تعلقت بمشيئته وإرادته ، فهو مشروع ومرضى عنده » . وترى من

ذلك أن أولئك المشركين ، إنما يثيرون مسألة القـدر ، ويحتجون بها على النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان يظهر فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم مثارات أخرى غير القدر يثيرها أرباب الشكوك من المنافقـين ، ومن تأثروا بتعاليم قديمة . قال الشهرستانى : « واعتبر حال طائفة جادلوا فى ذات الله ، تفكرا فى جلاله ، وتصرفا فى أفعاله ، حتى منعهم وخوفهم بقوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال » . فهذا ما كان فى زمانه عليه السلام ، وهو على شوكته ، وقوته وصحة بدنه ، والمنافقون يخادعون فيظهرون الاسـلام ، ويبطنون النفاق ، وإنما يظهر نفاقهم فى كل وقت بالاعتراض على حركاته وسكناته ، فصارت الاعتراضات كالبذور ، وظهرت منها الشبهات كالزرع » .

غير أن أقوى المسائل ظهورا فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم القـدر ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوض فيه ، والامساك عن ذكره مع وجوب الايمان به ، فقد ورد فى حديث سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السـلام قال فأخبرنى عن الايمان قال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »

وجاء فى المنية والأمل عن عبد الله بن عمر قال : « حدثنى أبى عمر بن الخطاب أنه سمع رسول صلى الله عليه وسلم يقول : مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى اظلتكم والارض التى اقلتكم فكما لاتستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لاتستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لايحملكم علم الله عليها »

والايمان بالقدر نوع من الاذعان لله ، والاقرار باحاطة علمه بكل شيء ، وتقـديره فى الأزل كل ما هو كائن على مقتضى الحكمة ، ولذا حث النبي

صلى الله عليه وسلم على الايمان به . وأما النهى عن الخوض فلأن فى الخوض مضلة الأفهام ، ومزلة الأقدام ، وحيرة العقول فى مضطرب فسيح من المذاهب والآراء ، وذلك يدفع إلى الفرقة والانقسام ، فى غير نفع وجداء ، ولأن إثارة الجدل إثارة فى أمر، ليس فى سلطان المجادل الاقناع فيه، وليس بيد أحد من الدلائل العقلية مايحسم الخلاف ، ويحمى الألفة من أن تتوزعها عوامل الانقسام، لهذا وذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الخوض فى القدر وأمر المسلمين بالامساك ، ويكفى النقل دليلا مادام قد ثبت صدقه من غير ريب ونسبته إلى الله من غير امتراء .

ولما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة كالنصارى واليهود ، وفيهم من يثبت القدر ومن ينفيه، ابتدأت المناقشة فى القدر تأخذ شكلا، لايلتئم مع ماأرشد اليه النبى صلى الله عليه وسلم . يروي أن عمر أتى بسارق فقال : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله على . فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطاً ، فقيل له فى ذلك فقال : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله » . فترى من هذا أن ذلك الرجل زعم أن القدر قد يبرر الجريمة ، لأنها مكتوبة ؛ ولذلك ساقه عذرا . وقد زعم بعض الناس أن الاعتقاد بالقدر يوجب عدم الحذر ، فقيل لعمر رضى الله عنه عند ما امتنع عن دخول مدينة بها طاعون : «أفرارا من قدر الله ؟ فقال عمر : نفر من قدر الله إلى قدر الله» فكأن عمر رضى الله عنه يبين له أن قدر الله محيط بالانسان فى كل الأحوال ، وأنه لايمنع الأخذ بالأسباب ، وأن ذات الأسباب مقدورة فيجب علينا الأخذ بها ، والسير فى طريقها إقامة للتكاليف ، وتحملا لتبعات الأشياء .

وقد زعم بعض الذين اشتركوا فى قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه أنهم ماقتلوه إنما قتله الله ، بل حين حصروه . قال بعضهم له الله هو الذى يرميك ، فقال عثمان رضى الله عنه كذبتم ، لو رمانى الله ما أخطأنى وما كانت كل هذه الظنون ، وتلك الشبهات إلا بعض مازرعه اليهود والنصارى والمجوس فى نفوس المسلمين . ومسألة القدر كانت من المسائل التى ثارت حولها عجاجة البحث ، واضطربت فيها العقول ، وفى النفس شهوة الاطلاع على كل مجهول ، وتعرف كل مبهم ، فكان بعض الناس يجد فى المناقشة فى القدر إرضاء لنهمة العقل ؛ وإشباعا لحاجته ، فخاضوا فى حديثه ؛ وبعض الذين ليس للدين فى نفوسهم حريجة قد وجدوا فى حديث القدر اعتذاراً عن مقابحهم ؛ وتبريرا لمفاسدهم ، فهم ساروا فيما يشبه الاباحية وإسقاط التكليف كما فعل بعض المجوس ، وهؤلاء كانوا ممن دخلوا فى الاسلام حديثاً ؛ وليسوا ممن استقرت فى نفوسهم عقيدته .

وقد كان حديث القدر يشتد . والمناقشة تحتد ، كلما اتسع نطاق الفتن ؛ وكلما عبثت الأهواء بالقلوب . ولذا كان الخوض فيه فى عهد على أشد وأحد جاء فى نهج البلاغة وشرحه لابن أبى الحديد : «قام شيخ إلى على عليه السلام فقال : أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره . فقال : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ماوطئنا موطئاً ، ولا هبطنا واديا إلا بقضاء الله وقدره . فقال الشيخ : فعند الله أحتسب عنائى ، ماأرى لى من الأجر شيئا ، فقال : مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى مسيركم ، وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ، ولا مضطرين . فقال الشيخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا فقال : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حتما ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم

يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عباد الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور أهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف تيسيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع كارها ، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات وما بينهما باطلا « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » فقال الشيخ فما القضاء والقدر اللذان ماسرنا الا بهما؟ فقال هو الامر من الله والحكم ، ثم تلا قوله سبحانه « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » فنهض الشيخ مسرورا ، وهو يقول

أنت الامام الذى نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك عنا فيه احسانا

وقد استمر الكلام فى القدر يكثر وينمى ، ويزيد وينتشر ، حتى نشأت الفرق الاسلامية كما سنبين فى العصر الأموى .

هذا هو القدر والجدل فيه فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين .

(٢) وقد جد فى عصر على رضى الله عنه الجدل فى مسألة أخرى تتعلق بأصول الدين ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة ، فان البحث فى هذه المسألة أثاره الخوارج بعد التحكيم ، اذ حكموا بكفر من قال بالتحكيم ، وكفروا علياً ومن معه لتحكيمهم . وقد جر هذا الى المناقشة فى شأن مرتكب الكبيرة ، وأخذ الجدل فيها ينمو ويزيد ، حتى اختلفت العلماء فيها اختلافا طويلا ، وكانت من عوامل افتراق المسلمين بل يعدها بعض العلماء رأس مسائل المعتزلة التى عنوا بها ، حتى نحلتهم اسمهم ، كما سنبين فى نشأة المعتزلة فى العصر الأموى ان شاء الله تعالى .

(٣) وهناك مسائل أخرى تتعلق بأصول الاعتقاد أثارها السبئية .وأخذوا يبثونها فى عهد على كرم الله وجهه ، بل فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه . وهى مسألة الرجعة وخلاصتها . اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم سيرجع ؛ ونشروا بين بعض المسلمين عقيدة تناسخ الأرواح . وغالوا حتى ادعوا حلول الأله . وقد كان من زعمهم السياسى الذى خلطوه بعقيدة دينية أن علياً كان نبيا . ولكن جبريل أخطأ وجاء إلى محمد ﷺ ، ثم غالوا أكثر من ذلك، فادعوا أن علياً آله . وقد قتل على ممن قال هذا القول عددا كبيرا . ولما قتل على زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليا وانما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على وأن عليا صعد الى السماء كما صعد اليها عيسى بن مريم . وزعم بعض السبئية أن عليا فى السحاب وأن الرعد صوته وكان عبد الله بن سبأ يقول: لوجئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته ، لايموت حتى ينزل من السماء ويملك الدنيا بحذافيرها ؛ وغير ذلك من الترهات والأباطيل؛

وانما سقنا هذا كله لتعرف كيف عششت الأوهام والخرافات فى الرءوس ، وكيف وجدت مع وضوح بطلانها وظهور فسادها ؛ وبعدها عن كل معقول أقواما يبشرون بها ويتقبلونها بقبول حسن . وهذه أمور تدل على أن هؤلاء قوم قريبو عهد بعقائد فاسدة بينها وبين ذلك النوع من الأوهام ملاءمة ومجانسة . أوقوم ينشرون بين الدهماء أمثال تلك المفاسد ليفسدوا عليهم دينهم ويمزقوا جمعهم ، ويجعلوا أمورهم الى خبال ، وقوتهم الى اضمحلال . وملكهم الى زوال . وسترى أن الغرس قد آتى أكله بعد حين اذ تناحرت الآراء . وتنازعت المذاهب فى العصر الأموى على نحو من التنازع . لم يعهد فى أمم فتية تحمل معها ذخيرة من ايمان وتقى .ورسالة خالدة الى الكون الانسانى

ولولا رحمة من ربك . لقضى على تلك الأمة من يوم أن ظهرت قوتها ، ولكن الله أراد لها الوجود ، حتى تتم رسالتها ، فكان ما أراده وهو العزيز الحكيم .

الجدل فى الفروع : كان الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا التبس عليهم حكم أمر من الأمور سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجيبهم عليه الصلاة والسلام بما أوحى الله به . وكثيرا ما كان ينزل فى موضوع السؤال القرآن فلما انتقل عليه السلام الى الرفيق الأعلى وحدثت أحداث ، وجدت فى شئون الاجتماع شئون ، وعرضت أمور ، وتعقدت الاحوال الاجتماعية كانوا يرجعون فى تعرف أحكامها الى كتاب الله ، فان لم يجدوا فيه نصا يستنبطون منه ما يريدون اتجهوا الى المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، فان لم يجدوا فى ذلك أثرا اجتهدوا آراءهم • وقد عرف الرأى ابن القيم فقال : « خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل ؛ وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات »(١) فاذا استقر رأيهم على أمر من الأمور نفذوه • وكان طبيعيا أن يختلفوا عند بحث الامور على النحو السابق ، فان الأنظار تختلف ، ووجوه الصواب والباطل تتشابه • ومما يروى فى ذلك ان جدة جاءت إلى أبى بكر رضى الله عنه تسأله ميراثها فى تركة وزعها . فقال مالك فى كتاب الله من شيء وما علمنا لك فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فارجعى ؛ حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس ، فقال هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة ، فقال مثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر ، ثم جاءت الجدة الأخرى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه تسأله ميراثها ، فقال مالك فى كتاب الله من شيء ، ولكن هو ذلك السدس فان اجتمعتما فيه فهو بينكما وأيكما خلت به فهو لها •

وكانت اختلافات الصحابة رضى الله عنهم منشؤها واحد مما يأتى

---

(١) إعلام الموقعين جزء (١) صفحة ٥٥

(١) اختلافهم فى فهم القرآن الكريم (ا) لاحتمال اللفظ اكثر من معنيين كاختلافهم فى المراد من القرء فى قوله تعالى «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» فقد فهم ابن مسعود وعمر رضى الله عنهما ، ان القرء الحيضة ، وفهم زيد بن ثابت انه الطهر (ب) او لتعارض ظواهر النصوص كاختلافهم فى عدة الوفاة للحامل، فقد قال على رضى الله عنه تعتد بابعد الأجلين . عملا بآية البقرة وآية الطلاق . وقال عمر و ابن مسعود تعتد بوضع الحمل . عملا بآية الطلاق

(٢) اختلافهم بسبب معرفة بعضهم لحديث لم يروه الآخرون

(٣) اختلافهم بسبب الراى فانه باب واسع . ولكل انسان نظره ، واتجاه فكره ، وقد يرى مالا يرى الآخرون ؛ ويظهر ان اكثر الخلاف كان ذلك منشأه وقد أثر كثير من المسائل كانت تختلف فيها انظارهم، ومن ذلك اختلافهم فى توزيع التركة عند اجتماع الجد مع الاخوة فقد كان من راى ابى بكر أن الجد أولى بالتعصيب من الاخ وأما عمر فقد توقف حتى سأل الصحابة فقال زيد بن ثابت: « ياامير المؤمنين شجرة نبتت فانشعب منها غصن ، فانشعب من الغصن غصنان ، فما جعل الغصن الأول اولى من الغصن الثانى» فكان يجعله اخا حتى يصير ثالث ثلاثة . وكان على يجعله اخا حتى يصير سادس ستة (٢)

وقد كان جدال الصحابة فى الفروع رائده الاخلاص ، وطلب الحقيقة ،

---

(١) قال تعالى فى سورة البقرة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا» وقال تعالى فى صورة الطلاق « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » فالنص الأول يشمل الحوامل ، والثانى يشمل عدة الوفاة .

«٢» ملخص من اعلام الموقعين لابن القيم الجزء الاول صفحة ١٨٤

ولذا لم يكن بينهم تناحر فيها ولا تنازع ولا تعصب، بل طلب للحق ايا كان وبحث عن الصواب من أية ناحية أخذ ، ومن أية جهة استبان قطبهم القرآن والسنه، ومدارهم اصلاح الامة. فكانوا حقا آخذين بقوله تعالى: «فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » بل ان ذلك الاختلاف كان فيه شحذ للاذهان ، واستخراج للاحكام من القرآن واستنباط قانون شرعى من الكتاب والسنة.

وقد روى الشاطبى فى كتاب الاعتصام أن ذلك النوع من الاختلاف رحمة فقال « روى عن القاسم بن محمد قال لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمل ، لا يعمل العامل بعلم رجل منهم ، الا لأنه رأى أنه فى سعة، وعن ضمرة بن رجاء قال اجتمع عمر بن عبد العزيز والقاسم بن محمد فجعلا يتذاكران الحديث ـ قال ـ فجعل عمر يجيء بالشيء يخالف فيه القاسم ـ قال ـ وجعل القاسم يشق ذلك عليه حتى تبين فيه ، فقال له عمر : لاتفعل، فما يسرنى باختلافهم حمر النعم . وروى ابن وهب عن القاسم أيضا قال لقد أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز . ما أحب أن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس فى ضيق ، وإنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سنة ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد ، وجواز الاختلاف فيه ؛ لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون فى ضيق؛ لأن مجال الاجتهاد ، ومجالات الظنون لا تتفق عادة فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافهم وهو نوع من تكليف مالا يطاق ، وذلك من أعظم الضيق . فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعى فيهم فكان فتح باب للامة للدخول فى هذه الرحمة اهـ (١)

---

(١) الاعتصام ج ٤ ص ١١

ومن هــذا يرى ان الباحــثين لا يرون فى الخلاف فى الفروع الا ثمرات ناضجة لما ابتعثه القرآن الكريم ، والسنة النبوية فى نفوس الناس من البحث العقلى وتدبير شئونهم بالشورى ومبادلة الرأى ، مستضيئين بسنة النبى صلى الله عليه وسلم ومستظلين باحكام القرآن الكريم التفصيلية والاجمالية لا يعدونها ولا يتجاوزون هدايتها . وقد دفعهم الى البحث الدينى الحر كثرة الحوادث . وتشعب الشئون الاجتماعية ومحاولتهم تعرف احكامها من الدين الاسلامى ، وكان فى ذلك كل الخير والهــداية ، وسنوا لمن بعدهم بعملهم سنناقويما ، وطريقا مستقيما

الجدل فى العصر الاموى

تمهيد : (١) لم تنته الفتن بمقتل الخليفة الرابع على رضى الله عنه ، بل كان قتله ابتداء فتنة أشد خطرا ، وأقوى فى حياة المسلمين أثرا ؛ إذ ابتدأت الخلافة تصير ملكا عضوضاً ، وقد كانت من قبل تقوم على الشورى ، واختيار أمثل المسلمين ، وأقواهم فى دين الله ، وأشدهم فى ذات الله . وكما أن التاريخ لم يرو انا أن ملكا أعطى شعبه حقه اختيارا ، كذلك لم يرو التاريخ أن شعبا ذاق حلاوة الشورى ، يسلمها من غير اضطرار ، بل من غير أن تقوم زعازع من الفتن ، وثورات تأكل الأخضر واليابس ، وإذا كان ذلك الشعب لم يتعود الخضوع للسلطان من غير وازع من دين ، فالحال أشد ، والفتنة أحد ، والخطر داهم ، والبلية عامة ، وذلك ما كان فى البلاد الاسلامية ، فان العرب لم يتعودوا الخضوع للسلطان ، إلا بعد أن خالطت قلوبهم بشاشة الايمان ، ولم يخضعوا إلا لقوم فنوا فى الله ، واحتسبوا أنفسهم لحماية دينه ، وحفظ الحق ، والدفاع عن حياضه ، فلما تقدم الأمويون لتسنم عرش هذه الأمة من غير اختيارها ولم تكن لهم سابقة فى الاسلام تسوغ حكمهم ، ولا قرابة قريبة من النبى ﷺ تشفع لهم ؛ لما كان ذلك كذلك لم يسلم الناس لهم الامر طوعا ، ولم يعطوهم الرياسة اختيارا ، بل قاوموهم وناضلوهم ، وتألبوا عليهم من كل ناحية

(٢) وزاد الأمور تعقيداً ، والبلية حدة ، أن الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، رأوا فى قيام ملك الأمويين ، وهم خصومهم فى الحروب الاسلامية ، إعادة لسلطان الجاهلية على الاسلام ، ثم أن الأمويين لم يستدنوا قلوب الأنصار ، بل أعادوا العداوة جذعا ، وفرضوا فيهم خصوما يناوئونهم ، ويلاحونهم ، وتحت ظل تلك الحال التى كانت تغرى بالعداوة والبغضاء

نشبت الحرب بين الأمويين وأبناء الأنصار ، وكانت موقعة الحرة التى أبيحت فيها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم للجند يعيثون فيها فسادا ، من غير رادع من دين ، ولا مراعاة لحرمة ، ولا حفاظ لمروءة ونخوة ، فكان ذلك ضغثا على إبالة ، وإيقادا لنار الفتنة ، وإلهابا للثورة

(٣) وهناك أبناء على رضى الله عنه يسامون الخسف ، ويرادون على الذل وهم الاقرباء الاقربون للنبى الكريم ، والعترة الطاهرة ، وذرية النبى صلى الله عليه وسلم ، فى عروقهم يجرى دمه الشريف ، وفى نفوسهم يسرى روحه الكريم ، قتل الحسين بن على سيد شباب أهل الجنة (كما ورد فى الأثر) قتلة فاجرة ، وذهب دمه عبيطا من غير أن تراعى حرمة قرابة أو دين ، وأخذت بنات على سبايا الى يزيد ، وهن بنات ابنة النبى ، وذريته ، ونسله ، وضئضئه وفرعه ولم يسلم على فى قبره من أذاهم ، بل جعل شيخهم معاوية لعن على على المنابر أمرا محتوما ، وفرضا واجب الأداء ، وقد نهاه بعض المسلمين الصادقى الايمان فلم ينته ، وأرسلت إليه أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ بلغها ذلك كتابا تقول فيه : « إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون على بن أبى طالب ومن أحبه ؛ وأشهد أن الله أحبه ورسوله » فلم يلتفت معاوية لكلامها ، وصار اللعن من بعده سنة متبعة ، حتى أبطلها عادل الأمويين عمر بن عبد العزيز .

(٤) وهناك بجوار هؤلاء وأولئك الموالى ، فانا وإن مدحنا الأمويين لنزعتهم العربية وإحيائهم لتراث العرب ومجدهم ، فلن نحمد فيهم ظلمهم للموالى ، وهضمهم حقوقهم ، فان الناس جميعا سواء فى الاسلام ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وقد أوقع الأمويون بالموالى ظلما شديدا حتى لقد حرموهم حقوقهم فى عطاء الجيش إن غزوا ، وخالفوا بذلك قسمة

الله التي شرعها فى الغنائم . ولذلك أسهم الموالى فى الانتقاض على الأمويين ، ولم يقروا لهم بحكم طائعين ، وإن أدل شيء على أن الظلم الواقع عليهم هو الذى دفعهم إلى الانتقاض أن المختار الثقفى لما قام بثورته على الملك الأموى كان أكثر أنصاره من الموالى ، لأنه جعل لهم حقا فى الغنائم كحق العرب ، ولم يغفل بنقمة بعض العرب ذلك عليه . قال الطبري فى تاريخه «لم يكن فيما أحدث المختار شيء هو أعظم من أن يروه يمنح الموالى نصيبهم من الفيء . وطالما كانوا يقولون عمدت إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك ، حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا »

لما سبق كله كانت البلاد الاسلامية تموج بالفتن ، وتمرج بالشر ، وإن سكنت فى الظاهر فكمون النار المتأججة تحت الرماد .

(٥) وفى وسط ذلك المضطرب السياسى وجد مضطرب فكرى ، لا يقل عنفا عن هذا المضطرب ، بل كان كلاهما يتغذى بالآخر ، ويستمد منه قوة وحياة ، وكثير من المسائل التى كانت موضع تنازع واختلاف انبعثت من السياسة واضطراب الناس فى أمرها ، فالفرق التى ابتدأت سياسية ثم خلطت بالسياسة غيرها من الأمور الدينية نمت وترعرعت فى ظل ذلك الاضطراب ، فالخوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم نماغرسهم ، واستغلظ سوق نبتهم فى ظل التنافس السياسى ، والتقاتل على السلطان . وقد وجدت عوامل أخري زادت الحركة الفكرية قوة ونماء وحدة ، أعظمها:

(ا) الاحتكاك بين حضارات مختلفة ، ففى الأصقاع الاسلامية التقت حضارة فارس بحضارة الرومان ، وحضارة السريان وفلسفة اليونان ، وأظل الجميع الاسلام ، فنتج من ذلك المزج بين هذه العناصر المتنافرة اضطراب فكرى ،

وتناحر مذهبي ، وكان أشد البقاع الاسلامية تصويرا لذلك الاختلاط العراق ولذا ظهرت فيه النحل المختلفة ، والمذاهب الدينية المتضاربة ، وقد قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة فى علة اعتناق الروافض لمذهب الحلول ، والمغالاة فى على رضى الله عنه : «ومما يتقدح لى فى الفرق بين هؤلاء القوم (الروافض) وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أن هؤلاء من العراق ، وساكنى الكوفة وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء ، وأصحاب النحل العجيبة ، والمذاهب البديعه ، وأهل هذا الاقليم أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الاكاسرة مثل مانى ، وديصان ، ومزدك ، وغيرهم . وليست طينة الحجاز هذه الطينة ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان »

ونرى من هذا أن العراق كان مزدحم الآراء فى المعتقدات من قديم ، وذلك لأنه كان يسكنه عدة طوائف من نحل مختلفة من قديم ، والمذاهب التى نشأت يبدو فيها اختلاط العقائد المتضاربة ، فالديصانية والمانوية ليست إلا مزجا لثنوية المجوس بالمبادىء النصرانية ، وهكذا نرى كثيرا مما ظهر من النحل المختلفة فيه استنباط عقيدة من مجموع عقيدتين أو عدة عقائد

(ب) والموالى الذين حرموا السيادة والسلطان انصرفوا إلى دراسة العقائد وتعرف أسرارها ، وسبر اغوارها ، والوصول إلى أعماقها ، ولذلك كان الجيل الذى ولى عصر الصحابة فى فقه الدين ، والعكوف على دراسة الحديث وروايته من الموالى ؛ فسعيد بن جبير ، والشعبى ، وابن سيرين ، والحسن البصرى كل هؤلاء من الموالى ، وهم من علية التابعين ، وأصحاب القدم الثابتة فى فهم الدين ، والوصول إلى أبعد أغواره

غير أنا إن رأينا فى هؤلاء التابعين من الموالى إخلاصا مبينا لذلك الدين الكريم ، وإدراكا للبابه وفهما لمراميه ، فمن الموالى من لم يفهم الدين على

حقيقته ، ولم يدركه كما انبعث من ينبوعه . وذلك لنحلتهم القديمة التى استمكنت فى نفوسهم ، ففهموا الدين على ضوئها ، وأدركوه على صورتها ، فالتبس عليهم أمره ، ولأن منهم من كان يدخل على المسلمين مبادىء إلحاد نكاية بالاسلام ومقتا لأهله ، وإفسادا لأمره ، وقد نقلنا آنفا كلام ابن حزم فى هـذا المقام فارجع اليه .

(ج) والفلسفة : فقد ابتدأت الآراء الفلسفية تنتشر بين المسلمين باختلاطهم بالفرس واليونان والرومان، وكل هؤلاء كان للعلوم والفلسفة فى بلادهم القدح المعلى ، وكان بالعراق مدارس فلسفية كما كان بفارس قبل الاسلام مثلها ؛ وقد تعلم فيها من العرب الحارث بن كلدة ، وابنه النضر . ولما جاء الاسلام فى تلك الأصقاع وجد من سكانها من يجيدونها ومن يعلم المسلمين مبادئها ، وكان للسريان فى ذلك العمل الظاهر ، والأثر الواضح ؛ وقد كان ذلك فى العصر الأموى وإن لم يكن بمقدار ما كان فى العصر العباسى ؛ فيروى ابن خلكان «أن خالد بن يزيد بن معاوية وكان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيرا بهذين العلمين ، متقنا لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الرومى وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانس المذكور ؛ وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار اليها»

وقد ترعرع فى وسط تناحر سياسى شديد ، كثير العنف قوى الصخب

من هذا تعرف مقدار التناحر الفكرى الذى كان بين المسلمين فى ذلك العصر وبينما كان العرب يعيشون فى مشتجر السيوف ، وفى ميادين القتال ؛ كان الموالى منصرفين الى دراسات دينية عميقة ، كانت شديدة الأثر فى نفوس المسلمين ؛ وكان من آثارها الفرق الاسلامية التى شغل كثير منها أفكار المسلمين فى ذلك

العصر ؛ وبعضها قد غرست أصوله فيه ، ولم تثمر ثمراتها إلا فى العصر الذى وليه · ولأن جدل ذلك العصر كان أكثره بين الفرق المختلفة وجب أن نذكر كلمة عن أظهر هذه الفرق ، وأظهر ماتعتنق من عقائد وآراء ، وجدل كل فرقة ، ثم نتكلم بعدئذ فى الجدل فى الفروع

الفرق الاسلامية

شغلت الفرق الفكر الاسلامى فى ذلك العصر ، واستولت عليه استيلاء تاما ؛ وقد ابتدأت سياسية تنزع منزعا سياسيا ، وإن كانت طبيعة السياسة الاسلامية ذات صلة بالدين ،وهو قوامها ولبها ، لذلك نقول إن الفرق السياسية التى نشأت فى ذلك العصر كانت كل مبادئها تحوم حول الدين ، فتقرب منه حينا ، وتبتعد عنه أحيانا ثم أن تلك الفرق خاضت بتلك البحوث الدينية فى سياسة الناس ، بحوثا أخرى تتعلق بأصول الايمان والاعتقاد ، فكان لها رأى قائم بذاته ،مستقل فى الاعتقاد وأصول الايمان ، بل فى الاحكام العملية أحيانا وان كانت العوامل فى تكوينها السياسة ، وما يتعلق بها

وقد قام على أثر تلك الفرق السياسية التى خلطت ببحثها فى السياسة بحوثا فى العقائد فرق أخرى لا تبحث إلا فى الاعتقاد ، وكان قوام بحثها أحيانا مسائل دينية تتعلق بأصل الأيمان وأحيانا كان قوام البحث فى القدر وقدرة الأنسان بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى وغير ذلك

ولنبدأ بالكلام فى الفرق السياسية وجدلها

الفرق السياسيه

ـ ١ ـ الشيعة

(١) الشيعة أقدم الفرق الاسلامية ، وقد علمت أنهم ظهروا بمذهبهم السياسى فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ونما وترعرع فى عهد على رضى الله عنه ، إذ كان كلما اختلط رضى الله عنه بالناس ، إزدادوا إعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه ، فاستغل الدعاة ذلك الاعجاب ، وأخذوا ينشرون محاسنهم بين الناس ولما جاء العصر الأموى ووقعت المظالم على العلويين ، واشتد نزول أذى الامويين بهم ، ثارت دفائن المحبة لهم والشفقة عليهم ، ورأى الناس فى على وأولاده شهداء هذا الظلم ، فاتسع نطاق المذهب الشيعى ، وكثرة انصاره

وقوام هـذا المذهب ـ ا ـ « أن الأمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي إغفالها ، وتفويضها إلى الامة بل يجب عليه تعيين الأمام لهم ، ويكون معصوما عن الـكبائر والصغائر » (١)

(٢) وأن على بن أبى طالب كان هو الخليفة المختار من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضل الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم ، ويظهر أن الشيعة ليسوا وحدهم الذين كانوا يرون تفضيل على رضى الله عنه على سائر الصحابة ، بل إن من بعض السابقين من الصحابة من كان يرى ذلك ومنهم عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون

وأبى بن كعب ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبو أيوب ، وسهل بن حنيف ، وعثمان ابن حنيف ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة والعباس ابن عبد المطلب ، وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر ، ثم رجع ، وكان من بنى أميه قوم يقولون بذلك منهم خالد بن سعيد بن العاص ، ومنهم عمر بن عبد العزيز (١)

(٣) — ولم يكن الشيعة على درجة واحده ، بل كان منهم الغالون فى تقدير على وبنيه ، ومنهم المعتدلون المقتصدون ، وقد اقتصر المعتدلون فى تفضيله على بقية الصحابة من غير تكفير لأحد. وقد حكى ابن أبى الحديد نحلة المعتدلين ، وهو منهم . فقال « كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز فى هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقة مقتصدة ، قالوا : هو أفضل الخلق فى الآخرة وأعلاهم منزلة فى الجنة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه ، فانه عدو الله سبحانه وتعالى ، وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين ، إلا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توليه وحبه . فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الأمانة قبله ، فلو أنكر إمامتهم وغضب عليهم ، وسخط فعلهم ، فضلا عن أن يشهر عليهم السيف ، أو يدعو إلى نفسه ، لقلنا إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قال له : حربك حربى ، وسلمك سلمى ، وأنه قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وقال له لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك الا منافق . ولكنا رأينا رضى إمامتهم ، وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وأنكحهم ، وأكل فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه . ألا ترى أنه لما برىء

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

من معاوية ، برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ، ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم . والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله إلا رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ماعدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم به عليه السلام » (١)

ـ ٣ ـ أما الغالون المتطرفون من الشيعة، فقد رفعوا عليا إلى مرتبة النبوة حتى لقد زعم بعضهم أن النبوة كانت له ، وأن جبريل أخطأ ، وذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم (٢) بل ان كثيرا منهم رفعوا عليا الى مرتبة الأله وقالوا له هو أنت (الله) . ومنهم من زعم أن الأله حل فى الأئمة على وبنيه وهو قول يوافق مذهب النصارى فى حلول الاله فى عيسى ، ومنهم من ذهب الى أن كل روح امام حلت فيه الألوهية تنتقل الى الامام الذى يليه.

وقد أجمع أكثر الغلاة على أن آخر امام يفرضونه لا يموت، بل هو حى يرزق باق حتى يرجع فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما . فطائفة قالت ان على بن ابى طالب حى لم يمت وهم السبئية، وطائفة قالت ان محمد بن الحنفية حى برضوى عنده عسل وماء ، وطائفة قالت ان يحيى بن زيد لم يصلب ولم يقتل بل هو حى يرزق ، والاثنا عشرية « يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة ، وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ

(١) شرح نهج البلاغة

(٢) وهم الغرابية وسموا بذلك لأنهم قالوا انه يشبه النبى صلى الله عليه وسلم كما يشبه الغراب الغراب

الأرض عدلا . . وهم ينتظرونه لذلك ، ويقفون كل ليـلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ؛ ويرجئون الامر الى الليـلة الآتية . . . وبعض هؤلاء الغلاة يقول ان الامام الذى مات وسيرجع الى حياته الدنيا ؛ ويستشهدون لذلك بما وقع فى القرآن الكريم من قصة أهل الكهف ، والذى مر على قريه ، وقتـيل بنى اسراءيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها) (١)

وبعض هؤلاء خلطوا بهذه الآراء الفاسدة آراء اجتماعية خطرة مفسدة ، للنسـل هادمة للاديان ؛ فاستحلوا الخمر والميتة ونـكاح المحارم ، وأنكروا القيامة وتأولوا قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » ، وزعموا أن مافى القرآن من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية . وكل مافى القرآن من الفرائض التى أمر الله بها كناية عمن تلزم موالاتهم مثل على والحسن والحسين وأولادهم (٢)

٤ — ومن ذلك نرى أن الشيعة مزيج من الآراء ، ومرتع لـكثير من الافـكار ، ونحلة قدضاق بها أوهام كثيرة ، وسيطرت عليها خواطر باطلة ، ومبادىء من ملل قديمة وقد أرادوا أن يلبسوها . بلباس الاسلام ، فضاقت عن أن تسعهم عقيدة الاسلام السامية النقية وهى عقيدة التوحيد .

وقد تساءل بعض العلماء الأوربيين عن أصل الشيعة ، وهى مبادىء لاشك دخيلة فى الأسلام فقد ذهب الاستاذ ولهوسن إلى أن العقيدة الشيعية نبعت

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف

(٢) الملل والنحل للشهرستانى . والخطط للمقريزى

من اليهودية (١) أكثر مما نبعت من الفارسية، مستدلا بأن مؤسسها عبدالله بن سبأ وهو يهودى ، ويميل الأستاذ دوزى إلى أن أصلها فارسى ، فالعرب تدين بالحرية، والفرس يدينون بالملك وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه على بن أبى طالب فمن أخذ الخلافة منه كأبى بكر وعمر وعثمان والامويين فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى على وذريته وقالوا إن طاعة الأمام أول واجب ، وإن طاعته طاعة لله (٢)

ويقول فان فلوتن قد اثبت بالفعل أن من مذاهب الشيعة ما كان مباءة للعقائد الاسيوية .القديمة كالبوذية والمانوية وغيرها (٣)

والحق الذى لا مرية فيه أن الشيعة كانت مستزادا لكثير من الديانات القديمة الأسيوية ففيها من المذاهب الهندية مبدأ التناسخ الذى يقول إن روح الانسان تنتقل إلى إنسان غيره فقد طبق بعضهم ذلك المذهب على أئمتهم ، وقالوا أن روح الأمام تنتقل إلى الذى يليه ، وأخذوا من البرهمية القديمة والمسيحية مبدأ حلول الاله فى الانسان ، وأخذوا من اليهودية شيئا كثيرا وقد حكينا لك مقاله الشعبى التى نقلها ابن عبد ربه فى العقد الفريد فارجع اليها وقال فى ذلك ابن حزم فى بيان أن عقيدة رجوع الأئمة مأخوذة من اليهودية : « سار هؤلاء فى سبيل اليهود القائلين أن الياس عليه السلام

(١) قد تقدم أن هذا رأى الشعبى كما جاء فى العقد الفريد وقد بينا ذلك فى سبب اختلافات المسلمين

(٢) فجر الاسلام للاستاذ الجليل احمد أمين

(٣) السيادة العربية

وفنحاص بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم ، وسلك هـذا السبيل بعض ترکی الصوفية فزعموا أن الخضر والياس عليهما السلام حيان إلى الآن ، وادعى بعضهم أنه يلتقى الياس فى الفلوات والخضر فى المروج والرياض ، وأنه متى ذكر حضر على ذكره »(١)

وهكذا نرى الشيعة كانت خليطا من اهواء وملل ونحل قديمة دخلت على المسلمين لأفساد الاسلام ، أو تحت تأثير التربية والالف ، فدخلوا فى الاسلام، ولم يستطيعوا نزع القديم

هذه المامة موجزة بينت أحوال الشيعة اجمالا ، ونريد بعد ذلك أن نذكر بعض فرقهم المشهورة وتاريخ نشأتها ، لتكون على بينة من أدوار هذه الفرقة فنقول

ـ١ـ السبئية : هم أتباع عبد الله بن سبأ وكان يهوديا من أهل الحيرة ، أظهر الاسلام وأمه أمة سوداء ولذلك يقال ابن السوداء ، وقد علمت أنه كان من أشد الدعاة ضد عثمان ، وقد تدرج فى نشر أفكاره ومفاسدة بين المسلمين وأكثرها موضوعه على رضى الله عنه

أخذ ينشر أولا بين الناس أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصيا ؛ وأن عليا وصى محمد، وأنه خير الأوصياء كما أن محمدا خير الأنبياء . ثم حكم بأن محمدا سيرجع الى الحياة الدنيا وكان يقول عجبت لمن يقول برجعة عيسى ؛ ولا يقول برجعة محمد ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ثم تدرج من هذا إلى الحكم بألوهية على رضى الله عنه ولقد هم هذا بقتله إذ بلغه عنه ذلك ، ولكن نهاه عبد الله بن عباس ، وقال له : إن قتلته اختلف عليك أصحابك ، وأنت عازم على العود لقتال

(١) الفصل جـ ٤ ص ١٨٠.

أهل الشام ، فنفاه على إلى ساباط المدائن . ولما قتل رضى الله عنه ، استغل ابن سبأ محبـة الناس له كرم وجهه ، وأخذ ينشر حوله الاكاذيب التى تجود بها مخيلته ، اضلالا للناس وإفسادا ، فصار يذكر للناس « أن المقتول لم يكن عليا وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورته ، وأن عليا صعد الى السماء ، كما صعد اليها عيسى بن مريم عليه السلام وقال : كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى كذلك كذبت الخوارج فى دعواها قتـل على ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى ؛ كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه على . وقد صعد الى السماء وأن الرعد صوته والبرق تبسمه ، ومن سمع من السبئيين صوت الرعد يقول السلام عليك يا أمير المؤمنين . وقد روى عمر بن شرحبيل أن ابن سبأ قيل له إن عليا قد قتل ، فقال إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصـدق بموته ، لا يموت حتى ينزل من السماء ، ويملك الأرض بحذافيرها »(١)

ـ ٢ ـ الـكيسانية : (٢) هم اتباع المختار بن عبـيد الثقفى ، وقد كان خارجيا ، ثم صار من شيعة على رضى الله عنه . وقد قدم الكوفة حين قدم اليها مسلم بن عقيل من قبـل الحسين رضى الله عنه ، ليعلم حالها . ويخبر ابن عمه بأمرها . وقد أحضر عبيد الله بن زياد المختار ، وضربه ثم حبسه الى أن

---

(١) الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادى.

(٢) نسبة الى كيسان قيل إنه مولى لعلى رضى الله عنه ؛ وقيل أنه تلميذ لمحمد بن الحنيفة وقيل أنه أبو عمرة مولى بجيلة كان يحرس المختار الثقفى .وقد شهد له بأن محمد بن الحنفية سمح بأن يدعو المختار باسمه والشهرستانى فى الملل والنحل يعد اتباع المختار : فرقة غير الـكيسانيـة ؛ ولكنه يقول فى المختار صار شيعيا كيسانيا، فكأن المختار اتبع نحلة الشيعة الـكيسانية.

قتل الحسين ، فشفع له زوج أخته عبد الله بن عمر ، فأطلق سراحه على أن يخرج من الكوفة فخرج الى الحجاز ، وقد أثر عنه أنه قال في أثناء سيره :

« سأطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن على . فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن ذكريا ثم لحق بابن الزبير ، وبايعه على أن يوليه أعماله اذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام . ثم رجع الى الكوفة بعد موت يزيد ، وقال للناس « ان المهدى ابن الوصى بعثنى اليكم أمينا ووزيرا ، وأمرنى بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء » وزعم أنه جاء من قبل محمد ابن الحنفية لأنه ولى دم الحسين رضى الله عنه ، ولأن محمدا (رضى الله عنه) كان ذا منزلة بين الناس امتلأت القلوب بمحبته ، إذ كان كثير العلم غزير المعرفة ، وقاد الفكر ، مصيب النظر فى العواقب ، قد أخبره أبوه أمير المؤمنين على رضى الله عنه أخبار الملاحم . ولكن أعلن محمد ابن الحنفية البراءة من المختار على الملأ من الأمة ، وعلى مشهد من العامة ، إذ بلغته أوهامه ، وأكاذيبه ، وعرف خبىء نياته . ومع تلك البراءة فقد تبع المختار هذا بعض الشيعة ، وأخذ هو يتكهن بينهم ، ويسجع سجعا يشبه سجع الكهان ، حتى روى أنه كان يقول « أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار ومهند بتار ... حتى إذا أقمت عمود الدين ، وزايلت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وقد أخذ المختار فى محاربة أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع فيهم ولم يعلم أن أحدا اشترك فى قتل الحسين إلا أسكن نأمته ، فحببه ذلك فى نفوس

الشيعة ، فالتفوا حوله ، وأحاطوا به ، وقاتلوا معه ، ولكن هزم فى قتال مصعب ابن الزبير إذ انتصر عليه وقتله

(ا) وعقيدة الكيسانية لاتقوم على ألوهية الأئمة كالسبئية الذين يعتقدون حلول الجزء الآلهى فى الانسان كما بيننا ، بل تقوم على أساس أن الامام شخص مقدس ، يبذلون له الطاعة ، ويثقون بعلمه ثقة مطلقة ، ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ لأنه رمز للعلم الآلهى

(ب) ويدينون كالسبئية برجعة الامام ، وهو فى نظرهم بعد على والحسن والحسين محمد بن الحنفية ، ويقول بعضهم إنه مات ، وسيرجع ، وبعضهم وهم الأكثرون يعتقدون أنه لم يمت ، بل هو بجبل رضوى عنده عسل وماء ، وقد كان من هؤلاء كثير عزة إذ يقول .

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يري عنهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

(حـ) ويعتقدون البداء ، وهو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريد تبعاً لتغير علمه ، وأن يأمر بالشىء ثم يأمر بخلافه . وقد قال الشهرستانى . « وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الامام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء ، وحدوث حادثة ، فان وافق كونه قوله جعله دليلا على دعواه وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم »

ويعتقدون أيضاً تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها

فى جسد آخر .

وقد علمت أن هذه الفكرة مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة .

(د) وكانوا يقولون « إن لكل شيء ظاهرا وباطناً ، ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة ، والمنتشر فى الآفاق ، من الحكم والأسرار يجتمع فى الشخص الانسانى ، وهو العلم الذى استأثر على عليه السلام به ابنه محمد ابن الحنفية . وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا » (١)

وترى من هـذا الذى ذكرناه وهو بعض مخاريقهم أنهم جانفوا مبادىء الاسلام ، وبعدوا عن روحه ، ورفعوا الأئمة إلى مراتب النبيين ، وكأنهم اعتقدوا أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ما انتهت بموته ، بل بقيت فى بيته من بعـده .

٣ - الزيدية : هذه الفرقة هى أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الاسلامية وهي لم تغل فى معتقداتها ، ولم يكفر الأكثرون منها أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ الأولين ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الاله ، ولا إلى مرتبة النبيين .

وإمامها زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم . خرج (٢) على هشام بن

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى

(٢) ويقول المسعودى فى سبب خروجه : « كان زيد دخل على هشام بالرصافة ، فلما مثل بين يديه لم ير موضعا يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه وقال ياأمير المؤمنين : ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله فقال هشام . اسكت لا أم لك ، أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمة قال ياأمير المؤمنين إن لك جوابا ، إن أحببت أجبتك به ، وإن أحببت أسكت عنه . فقال : بل أجب . قال إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن

عبد الملك بالكوفة فقتل وصلب بكناسة الكوفة وقوام مذهبه وهو مذهب هذه الفرقة إلى أن عراها التغيير

(ا) أن الامام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم ، وأوصاف الامام التي قالوا إنه لابد من وجودها حتى يكون إماما يبايعه الناس وهي كونه فاطميا ورعا ، عالما ، سخيا ، يخرج داعيا الناس لنفسه • وقد خالفه في شرط الخروج كثير من الشيعة وناقشه في ذلك أخوه محمد الباقر ، وقال له « على قضية مذهبك . والدك ليس بامام ؛ فانه لم يخرج قط ، ولا تعرض للخروج

(ب) أنه يجوز إمامة المفضول فكأن هذه الصفات عندهم للامام الأمثل الكامل ، وهو بها أولى من غيره. فان اختار أولو الحل والعقد في الامة إماما لم يستوف بعض هذه الصفات ، وبايعوه صحت إمامته ، ولزمت بيعته ، وبنى على ذلك الاصل صحة إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما . فكان زيد يرى « أن علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ؛ فان عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة

الغايات ، وقد كانت أم اسماعيل أمة لأم اسحاق صلى الله عليهما وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ؛ فأخرج من صلبه خير البشر محمدا ﷺ . فتقول لي هذا ، وأنا ابن فاطمة وابن علي وقام وهو يقول

شرده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد
سنخرق الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد
ان يحدث الله له دولة ... يترك آثار العدا كالرماد

فمضي عليها إلى الكوفة ، وخرج عنها ، ومعه القراء والأشراف

كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام عن دماء المشركين لم يجف ، والضغائن فى صدور القوم ، من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحه أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن ، والسبق فى الاسلام ، والقرب من رسول الله ﷺ (١)

وقد خذل زيدا أكثر الشيعه لقوله بذلك الاصل . قال البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق : «لما استحر القتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمر والثقفى قالوا إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب . فقال زيد : إنى لا أقول فيهما إلا خيرا . وإنما خرجت على بنى أميه الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينه يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ، ففارقوه عند ذلك .

حـ — ومن مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قطرين مختلفين بحيث يكون كل واحد منهما إماما فى قطره الذى خرج ما دام متحليا بالاوصاف التى بيناها ، ويفهم من هذا أنهم لا يجوزون قيام إمامين فى قطر واحد، لأن ذلك يستدعى أن يبايع الناس لامامين، وذلك منهى عنه بصريح الأثر

د ـ وقد كان الزيديون يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ما لم يتب توبة نصوحا ، وهم قد اقتبسوا ذلك من المعتزلة الذين يقولون هذه المقالة ، وذلك لان زيدا رحمه الله كان ينتحل نحلة المعتزلة، إذ تتلمذ لواصل بن عطاء شيخهم فى الاصول ، وأخذ عنه آراءها فيها .وروى أن ذلك كان من أسباب بغض سائر الشيعة له إذ أن واصلا كان يرى « أن على بن أبى طالب فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل ، وأصحاب الشام ، ما كان على الصواب

(١) الملل والنحل للشهرستانى

بيقين ، وأن أحـد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه » (١) وذلك أمر لا يرضى شيعة. ولما قتل زيد بايع الزيديون ابنه يحيى، ثم قتل هو أيضاً ثم بويع بعد يحيى محمد الامام ، وابراهيم الامام فقتلهما أبو جعفر المنصور ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك . ومالوا عن القول بأمامة المفضول ، ثم أخذوا يطعنون فى الصحابة كسائر الشيعة ، فذهبت عنهم بذلك أولى خصائصهم .

٤ ـ الامامية : — ١ — وهم القائلون بأن إمامة على رضى ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصاً ظاهرا ويقيناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة بالعين . قالوا وما كان فى الدين أمراهم من تعيين الامام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الامة ، فانه إذا بعث لرفع الخلاف ، وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الامة ، ويتركهم هملا يرى كل واحـد منهم رأيا ، ويسلك كل واحد منهم طريقاً ، لا يوافقه عليه غيره ، بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به ، والمعول عليه » (٢) ويستدلون على تعيين على رضى الله عنه بالذات ببعض آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم يدعون صدقها ، وصحة سندها ، من مثل «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.» ومثل « اقضاكم على » وغير ذلك من الآثار التى يدعون صحتها . ويشك علماء الحـديث فى صدقها . ويستدلون أيضاً باستنباطات من أمور كلف النبي عليا القيام بها، وكلف غيره أخرى فيستنبطون مثلا، من تكليف النبي علياً قراءة سورة براءة دون أبى بكر أنه أولى بالخلافة ويستنبطون من إرسال أبى بكر وعمر فى بعث اسامة مؤمرا عليهما بجدارة

(١) الملل والنحل للشهرستانى
(٢) الملل والنحل للشهرستانى

على بالخلافة دونهما، لانه ما أمر عليه قط . وهكذا استدلالاتهم

٢ ـ ولم يقتصروا على استحقاق على للخلافة دون سائر الصحابة : بل تعدوا ذلك إلى الحكم بتكفير جل الصحابة ورميهم بالظلم والعدوان ، فشطوا بذلك شططاً كثيرا ، وجاوزوا الحجة، وحادوا عن الصواب .

وقد اتفق الامامية على إمامة الحسن ثم الحسين بعد على ، واختلفوا بعد ذلك فى سوق الامامة ولم يثبتوا على رأى واحد، بل انقسموا فرقا عدها بعضهم نيفاً وسبعين وأعظمها فرقتان: الاثنا عشرية ، والاسماعيلية

أما الأولون فيرون أن الخلافة بعد الحسين لعلى زين العابدين، ثم لمحمد الباقر ابن زين العابدين ثم لجعفر الصادق بن الباقر . ثم لابنه موسى الكاظم ثم لعلى الرضا ثم لمحمد الجواد ثم لعلى الهادى ثم للحسن العسكرى ، ثم لمحمد ابنه وهو الامام الثانى عشر ، ويزعمون أنه دخل سردابا فى دار أبيه بسر من رأى ، وأمه تنظر اليه ، ولم يعد بعد ثم اختلفوا فى سنه فقيل كانت سنه إذ ذاك أربع سنوات ، وقيل ثمانى سنوات ، وكذلك اختلفوا فى حكمه، فقال بعضهم إنه كان فى هذه السن عالما بما يجب أن يعلمه الامام ، وأن طاعته كانت واجبة وقال آخرون كان الحكم لعلماء مذهبه، حتى بلغ فوجبت طاعته .

٥ — الاسماعيلية وهى طائفة من الشيعة الامامية انتسب إلى اسماعيل بن جعفر ، ويسمون أيضا الباطنية لقولهم بالامام الباطن ، ويسمون الملحدة لما فى مقالتهم من الالحاد ، إذ قد خلطت التشيع بمذاهب فاسدة مشتقة من الديانات القديمة ، ومن الفلسفة والاوهام ، وكلما امتد بهم الزمان زاد مذهبهم فسادا ، ولحق الناس من أعمالهم شر كبير .

تقول هذه الطائفة إن الامام بعد جعفر الصادق ابنه اسماعيل بنص من أبيه ، وفائدة النص وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الامامة فى عقبه ، ثم

انتقلت الامامة من اسماعيل إلى محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه محمد الحبيب، وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدى الذى ملك المغرب ، وملك بعده بنوه مصر ، وهم الفاطميون (١) .

وقد اضطهدت تلك الطائفة فى أول أمرها فيمن اضطهد، حتى فر معتنقوا مذهبها الى فارس ، وهناك خالط مذهبهم آراء الفرس القديمة وغيرها، وقام فيها رجال ذوو أهواء، يقضون لباناتهم باسم الدين فتولوا زعامتها . وأول ناشرى دعوتها رجل يقال ديصان ، أخذها عن عبد الله القداح، ونشرها فى بلاد فارس ثم بداله أن ينشرها فى قلب الدولة ، فجاء إلى البصرة ، ودعا الناس سرا وجذب اليه رجلا من وجهاء اليمن ، كان يزور مقابر آل البيت ، فاتفقا على بث الدعوة لآل البيت فى اليمن ، ونفذا ما دبرا . ثم أرسل القداح رجلين إلى المغرب لسهولة انقيادها للرعاة ، وقال لهما أحرثا الأرض حتى يأتى صاحب البذر. ثم سال سيل الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب ، حتى أخذ الفاطميون ملك الأغالبه فى أفريقية ثم اقتطفوا مصر من الخليفة العباسى على ما هو معلوم فى التاريخ .

جدل الشيعة

قد رأيت فيما أخبرتك عن هذه الفرقة ونحلها أن أولى مظهر يسودها أنها لا تعرف الاراء إلا من وراء الرجال . فقوام مذهبها تقديس الرجال وتقدير آرائهم من وراء ذلك التقديس، يزنون القول بقيمة قائله ، ولا يعرفون القائل من وراء مذهبه ، وقد استهوت كثرتهم محبة آل البيت محبة غالوا فيها، فأوردتهم موارد الهلكة ، وأوبأت عاقبتهم، وأفسدت مواهبهم ، وسدت

(١) مقدمة ابن خلدون

مسامع الادراك فى نفوسهم ، وأصبحوا حائرين بائرين، لا يدركون سدادا ، ولا يبغون رشادا ، وهم فى هذا يشبهون المريدين الذين استهوت نفوسهم عظمة رجل، فأصبحوا لا يفهمون الدين إلا من وارد فكرة ، والحق إلا إذا صدر عن ينبوعه ، وقد أغرم الشيعة بأئمتهم ، وجدوا فى الدعوة لهم سرا وإعلانا.

١ - وأول ما كانوا يتوجهون اليه فى دعوتهم وجدالهم أن يجيئوا إلى المسلم على براءته ، وصفاء نفسه من درن المذاهب ويذكروا له بالثناء آل البيت ويعطروا ألسنتهم بمدحهم ، وأى مسلم لا يهتز قلبه لآل الرسول . ولا يتقبل بقبول حسن عبيق ذكرهم ، وأريج مدحهم ، وهم سلالة النبى صلى الله عليه وسلم وعترته وعصبته وأقرباؤه الأطهار الأبرار ، فاذا استدنوا سامعهم بعطر الثناء ذكروا المظالم الواقعة بهم والمآثم التى ارتكبت فى جانبهم ، وأى امرىء لا يألم لظلم نازل بالأبرار. فإذا أحسوا من نفس سامعهم دنو قلبه من قلوبهم ، وفكره من أفكارهم ، هجموا عليه بترهاتهم وأباطيلهم وأهوائهم الفاسدة فمن عصمه الله نجا واكتفى بمحبة الطاهرين ، ومن كتب الله عليه الشقوة سقط فكان مع الآثمين .

٢ - ويعمدون فى تأييد ترهاتهم إلى كثرة التحديث عن الرسول فى فضائل آل البيت ، وقد حفظت لهم أحاديث كثيرة فى هذا الباب قد رد المحدثون أكثرها . ومن ذلك ما عزوه إلى النبى ﷺ أنه قال «أهل بيتى كسفينة نوح ، من ركبها نجا، ومن عدل عنها غرق » وما عزوه اليه عليه السلام أنه قال من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا، ومن مات على بعض آل محمد مات كافرا ، ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة. وما يعزونه الى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى

الله عنه: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى»

٣ — وإذا أعوزهم النص ، أو عدلوا عنه اتجهوا الى التأويل الفاسد البعيد الذى لا يعقله عقل خلا من الهوى، وبعد عن أدران الغرض ، من مثل تأويل بعضهم المحرمات بأنها أبو بكر وعمر ، وقد ذكر الشعبى تأويلات بعض الشيعة، ومثل بمثل جيد قال : ما شبهت تأويل الروافض فى القرآن إلا بتأويل رجل مضعوف من بنى مخزوم من أهل مكة ، وجدته قاعدا بفناء الكعبة فقال : ماعندك فى تأويل هذا البيت فأن بنى تميم يغلطون فيه ، ويزعمون أنه قيل فى رجل منهم ، وهو قول الشاعر .

بيتا زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

فقلت له وما عندك أنت فيه . قال البيت هو هذا البيت ، وأشار بيده الى الكعبة ، وزرارة الحجر زرر حول البيت فقلت له فمجاشع قال زمزم جشمت بالماء . قلت فأبو الفوارس . قال أبو قبيس جبل مكة . قلت فنهشل ففكر طويلا، ثم قال أصبته ، هو مصباح الكعبة (١)

وهذا المثل ينطبق على الغلاة منهم ، وأما المعتدلون فقد علمت أنهم أقرب إلى الحق ، وأدنى الى الرشاد .

٤ — وقد كانوا اذا أعجلت بهم الحجة ، وضعف لديهم الدليل ، وخشوا مجادلهم ، زعموا أنه لم يطق ما يعتقدون ، ولم يدرك فكره ما وصلوا اليه ، وما تعمقوا فيه ، جاء فى العقد الفريد «ثم قال الاعمش دخلت على المغيرة بن سعد ، (وقد كان رافضيا) فسألته عن فضائل على ، فقال إنك لا تحتملها . قلت : بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه ، فقال على خير منه ، ثم ذكر من

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه

هؤنه من الانبياء ، فقال على خير منهم ، حتى انتهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال على . مثله . فقلت كذبت عليه لعنك الله، وقال قد اعلمتك أنك لا يحتمله

ومنهم من كان يدعى أن للأشياء ظاهرا وباطنا ، وأن الباطن قد اختص به الأئمة ، ومن يفضون به اليه ، وهو فى كل الاحوال سر مكتوم عن الدهماء ، وأكثر الناس .

وفى الحق أن ذلك النحو من الدعوة والجدل لم يكن منهم جميعا ، بل كان فى الغلاة فقط . أما المعتدلون فقد كانت دعاويهم معتدلة وجدلهم يدل على إنصافهم فى الجملة، يعتمدون فى استدلالهم على أحاديث يقرها بعض محدثى الجماعة الاسلامية وعلى تأويلات لاشطط فيها، ولا تبعد عن العقل كثيرا ، وهم الذين ننقل عنهم بعض جدلهم وهاهوذا

نماذج من جدل الشيعة

١ ـ مناظرة للشيعة فى مجلس عمر بن عبد العزيز

روى ابن السكابى قال : « بينا عمر بن عبد العزيز جالس فى مجلسه ، دخل حاجبه ، ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة ، ورجلان متعلقان بها ، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر ، فدفعوا اليه الكتاب ففضه فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ميمون بن مهران . سلام عليك ورحمة الله وبركاته . أما بعد فانه وزد علينا أمر ضاقت به الصدور ، وعجزت عنه الأوساع ، وهربنا بأنفسنا عنه ووكلناه إلى عالمه لقول الله عز وجل « ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وهذه المرأة والرجلان ، أحدهما زوجها والآخر أبوها . وان أباها زعم أن زوجها حلف بطلاقها أن على بن

أبى طالب خير هـذه الأمة ، وأولاها برسول الله ﷺ وإنه يزعم أن ابنته طلقت منه، وإنه لا يجوز له فى دينه أن يتخذه صهرا ، وهو يعلم أنها حرام عليه كأمه ، وإن الزوج يقول كذبت ، لقد بر قسمى ، وصدقت مقالتى، وإنها امرأتى على رغم أنفك ، وغيظ قلبك ، فاجتمعوا إلى يختصمون فى ذلك . فسألت الرجل عن يمينه . فقال : نعم قد كان ذلك . وقد حلف بطلاقها أن عليا خير هذه الأمة ، وأولاها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفه من عرفه ، وأنكره من أنكره ، فليغضب من غضب ، وليرض من رضى ، وتسامع الناس بذلك ، فاجتمعوا له وإن كانت الألسنة مجتمعة ، فالقلوب شتى . وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس فى أهوائهم ، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة ، فأحجمنا عن الحكم لتحكم بما أراك الله ، وإنهما تعلقا بها . وأقسم أبوها ألا يدعها معه ، وأقسم زوجها ألا يفارقها ، ولو ضربت عنقه ، إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته ، والامتناع منه ، فرفعنا اليك يا أمير المؤمنين أحسن الله توفيقك وأرشدك » .

قال : فجمع عمر بن عبد العزيز بنى هاشم ، وبنى أمية ، وأفخاذ قريش ثم قال لأبى المرأة : ما تقول أيها الشيخ ؟ قال يا أمير المؤمنين هذا الرجل زوجته ابنتى ، وجهزتها اليه بأحسن ما يجهز به مثلها ، حتى إذا أملت خيره، ورجوت صلاحه حلف بطلاقها كاذبا ، ثم أراد الاقامة معها ، فقال له عمر لعله لم يطلق امرأته ، فكيف حلف ؟ قال الشيخ : سبحان الله، الذى حلف لأبين حنثا ، وأوضح كذبا من أن يختلج فى صدرى منه شك مع سن وعلم ، لأنه زعم أن عليا خير هذه الأمة، وإلا فامرأته طالق ثلاثا . فقال للزوج ما تقول ، أهكذا حلفت . قال : نعم. فقيل أنه لما قال نعم كاد المجلس يرتج بأهله ، وبنو أمية

ينظرون اليه شزرا ، إلا أنهم لم ينطقوا بشيء، كل ينظر الى وجه عمر ، فأكب عمر مليا ينكت الأرض بيده ، والقوم صامتون ينظرون ما يقوله ،ثم رفع رأسه ، وقال

اذا ولى الحكومة بين قوم * أصاب الحق ، والتمس السدادا

وما خير الأنام اذا تعدى * خلاف الحق، واجتنب الرشادا

ثم قال للقوم : ما تقولون فى يمين هذا الرجل ، فسكتوا . فقال . سبحان الله،قولوا . فقال رجل من بنى أمية . هذا حكم فى فرج ، ولسنا نجترىء على القول فيه ، وأنت عالم بالقول مؤتمن لهم وعليهم . قال قل ما عندك ، فان القول مالم يكن يحق باطلا ويبطل حقا جائز على فى مجلسى. قال لا أقول شيئا .فالتفت الى رجل من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، فقال له ما تقول فيما حلف به الرجل ياعقيلى ، فاغتنمها ، فقال يا أمير المؤمنين . ان جعلت قولى حكما ،وحكمى جائزا . قلت،وان لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لى . وأبقى للموده : قال . قل . وقولك حكم ، وحكمك ماض . فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا . ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين . اذ جعلت الحكم الى غيرنا ، ونحن من لحمتك وأولى رحمك . فقال عمر اسكتوا عجزا ولؤما ، عرضت ذلك عليكم آنفا ، فما انتدبتم له . قالوا : لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيلى ، ولا حكمتنا كما حكمته فقال عمر ان كان قد أصاب وأخطأتم ، وحزم وعجزتم ،وأبصر وعميتم فماذنب عمر لا أبالكم . أتدرون ما مثلكم قالوا لا ندرى . ثم قال ما تقول يا رجل قال نعم يا أمير المؤمنين . مثلهم كما قال الأول

دعيتم الى أمر فلما عجزتم تناوله من لا يداخله عجز

فلما رأيتم ذاك أبدت نفوسكم نداما . وهل يغنى من الحذر الحرز

فقال عمر : أحسنت وأصبت قل ما سألتك عنه، قال يا أمير المؤمنين برقسمه ولم تطلق امرأته. قال وأنى علمت ذاك ؟ قال نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألم تعلم أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام وهو عندها فى بيتها عائد لها يا بنية ما علتك ؟ قالت الوعك يا ابتاه وكان على غائبا فى بعض حوائج النبي ﷺ فقال لها أتشتهين شيئا ؟ قالت نعم أشتهى عنباً وأنا أعلم أنه عزيز وليس وقت عنب . فقال ﷺ ان الله قادر على أن يجيئنا به ثم قال اللهم أئتنا به مع أفضل أمتى عندك منزلة فطرق على الباب ودخل ومعه مكتل قد ألقى عليه طرف ردائه فقال له ﷺ ما هذا يا على ؟ قال عنب التمسته لفاطمة . فقال الله أكبر اللهم كما سررتنى بأن خصصت عليا بدعوتى فاجعل فيه شفاء بنيتى ثم قال كلى على اسم الله يا بنية، فأكلت وما خرج رسول الله ﷺ حتى استقلت وبرأت فقال عمر صدقت وبررت أشهد لقد سمعته ووعيته يا رجل، خذ بيد امرأتك فأن عرض لك ابوها فاهشم أنفه، ثم قال يا بنى عبد مناف، والله ما نجهل ما يعلم غيرنا ولا بنا عمى فى ديننا

وكتب الى ميمون بن مهران عليك السلام فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فقد فهمت كتابك ورد الرجلان والمرأة وقد صدق الله يمين الزوج وأبر قسمه، وأثبته على نكاحه ؛ فأستيقن ذلك واعمل به والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

مناظرة المأمون(١) فى تفضيل على

روى أن المأمون أرسل إلى أربعين عالما من علماء الأمة ، ولما استقربهم

---

(١) هذه المناظرة آثرنا نقلها فى هذا الموضع ، وان كان قيلت فى العصر

المجلس ، قال : إنما بعثت اليكم معشر القوم فى المناظرة ، فمن كان به شىء من الحبشين لم ينتفع بنفسه ، ولم يفقه مايقول ، فمن أراد منكم الخلاء فهناك ، وأشار بيده ، فدعوا له . ثم ألقى مسألة من الفقه ، فقال ياأبا محمد : قل ، وليقل القوم من بعدك ، فأجابه يحيى (١) ، ثم الذى يليه ، حتى أجاب آخرنا آخرنا فى العلة وعلة العلة ، وهو مطرق لا يتكلم ، حتى إذا انقطع الكلام ، التفت إلى يحيى ، فقال ياأبا محمد ، أصبت الجواب ، وتركت الصواب ، ثم لم يزل يرد على كل واحد منا مقالته ، ويخطىء بعضهم ويصوب بعضهم ، حتى أتى على آخرهم ثم قال : إنى لم أبعث اليكم لهذا ، ولكنى أحببت أن أبسط لكم . أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم فى مذهبه الذى هو عليه ، والذى يدين الله به . قلنا ، فليفعل أمير المؤمنين ، وفقه الله . فقال : إن أمير المؤمنين يدين الله ، على أن على بن أبى طالب خير خلفاء الله بعد رسوله ﷺ ، وأولى الناس بالخلافة له . قال اسحق (٢) : فقلت ياأمير المؤمنين . إن فينا من لا يعرف ماذكر أمير المؤمنين فى على ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة . فقال يا إسحق اختر ، ان شئت سألتك أسألك ، وان شئت أن تسأل فقل . قال اسحق فاغتنمتها منه فقلت : بل أسألك ياأمير المؤمنين . قال : سل ، قلت : من أين قال أمير المؤمنين ان على ابن أبى طالب أفضل الناس بعد رسول الله ، وأحقهم بالخلافة بعده . قال ، ياإسحق خبرنى عن الناس بم يتفاضلون ، حتى يقال فلان أفضل من فلان . قلت بالأعمال الصالحة . قال صدقت ، قال فأخبرنى عمن فضل صاحبه على عهد

العباسى ، لأنها تصور تفكير معتدلى الشيعة فى شأن على رضى الله عنه

(١) هو يحيى بن أكثم قاضى قضاة المأمون ، وكنيته أبو محمد

(٢) هو اسحق بن ابراهيم بن حماد بن زيد راوى هذه المناظرة

رسول الله ﷺ ، ثم ان المفضول عمل بعد وفاة رسول الله ﷺ بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول ﷺ ، أيلحق به ؟ فقال ياأبا اسحق لاتقل نعم ؛ فانك ان قلت نعم أوجدت لك فى دهرنا هذا من هو أكثر منه جهادا وحجا وصياما وصلاة وصدقة ، فقلت أجل يا أمير المؤمنين ، لا يلحق المفضول على عهد رسول ﷺ الفاضل أبدا . قال اسحق ، فانظر مارواه لك أصحابك ، ومن أخذت عنهم دينك ، وجعلتهم قدوتك من فضائل على ابن أبى طالب ، فقس عليها ما أتوك به من فضائل أبى بكر ، فان رأيت فضائل أبى بكر تشاكل فضائل على ، فقل انه أفضل منه ، لاوالله ، ولكن قس الى فضائله ماروى لك من فضائل أبى بكر وعمر فان وجدت لهما من الفضائل مالعلى وحده ، فقل انهما أفضل منه ، لاوالله ؛ ولكن قس الى فضائله فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ؛ فان وجدتها مثل فضائل على ، فقل انهم أفضل منه ، لاوالله ولكن قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، فان وجدتها تشاكل فضائله ؛ فقل انهم أفضل منه . قال ياإسحق أى الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله ﷺ قلت الاخلاص بالشهادة ؛ قال أليس السبق الى الاسلام . قلت نعم . قال اقرأ ذلك فى قوله تعالى « والسابقون السابقون أولئك المقربون » انما عنى من سبق الى الاسلام ، فهل علمت أحد سبق عليا الى الاسلام . قلت ياأمير المؤمنين ، ان عليا أسلم وهو حديث السن ، لايجوز عليه الحكم ، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم . قال أخبرنى أيهما أسلم قبل ؛ ثم أناظرك من بعده فى الحداثة والكمال . قلت على أسلم قبل أبى بكر على هذه الشريطة . فقال نعم ، فأخبرنى عن اسلام على حين أسلم ؛ لايخلو من أن يكو رسوله الله ﷺ دعاه الى الاسلام ، أويكون الهاما من الله . قال فأطرقت . فقال لى ياإسحق لاتقل الهاما فتقدمه على رسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله ﷺ لم

يعرف الأسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى . قلت أجل ؛ بل دعاه رسول الله الى الاسلام . قال يا اسحق فهل يخلو رسول الله من أن يكون دعاه بأمر الله،أو تكلف ذلك من نفسه . قال فأطرقت . فقال يا اسحق لا تنسب رسول الله الى التكلف ، فان الله يقول . « قل : وما أنا من المتكلفين » قلت أجل ، يا أمير المؤمنين ، بل دعاه بأمر الله . قال . فهل من صفة الجبار جل ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم . قلت أعوذ بالله . فقال افتراه في قياس قولك يا اسحق أن عليا أسلم صبياً ، لايجوز عليه الحكم ،وأنه قد كلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الصبيان مالا يطيقون ، فهل يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة ، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء ، ولا يجوز عليهم حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أترى هـذا جائزا عندك أن تنسبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت أعوذ بالله . قال : يا اسحق فأراك إنما قصدت لفضيلة أفضل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ، على هذا الخلق أبانه بها عليهم ، ليعرفوا فضله ، ولو كان الله أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا عليا . قلت بلى . قال فهل بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أحدا من الصبيان من أهله وقرابته ، لئلا تقول ان عليا ابن عمه . قلت لا أعلم ، ولا أدرى أنه فعل ، أو لم يفعل . قال ثم أى الاعمال كانت أفضل بعد السبق الى الاسلام ؟ قلت الجهاد في سبيل الله . قال : صدقت ، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجد لعلى في الجهاد ؟ قلت . في أى وقت ؟ قال . في أى الاوقات شئت ؟ قلت لاأريدغيرهاقالفهل تجد لأحد إلا دون ما تجد لعلى يوم بدر ، أخبرنى كم قتلى بدر ؟ . قلت .

نيف وستون رجلا من المشركين . قال فكم قتل على وحده .قلت . لا أدرى .
قال . ثلاثة وعشرين أو اثنين وعشرين ، والاربعون لسائر الناس . قلت .
يا أمير المؤمنين . كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عريشه .
قال يصنع ماذا ؟ قلت يدبر . قال : ويحك يدبر دون رسول الله ام معه شريكا
أم افتقارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رأيه ؛ أى الثلاث أحب
اليك ؟ قلت أعوذ بالله أن يدبر أبو بكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم
أو يكون معه شريكا ، وأن يكون برسول الله صلى الله عليه وسلم افتقار إلى
رأيه . قال فما الفضيلة فى العريش ؟ أليس من ضرب بسيفه بين يدى رسول
الله صلى الله عليه وسلم أفضل ممن هو جالس ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كل
الجيش كان مجاهدا . قال : صدقت ، كل مجاهد ؛ ولكن الضارب بالسيف
المحامى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الجالس أفضل من الجالس
أما قرأت كتاب الله . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر
والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين على القاعدين
درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »
قلت : وكان أبو بكر وعمر مجاهدين . قال : فهل كان لأبى بكر وعمر فضل
على من لم يشهد ذلك المشهد . قلت نعم . قال فكذلك سبق الباذل نفسه
فضل أبى بكر وعمر . قلت أجل ، وان لأبى بكر فضلا . قال أجل لولا أن له
فضلا ، ماقيل إن عليا أفضل منه ؛ فما فضله الذى قصدت له الساعة . قلت قول
الله عز وجل : «وثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله
معنا» . فنسبه الى صحبته . قال يا اسحق أما انى لأحملك على الوعر من
طريقك ، إنى وجدت الله تعالى ، نسب الى صحبة من رضيه . ورضى عنه ولو
كافرا ، وهو قوله « قال له صاحبه ، وهو يحاوره أ كفرت بالذى خلقك من

تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا ، لكن هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ، قلت إن ذلك صاحب كان كافرا وأبو بكر مؤمن . قال فاذا جاز أن ينسب الى صحبة من رضيه ، ورضى عنه كافرا ، جاز أن ينسب الى صحبة نبيه مؤمنا ، وليس بأفضل المؤمنين ، ولا الثانى ، ولا الثالث ، قلت يا أمير المؤمنين إن قدر الآية عظيم ، إن الله يقول : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . قال يا اسحق ، تأبى إلا أن اخرجك إلى الاستقصاء عليك ، أخبرنى عن حزن أبى بكر ، أ كان رضا أم سخطا . قلت إن أبا بكر إنما حزن من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا عليه وغما أن يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء من المكروه . قال ليس هذا جوابى ، إنما كان جوابى أن تقول رضى أم سخط . قلت بل كان رضا الله قال : فكأنه جل ذكره بعث الينا رسولا ينهى عن رضا الله عز وجل ، وعن طاعته . قلت : أعوذ بالله قال أو ليس قد زعمت أن حزن أبى بكر رضا الله قلت بلى قال : أولم تجد أن القرآن شهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحزن نهيا له عن الحزن . قلت أعوذ بالله . قال يا اسحق إن مذهبى الرفق بك ، لعل الله يردك الى الحق : ويعدل بك عن الباطل لكثرة ما تستعيذ به .. يا اسحق من أفضل أمن كان معه فى الغار أم من نام على فراشه ، ووقاه بنفسه ، حتى تم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماأراد من الهجرة . إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر عليا بالنوم على فراشه ، وأن يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى على رضى الله عنه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما يبكيك يا على أجزعا من الموت ؟ قال لا ، والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، ولكن خوفا عليك .

أفتسلم يارسول الله ؟ قال نعم . قال سمعا وطاعة ، وطيبة نفس بالفداء لك يارسول الله، ثم أتى مضجعه واضطجع . وتسجى بثوبه ، وجاء المشركون من قريش فحفوا به ، لايشكون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجل ضربة بالسيف ، لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطنا بدمه ؛ وعلى يسمع ما القوم فيه من اتلاف نفسه ولم يدعه ذلك الى الجزع كما جزع صاحبه فى الغار ، ولم يزل على صابرا محتسبا فبعث الله ملائكته ، فمنعته من مشركى قريش حتى أصبح . فلما أصبح قام فنظر القوم اليه، فقالوا: اين محمد ؟ قال، ماعلمى بمحمد أين هو . قالوا فلا نراك إلا مغرورا بنفسك منذ ليلتنا ، فلم يزل على على مثل ما بدأ به يزيد ولا ينقص ، حتى قبضه الله اليه ، يا اسحق أترى حديث أنت منى بمنزلة هرون من موسى قلت نعم يا أمير المؤمنين قد سمعته وسمعت من صححه . وجحده قال ، فمن أوثق عندك من سمعت منه فصححه أم من جحده . قلت : من صححه . قال . فهل يمكن أن يكون رسول ﷺ مزح بهذا القول قلت أعوذ بالله . قال : فقال قولا لا معنى له ؛ فلا يوقف عليه ؟ قلت أعوذ بالله . قال أفما تعلم أن هرون كان أخا موسى لابيه وأمه . قلت بلى قال : فعلى أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم لابيه وأمه ؟ قلت : لا . قال أو ليس هرون نبيا ؛ وعلى غير نبي ؟ قلت بلى : قال فهذان الحالان معدومان فى حق على ، فما معنى قوله أنت منى بمنزلة هرون من موسى . قلت له إنما أراد أن يطيب بذلك نفس على لما قال المنافقون ، إنه خلفه استثقالا له . قال فأراد أن يطيب نفسه بقول لا معنى له . قال فأطرقت . قال يا اسحق له معنى فى كتاب الله . قلت وماهو يا أمير المؤمنين قال قوله عز وجل حكاية

عن موسى أنه قال لأخيه هرون . « اخلفني في قومي ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين » . قلت يا أمير المؤمنين إن موسى خلف هرون في قومه وهو حي ، ومضى الى ربه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلف عليا كذلك حين خرج الى غزاته . قال كلا ، ليس كما قلت ، أخبرني عن موسى حين خلف هرون ، هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحد من أصحابه أو أحد من بني اسراءيل . قلت : لا . قال أو ليس استخلفه على جماعتهم . قلت : بلى . قال . فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزاته ، هل خلف إلا الضعفاء والنساء والصبيان فأنى يكون مثل ذلك ، وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه ، لا يقدر أحد أن يحتج فيه ، ولا أعلم أحد احتج به ، وأرجو أن يكون توفيقا من الله . قلت وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله : « واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أشدد به أزري ، وأشركه في أمري ؛ كي نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا » . فأنت مني يا علي بمنزلة هرون من موسى وزيري من أهلي وأخي ، شد الله به أزري ، وأشركه في أمري ، كي نسبح الله كثيرا ، ونذكره كثيرا ، فهل يقدر أحد أن يدخل في هذا شيئا غير هذا . ولم يكن ليبطل قول النبي صلى الله عليه وسلم . وأن يكون لا معنى له . فقال يحيى بن أكثم القاضي يا أمير المؤمنين . قد أوضحت الحق لمن أراد الله به الخير ، وأثبت ما لا يقدر أحد أن يدفعه . قال اسحق فأقبل علينا . وقال : ما تقولون ؟ فقلنا : كلنا يقول بقول أمير المؤمنين أعزه الله . فقال والله ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اقبلوا القول من الناس ، ما كنت لأقبل منكم القول . اللهم

قد نصحت لهم القول . اللهم انى قد أخرجت الأمر من عنقى . اللهم إنى أدينك بالتقرب اليك بحب على وولايته » اه من العقد الفريد لابن عبد ربه بحذف قليل



٢ - الخوارج

هم أشد الفرق الاسلامية دفاعا عن اعتقادهم ، وحماسة لأفكارهم ، وشدة في تدينهم ، واندفاعا وتهورا فيما يدعون اليه ، وما يفكرون فيه، وهم في اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها ، وظنوها دينا مقدساً . لا يحيد عنه مؤمن ، ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه إلى البهتان ، ودفعته الى العصيان . استرعت ألبابهم كلمة لا حكم إلا لله فاتخذوها دينا ينادون به في وجوه مخالفيهم ، ويقطعون به كل حديث . فكانوا كلما رأوا علياً يتكلم قذفوه بهذه الكلمة . وقد روى أنه رضى الله عنه قال في شأنهم عند ماقالوها وكرروا قولها . « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لاحكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ؛ وأنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الاجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر »

وقد استهوتهم فكرة البراءة من عثمان وعلى والحكام الظالمين حتى احتلت افهامهم ، واستولت على مداركهم استيلاء تاما ، وسدت عليهم كل طريق للوصول إلى الحق . فمن تبرأ من عثمان وعلى وطلحة والزبير والظالمين من بني أميه سلكوه في جمعهم وأضافوه الى عددهم ، وتسامحوا معه في مبادىء أخرى من مبادئهم وما كانت أشد أثرا ، والخلاف فيها يبعده عنهم أكثر من الخلاف في هذا التبرؤ . خرج ابن الزبير على الامويين فناصروه ووعدوه بالبقاء على نصرته والقتال في صفه . ولما علموا أنه لا يتبرأ من أبيه وطلحة

وعلى وعثمان نابذوه وفارقوه . ولما ناقش عمر بن عبد العزيز شوذبا الخارجى كان محز الخلاف ، ومفصل المناقشة هو التبرؤ من أهل بيتـه الظالمين ، مع اقرار الخوارج أنه خالفهم ومنع استمرار ظلمهم ، ورد إلى النـاس مظالمهم . ولكن استحوذت عليهم فكرة التبرؤ فكانت الحائل بينهم وبين الدخول فى غمار الجماعة الاسلامية

وإنهم ليشبهون فى استحواذ الالفاظ البراقة على نفوسهم واستيلائها على مداركهم اليعقوبيين الذين ارتـكبوا أقسى الفظائع ، وأشد الشنائع فى الثورة الفرنسية . فقد استولت على هؤلاء ألفاظ الحرية ، والمساواة ، والاخاء وباسمها قتلوا النـاس . وأهرقوا الدماء . وأولئك استولت عليهم ألفـاظ الايمان ، ولا حكم إلا لله ، والتبرؤ من الظالمين ، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وخضبوا البلاد الاسلامية بالدماء ، وشنوا الغـارة فى كل مكان ، ويظهر أن الحماسة التي امتازوا بهـا كانت هي الوحدة الجامعة بينهم وبين اليعقوبيين ، وماصدر عن الفريقين من أعمال متشابهة ، كان لهذه الحماسة وقوة العاطفة قال العلامة جوستاف لوبون فى وصف اليعقوبيين فى كتابه الثورة الفرنسية « وتوجد النفسية اليعقوبية خاصة عنـد ذوى الاخلاق المتحمسة الضيقة ، وتتضمن هـذه النفسية فكرا قاصرا عنيدا ، وكل شيء خارج عن الايمان بالفكرة غير مؤثر فيها ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من المناظر العاطفية يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . ولما كان بهذا لا يدرك من الامور إلا علائقها الظاهرية ، فانه يظن أن ما يتولد فى روحه من الصور الوهمية حقائق ، ويفوته ارتبـاط الحوادث بعضها ببعض ، وما ينشأ عن ذلك من النتائج ، لا يحول بصره عن خياله أبدا . إذن فاليعقوبى لا يفترق الاحلام

لتقدم منطقه العقلى ، إذ لا يملك منه إلا قليلا ، وإنما يسير مصتيقناً وعقله الضعيف يخدم اندفاعاته حيث يتردد ذو المدارك السامية فيقف ».

وإن هذا الوصف البديع لليعقوبيين هو وصف كامل صحيح لأكثر نواحي الخوارج النفسية . وسترى فيما يلى من الحوادث والمناقشات ما يؤيد ذلك ويثبت صحته .

ولم تكن الحماسة والتمسك بظواهر الالفاظ ، لم تكن هذه فقط هي الصفات الواضحة في الخوارج ؛ بل هناك صفات أخرى منها حب الفداء والرغبة في الموت ، والاستهداف للمخاطر من غير داع قوى يدفع إلى ذلك وربما كان منشأ ذلك هوساً عند بعضهم ، واضطرابا في أعصابهم ، لا مجرد الشجاعة والتمسك بالمذهب فقط . وإنهم ليشبهون في ذلك النصارى الذين كانوا تحت حكم العرب في الأندلس . فقد أصاب فريقاً منهم هوس جعلهم يقدمون على أسباب الموت وراء عصبية جامحة ، وفكرة فاسدة . واقرأ ما كتبه الكونت هنرى دى كاسترى في وصفهم فانك سترى وصفاً ينطبق في كثير من النواحي على الخوارج فقد قال : « أراد كل واحد (من هؤلاء النصارى) أن يذهب إلى مجلس القضاء ليسب محمداً ويموت ، فتقاطروا عليه أفواجا أفواجا ، حتى تعب الحجاب من ردهم . وكان القاضى يصم الآذان لهم كيلا يحكم عليهم بالاعدام . والمسلمون مشفقون على هؤلاء المساكين ويظنونهم من المجانين » ولقد كان من الخوارج من يقاطع علياً في خطبته بل من يقاطعه في صلاته ، ومن يتحدى المسلمين محتسباً الله في ذلك ظانا أنه قربة يتقرب بها اليه . ولما قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت وبقروا بطن جاريته قال لهم على : ادفعوا الينا قتلته ، قالوا كلنا قتله . فقاتلهم

على ، حتى كاد يبيدهم ، ولم يمنع ذلك بقيتهم من أن يسيروا في طريقتهم ، موغلين في الدعوة اليها والحماسة لها ، فبينهم وبين أولئك النصارى شبه قريب من هذه الناحية

وفى الحق إن الاخلاص للاسلام كان صفات كثير منهم ، وإن كان معه هوس بفكرة فيه ، والتأثر بناحيه واحدة من نواحيه ، يروى أن علياً رضى الله عنه أرسل اليهم ابن عباس يناقشهم « فلما صار اليهم رحبوا به وأكرموه فرأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كثفنات الابل ، عليهم قمص مرحضه »(١) فاخلاصهم لدينهم فى الجملة أمر لا موضع فيه لارتياب ، ولكنه اخلاصه قد غزاه ضلال لمهم الدين ، وادراك لبه ومرماه ، فالمسلم المخالف لهم لا عصمة لدمه ، بينما الذمى دمه معصوم ، قال أبو العباس المبرد فى الكامل « من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً ، فقتلوا المسلم ، وأوصوا بالنصرانى ، وقالوا احفظوا ذمة نبيكم . ولقيهم عبد الله بن خباب ، وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا إن الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك ... قالوا فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا . قالوا فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان فى ست سنين ، فأثنى خيرا ، قالوا فما تقول فى التحكيم ؟ قال : أقول إن عليا أعلم بكتاب الله منكم ، وأشد توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرة ، قالوا إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها ، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه ... وساموا رجلا نصرانياً بنخلة له ، فقال هى لكم ، فقالوا والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن . قال : ما أعجب هذا

(١) الكامل للمبرد ص ١٤٣ ج ٢

أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلوا منا جنى نخلة !

٢ـ ولماذا كان التعصب للفكرة ، والهوس لها والتشدد فيها مع الخشونة في الدفاع ، والتهور في الدعوة اليها وحمل الناس عليها بقوة السيف ، والعنف والقسوة بدرجة لا رفق فيها ، وبحال لا تتفق مع سماحة هذا الدين ؟ السبب في ذلك فيما أعتقد أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية ، وقليل منهم كان من عرب القرى ، وهؤلاء كانوا في فقر مدقع، وشدة وبلاء قبيل الاسلام ، ولما جاء الاسلام لم تزد حالتهم المادية حسناً ؛ لأن كثيرا منهم استمروا في باديتهم بلأوائها وشدتها وصعوبة الحياة فيها ، وأصاب الاسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكر وضيق في التصور ، وبعد عن العلوم ، فتكون من مجموع ذلك نفوس مؤمنة متعصبة لضيق نطاق العقول ، ومتهورة مندفعة وزاهدة ، لأنها لم تجد ، والنفس التي لا تجد إذا عمرها إيمان ، ومس وجدانها اعتقاد صحيح ، انصرفت عن الطموح إلى شهوات الدنيا ، وملاذ هذه الحياة ، واتجهت إلى الحياة الاخرى ، وإلى نعيمها والرغبة في التمتع بملاذها ، والابتعاد عما يؤدي إلى جحيمها وشقائها ، ولقد كانت معيشتهم دافعة لهم على الخشونة والقسوة والعنف ، إذ النفس صورة لما تألف وترى ، ولو أنهم عاشوا عيشة رافهة فاكهة بنوع من النعيم لألان ذلك من صلابتهم ، ورطب شدتهم ، ونهنه من حدتهم ، يروى أن زياد ابن أبيه بلغه « عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأي الخوارج فدعاه ، فولاه ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر ، وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيرا من لزوم الطاعة ، والتقلب بين أظهر الجماعة ، فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه ، فلم يخرج من حبسه حتى مات » أنظر إلى النعمة

كيف ألانت من طباعه، وهذبت من نفسه، وجعلته سمحاً رفيقاً بعد أن كان متعصباً عنيفاً .

٣ — ونحن إذ وصفنا الخوارج بالاخلاص في خروجهم على علي والأمويين من بعده، لا ننكر أن هناك غير العقيدة أموراً أخرى حفزتهم على الخروج من أعظمها وضوحاً، أنهم كانوا يحسدون قريشاً على استيلائهم على الخلافة، واستبدادهم بالأمر دون الناس . والدليل على ذلك أن أكثرهم من القبائل الربعية التي كانت بينها وبين القبائل المضرية الاحن الجاهلية . والعداوات القديمة التي خفف الاسلام من حدتها، ولم يذهب بكل قوتها، بل بقيت منها أثارة غير قليلة مستمكنة في القلوب، متغلغلة في النفوس . وقد تظهر في الآراء والمذاهب من حيث لا يشعر المعتنق للمذهب، الآخذ بالرأي وإن الانسان قد يسيطر على نفسه هوى يدفعه إلى فكرة معينة، ويخيل إليه أن الاخلاص رائده، والعقل وحده يهديه . وهذا أمر واضح في الأمور التي تجري في الحياة في كل ظواهرها . فلا نستطيع أن ننفي من كل فكرة اقترفتها ما يؤثر فيها . وإذا كان ذلك كذلك، فلا بد أن نتصور أن الخوارج وأكثرهم ربعيون رأوا الخلفاء قوماً مضريين، فنفروا من حكمهم، واتجه تفكيرهم إلى آراء في الخلافة تحت ظل ذلك النفور من حيث لا يشعرون، وظنوا أنه نصر الدين، وطلب اليقين، وأن لا دافع لهم إلا الاخلاص لدينهم، والتوجه لربهم، وبذلك تزين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً . وليس بمانع لدينا أن يكون الاخلاص في طلب الدين لا تشوبه شائبة، ولم يخالط نية أحد منهم من غرض أو عارض من نفسه هو الذي دفع بعضهم إلى الخروج، والله أعلم بما تخفي الصدور .

٤ — والخوارج كما رأيت أكثرهم من العرب، والموالي كانوا فيهم

عددا قليلا مع أن آراءهم فى الخلافة من شأنها أن تجعل للموالى الحق فى أن يكونوا خلفاء عندما تتوافر فى أحدهم شروطها ؛ إذ الخوارج لا يقصرون الخلافة على بيت من بيوت العرب ، ولا على قبيل من قبيلهم ؛ بل لا يقصرونها على جنس من الاجناس ، أو فريق من الناس . والسبب فى نفور الموالى عن مذهبهم أنهم كانوا ينفرون من الموالى ، ويتعصبون ضدهم . وقد روى ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية ، فقالوا لها فضحتنا .. وربما لو تركوا تلك العصبية لتبعهم كثيرون من الموالى . ومع أن الموالى فى الخوارج كانوا عددا قليلا نرى لهم أثرا فى بعض فرقهم . فاليزيدية (١) ادعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ بشرعه الشريعة المحمدية . والميمونية (٢) أباحوا نكاح بنات الاولاد وبنات الأخوة والأخوات (٣) وهذه كما ترى مبادىء كفر . واضح أنها تفكير فارسى ؛ إذ الفرس المجوس هم الذين يحنون الى نبى من فارس . وهم الذين يبيحون الأنكحة السابقة

٥ — من الكلام السابق عرفنا عقلية الخوارج ونفسيتهم وقبائلهم والحق أن آراءهم مظهر واضح لتفكيرهم وسذاجة عقولهم ونظراتهم السطحية ونقمتهم على قريش وكل القبائل المضرية

١ — وأول آرائهم ، وأحكمها وأسدها أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين ، لا فريق دون فريق ، ولا جمع دون جمع ، ويستمر خليفته مادام قائما بالعدل ، مقيما للشرع ، مبتعدا عن الخطأ

(١) اتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى
(٢) أتباع ميمون العجردى
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى

والزيغ ، فان حاد وجب عزله أو قتله .

ب ـ ولا يرون أن بيتاً من بيوت العرب اختص بأن يكون الخليفة فيه ؛ فليست الخلافة فى قريش كما يقول غيرهم ، وليست لعربى دون أعجمى ؛ والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشى ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع وحاد عن الحق ، وجانب الصواب ، إذ لا تكون له عصبية تحميه ، ولا عشيرة تؤويه ، ولا ظل غير ظل الله يستظل به ، وعلى هذا الأساس اختار أوائلهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وأمروه عليهم ، وسموه أمير المؤمنين ، وليس بقرشى ، وقد علمت حجة ذلك الرأى ، وما قيل فى شأن الحديث الصحيح : (الائمة فى قريش) فيما سبق . وكان ذلك المبدأ جديراً بأن يغرى جماهير المسلمين باعتناق مذهبهم ، ولكن ازدراءهم بالموالى واستباحتهم لدماء المسلمين ، وسبيهم للنساء والذرية ، وطعنهم فى إيمان على وكثير من آل البيت . كل هذا حال بينهم وبين قلوب الناس أن تصغى اليهم .

حـ ـ ولا ننسى أن نذكر هنا أن النجدات من الخوارج يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فان رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم على الحق فأقاموه جاز ، فاقامة الامام فى نظرهم ليست واجبة بإيجاب الشرع ، بل جائزة إن اقتضتها المصلحة ، ودعت اليها الحاجة ؛ وقد سبق الرد على هذا المذهب عند الكلام على الخلافة فارجع اليه .

د ـ ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب يرتكب عن قصد للسوء ، ونية للاثم ، وخطأ فى الرأى والاجتهاد يؤدى إلى مخالفة وجه الصواب ، ولذا كفروا علياً بالتحكيم ، مع أنه لم يقدم عليه مختارا ،

ولو سلم أنه اختاره فالأمر لا يعدو مجتهدا أخطأ ولم يصب إن كان التحكيم ليس من الصواب ، فلحاجتتهم في تكفيره رضى الله عنه دليل على أنهم يريدون الخطأ في الاجتهاد دينا يخرج عن الدين ، ويفسد اليقين ، وكذلك كان شأن طلحة والزبير وعثمان وغيرهم من علية الصحابة الذين خالفوهم في جزئية من الجزئيات ، فكفروهم للاجتهاد الخطأ في زعمهم .

وقد ساق ابن أبي الحديد أدلتهم التي تمسكوا بها في تكفير مرتكب الكبيرة ، ورد عليها ، ولا يهمنا وجه الرد ، وإنما يهمنا ذكر بعض هذه الأدلة لتعرف منها وجهات نظرهم ، وكيف كانوا يفكرون ، ولترى أن تفكيرهم كان سطحياً ، لا يتعمقون في بحث ، ولا يتقصون أطراف موضوع

وهذه الادلة كثيرة منها قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » فجعل تارك الحج كافرا وترك الحج كبيرة ، فكل مرتكب كبيرة كافر في زعمهم ومنها قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك الكافرون » وكل مرتكب للذنوب قد حكم بغير ما أنزل الله في زعمهم فهو كافر ، ومنها قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » قالوا والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم ، فوجب أن يكون ممن اسودت ، ووجب أن يسمى كافرا لقوله تعالى بما كنتم تكفرون . ومنها قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » والفاسق على وجهه غبرة ، فوجب أن يكون من الكفرة . ومنها قوله تعالى « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

أبيت الظالم جاحدا ، وهذه صفة الكفار (١)

وكل هذه الدلائل كما ترى ظواهر نصوص ، قد نظروا اليها نظرا سطحيا ولم يدركوا مراميها ولا أسرارها ، ولم يصيبوا هدفها . وكان على رضى الله عنه يحتج على من عاصروه منهم بالحجج الدامغة ، والأدلة القاطعة ، ومما قاله رادا عليهم « فان أبيتم أن تزعموا إلا أنى اخطأت ، وضللت ، فلم تضلون عامة أمة محمد ﷺ وآله بضلالى ، وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ، سيوفكم على عواتقكم تضعونها بمواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ وآله رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله وقتل القاتل ، وورث ميراثه أهله ، وقطع السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم ، قسم عليهما من الفىء ونكحا المسلمات . فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الاسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله» . وفى ذلك الكلام القيم رد مفحم لهم لا يمارون فيه ، ولا يستطيعون أن يثيروا حوله غبارا . ولعله رضى الله عنه عدل عن الاحتجاج بالكتاب الى الاحتجاج بالعمل الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن العمل لا يقبل تأويلا ، ولا يفهم إلا على الوجه الصحيح ، فلا يتسع لنظراتهم السطحية ، وتفكيرهم الذى لا يصيب إلا جانبا واحدا ، ولا يتجه إلا إلى اتجاه جزئى ، وفى الاتجاه الجزئى فى فهم العبارات والأساليب ضلال عن مقصدها ، وبعد عن مرماها ، وفى النظرة الكلية الشاملة الصواب ، وإدراك الحق من كل نواحيه ، فهو رضى الله عنه جادلهم بالعمل ، حتى يقطع عليهم كل تأويل ، ولكى يبين لهم

---

(١) ملخص من نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص٣٠٧و٣٠٨ وارجع الى الموضوع كاملا فيه .

وضح الحقيقة من غير أن يجعل لتلبيساتهم الفاسدة أى باب من أبواب الحيرة والاضطراب .

٦ ـ هذه جملة الآراء التى اعتنقها أكثرهم ، ولم يتفقوا فى غيرها على مذهب أو رأى أو نظر ، بل كانوا كثيرى الخلاف ، يشجر بينهم الخلاف لأصغر الامور وأقلها ، وربما كان هذا هو السر فى كثير من انهزاماتهم . وكان المهلب بن أبى صفرة الذى كان ترسا للجماعة الاسلامية منهم يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم وخضد شوكتهم والفل من حدتهم ، وإذا لم يجدهم مختلفين دفع اليهم من يثير الاختلاف بينهم . يحكى ابن أبى الحديد « أن حدادا من الأزارقة كان يعمل نصلا لا مسموعة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري بن الفجاءة قائد الخوارج . فقال له : ألق هذا الكتاب فى العسكر والدراهم ، واحذر على نفسك ففى الرجل وكان فى الكتاب : أما بعد ، فان نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت اليك بألف درهم فاقبضها ، وزدنا من النصال . فرفع الكتاب إلى قطرى فدعا الحداد ، فقال ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى . قال فما هذه الدراهم ؟ قال لا أعلم بها ، فأمر به فقتل . فجاء عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال : قتلت رجلا على غير ثقة وتبين ؟ قال قطرى : فما حال هذه الالف ؟ قال يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا . فقال قطرى : إن قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللامام أن يحكم بما يراه صالحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه فتنكر له عبد ربه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه وبلغ ذلك المهلب فدس اليهم رجلا نصرانيا جعل له جعلا يرغب فى مثله ،

وقال : له إذا رأيت قطريا فاسجد له . فاذا نهاك فقل إنما سجدت لك . ففعل ذلك النصراني ، فقال قطري : إنما السجود لله تعالى . فقال ما سجدت إلا لك . فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى . « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون » فقال قطري : إن النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فما ضر عيسى ذلك شيئا ، فقام رجل من الخوارج الى النصراني فقتله ، فأنكر قطري ذلك عليه وأنكر قوم من الخوارج إنكاره ، وبلغ المهلب ذلك ، فوجه اليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين لكم ، فمات أحدهما في الطريق ، وبلغ الآخر اليكم ، فامتحنتموه فلم يجز المحنة ما تقولون ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة وقال قوم آخرون : هما كافران حتى يجيزا المحنة . فكثر الاختلاف ، وخرج قطري إلى حدود اصطخر ، فاقام شهرا والقوم في خلافهم »(١) .

انظر كيف كان ذلك القائد العظيم يستغل حماستهم ، وشدة تعصب كل منهم لرأيه ، وسذاجة تفكيرهم ، وضعف مداركهم ، فيؤرث نيران العداوة بينهم ويؤجج لهيب الاختلاف ليكون بأسهم بينهم شديدا ، ويكونوا ضعفاء أمام عدوهم . وفي الحق إن مثارات الخلاف بينهم كانت كثيرة ، وكثيرا ما كانت من غير باذر لبذور الخلاف بينهم ، ولذلك انقسموا إلى فرق كثيرة ، ومن أجل أن نكون على بينة من جدلهم مع غيرهم ، وجدلهم فيما بينهم نتكلم كلمة عن أظهر فرقهم ورءوسهم ، وهم :

١ـ الازارقة : هم أتباع نافع بن الازرق الحنفي ، وكانوا أقوى الخوارج

(١) شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ٤٠١

شكيمة ، وأكثرهم عددا ، وأعزهم نفرا ، قاتلوا بقيادة نافع قواد الأمويين وابن الزبير تسعة عشر عاما ، ولما قتل نافع فى ميادين القتال جاء من بعده نافع بن عبيد الله ، ثم قطرى بن الفجاءة ، وفى عهده ضعف شأنهم ، بسبب بغض الناس لهم لشهرتهم بسفك الدماء ، وتألب المسلمين عليهم واختلافهم فيما بينهم ، فهزموا فى كل مكان ، ثم توالت انهزاماتهم من بعده الى أن انتهى أمرهم ، وقد ذهبوا الى المبادىء العامة التى ذكرناها للخوارج ، وزادوا عليها .

١ ـ أن مخالفيهم من عامة المسلمين ، ومن لا يرون رأيهم من الخوارج مشركون .

٢ ـ أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون فى النار

٣ ـ دار المخالفين دار حرب . ويجوز قتل أطفالهم ونسائهم وسبيهم

٤ ـ اسقاط حد الرجم عن الزانى ، إذ ليس فى القرآن ذكره ، واسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

٥ ـ جواز الكبائر والصغائر على الانبياء (١)

٢ النجدات . هم أتباع نجدة بن عويمر الحنفى ، وقد خالفوا الازارقة فى تكفير القعدة من الخوارج واستحلال قتل الاطفال (٢) وزادوا عليهم استحلال أهل العهد والذمة . وقد كانوا باليمامة وقد كانوا مع أبى طالوت الخارجى ثم بايعوا نجدة سنة ست وستين ، فعظم أمره وأمرهم حتى

(١) الملل والنحل للشهرستانى

(٢) وقد علمت مما مضى أن النجدات لا يرون إقامة إمام واجبا شرعيا ، ومما خالف فيه نجدة نافعا جواز التقيه فانه يجيزها ونافع يمنعها

استولى على البحرين ، وعمان ، وحضرموت ، واليمن والطائف ، ثم اختلفوا على نجدة لأمور نقموها عليه، منها أنه أرسل ابنه فى جيش فسبوا نساء وأكلوا من الغنيمة قبل القسمة ، فعذرهم. ومنها أنه تولى أصحاب الحدود من أصحابه وقال لعل الله تعالى يعفو عنهم ، وإن عذبهم ، ففى غير النار . ثم يدخلهم الجنة ومنها أنه أرسل جيشاً فى البحر ، وجيشاً فى البر ، ففضل الذين بعثهم فى البر فى العطاء .

وقد ترتب على اختلافهم عليه أن انقسموا إلى ثلاث فرق ، فرقة ذهبت الى سجستان مع عطية بن الأسود الحنفى ، وفرقة ثاروا مع أبى فديك على نجدة فقتلوه ، وفرقة عذرت نجدة فى أحداثه ، وهم الذين بقى لهم اسم النجدات . وقد بقى أبو فديك بعد نجدة إلى أن أرسل اليه عبد الملك بن مروان جيشا هزمه ، وبعث برأسه الى عبد الملك بن مروان ، فانتهى أمر هذه الطائفة .

٣ ـ الصفرية : أتباع زياد بن الاصفر . وهم فى آرائهم أقل تطرفا من الأزارقة . وأشد من غيرهم . قد خالفوا الأزارقة فى مرتكبى الكبائر ، فلم يتفقوا على اشراكه ، بل منهم من يرى أن الذنوب التى فيها الحد ، لا يتجاوز مرتكبوا الاسم الذى سماه الله به كالسارق والزانى ، وما ليس فيه حد فمرتكبه كافر . ومنهم من يقول إن صاحب الذنب لا يكفر حتى يحده الوالى

ومن الصفرية أبو بلال مرداس وكان رجلا صالحاً زاهداً . خرج فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة ، ولم يتعرض للناس ، وكان يأخذ من مال السلطان مايكفيه إن ظفر به، ولا يريد الحرب ، فأرسل إليه عبيد الله بن زياد جيشاً قضى عليه ، ومنهم عمران بن حطان ، وكان شاعرا زاهدا قد طوف فى

البلاد الاسلامية ، فارا شحلته ، وقد انتخبه هؤلاء الخوارج إماما لهم بعد أبي بلال .

٤ - العجاردة : هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد أحد أتباع عطية بن الأسود الحنفي ، وهم قريبون جدا من النجدات في أصل مقالتهم ، وجملة آرائهم أنهم يتولون القعدة من الخوارج إذا عرفوا بالديانة ، ويرون الهجرة فضلا لا فرضا ولا يكون مال المخالف فيئا إلا إذا قتل صاحبه .

وقد افترقت العجاردة فرقا كثيرة في أمور منها ما يتعلق بالقدر وقدرة العبد ، ومنها ما يتعلق بأطفال المخالفين ، وكان يدفعهم إلى الخلاف مسائل جزئية فينتهي الأمر إلى الكلام في قضايا عامة تصيرهم فرقا وأحزابا ، ومن أمثلة ذلك أن رجلا منهم اسمه شعيب كان مدينا لآخر اسمه ميمون فلما تقاضى هذا دينه ، قال شعيب : أعطيكه إن شاء الله . فقال ميمون : قد شاء الله ذلك الساعة فقال شعيب : لو كان قد شاء ذلك لم أستطع إلا أن أعطيكه . فقال ميمون : قد أمر الله بذلك ، وكل ما أمر به فقد شاءه ، ومن لم يشأ لم يأمر به . فافترقت العجاردة في ذلك إلى ميمونية وشعيبية ، وكتبوا إلى رئيسهم عبد الكريم . فقال : إنما نقول ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا نلحق بالله سوءا فادعى كل أن الجواب يؤيده .

ويروى أن عجرديا اسمه ثعلبة كانت له بنت فخطبها عجردي آخر وأرسل إلى أمها يسألها . هل بلغت البنت فإن كانت قد بلغت ، ورضيت الاسلام على الشرط الذي تعتبره العجاردة ، لم يبال كم كان مهرها . فقالت إنها مسلمة في الولاية سواء أبلغت أم لم تبلغ ، فرفع الأمر إلى عبد الكريم ، فاختار البراءة من الأطفال ، وخالفه ثعلبة ، وافترقت العجاردة على ذلك إلى ثعالبة وميمونية

٥ — الأباضية : هم أتباع عبدالله بن إباض ؛ وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الاسلامية تفكيرا ، فهم أبعد عن الشطط والغلو ، وأقرب إلى الاعتدال . وجملة آرائهم : —

(١) أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ، ولا مؤمنين ، ويسمونهم كفارا ويروى عنهم أنهم قالوا إنهم كفار نعمة .

(٢) دماء مخالفيهم حرام فى السر لا فى العلانية ، ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان .

(٣) لا يحل من غنائمهم فى الحرب إلا الخيل والسلاح ، وكل ما فيه قوة فى الحروب ، ويردون الذهب والفضة الى أصحابها .

(٤) تجوز شهادة المخالفين ، ومناكحتهم ، والتوارث معهم . ومن هذا يتبين اعتدالهم ، وقربهم من إنصاف المخالفين . ومن أجل ذلك بقوا إلى اليوم فى بعض جهات العالم الاسلامى .

خوارج لا يعدون من المسلمين : قام مذهب الخوارج على الغلو والتشدد فى فهم الدين ، فضلوا ، وأجهدوا أنفسهم والمسلمين بضلالهم ، ولكن المسلمين الصادقى الإيمان لم يحكموا بكفرهم ، وإن حكموا بضلالهم ؛ ولذا روى أن عليا رضى الله عنه أوصى أصحابه بألا يقاتل أحد الخوارج من بعده ، لأن من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فناله ؛ فعلى رضى الله عنه كان يعتبرهم طالبين للحق ، قد جانبوا طريقه ، ويعتبر الأمويين طالبين للباطل ؛ وقد نالوه ولكن نبت فى الخوارج فرق قد ذهبوا مذاهب ليس فى كتاب الله ما يؤيدها ، بل فيه ما يناقضها من غير أى تأويل ، وقد ذكر عبد القاهر الجرجانى فى كتابه الفرق بين الفرق طائفتين من الخوارج عدهما خارجتين عن الاسلام ، وهما : —

(١) اليزيدية أتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى ، وكان إباضيا ، ثم ادعى أنه

سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ الشريعة المحمدية وقد أشرنا الى ذلك فيما مضى .

ثانيتهما الميمونية : وهم أتباع ميمون العجردى الذى ذكر آنفاً فى مسألة الخلاف فى الدين . وقد أباح نكاح بنات الأولاد ، وبنات أولاد الاخوة ، والاخوات وقال فى علة ذلك أن القرآن لم يذكرهن فى المحرمات ، وروى عن هؤلاء الميمونية أنهم أنكروا سورة يوسف ، ولم يعدوها من القرآن ؛ لأنها قصة غرام فى زعمهم ، لايصح أن تضاف اليه ؛ فقبحهم الله لسوء مايعتقدون

جدل الخوارج

اتصف الخوارج بصفات كثيرة جعلتهم قوماخصمين ، يجادلون عن مذهبهم ويلتقطون الحجج من خصومهم، ويستمسكون بآرائهم ، لايتركون فيها ناحية فيها اضعاف لمناقشهم من غير أن يتجهوا إليها ، ولكن مع ذلك كانت فيهم منقبات أخرى لم يصلوا بسببها إلى أعلى درجات الجدال والخصام . وجملة منقباتهم الجدلية التى رفعت جدلهم ، والتى خفضتهم تتبين فيمايلى ، فقداتصفوا بالصفات الآتية

١ ـ بالفصاحة وطلاقة اللسان ، والعلم بطرق التأثير بالبيان ومخاطبة الوجدان وكانوا مع ذلك ثابتى الجنان ، رابطى الجأش، لايشدهون أمام قوة جدالهم، ولا تعروهم رهبة من أى موقف ، ولاتأخذهم حبسة فكرية تمنعهم من أى مذهب من مذاهب البيان« روى أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فبحثه فرأى منه ماشاء فهما وعلما، ثم بحثه فرأى ماشاء أرباودهيا، فرغب فيه واستدعاه الى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محققا ، فزاده فى الاستدعاء . فقال لتغنك الأولى

عن الثانية، وقدقلت فسمعت، فاسمع أقل . قال له قل . فجعل يبسط له من قول الخوارج ، ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم . ثم رجعت إلى ماثبت الله على من الحجة ، وقرر فى قلبى من الحق ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطنا الله فى الدنيا ، ومكن لنا فيها ، وأراك لست تجيب بالقول ، والله لأقتلنك إن لم تطع . وبينا هما فى الحديث إذ دخل على عبد الملك ابن له باكيا لضرب المؤدب إياه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى ، فقال له : دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه ، فاستدعى عبرتها . فأعجب ذلك عبد الملك ، فقال : أما يشغلك ما أنت فيه ، ويعرضه عن هذا ، فقال ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء . فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال يعتذر اليه : لولا أنه أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ماحبستك ، ثم قال : من شككنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى وكل رؤساء الخوارج ، وكثير من جموعهم على هذا الطراز من طلاقة اللسان ، وبلاغة البيان ، وقوة الجنان ، وثبات الجأش وقوة الايمان ، ولعل السر فى فصاحتهم ، وقوة جنانهم أن أكثرهم من العرب ، وقد امتازوا بالفصاحة والشجاعة وقوة النفس

٢ ـ وكانوا مع فصاحتهم وقوة جنانهم على علم فى الجملة بالكتاب والسنة وأشعار العرب ، وكان زعماؤهم معنيين بدراسة الكتاب وفقه الحديث وآثار العرب مع ذكاء شديد ، وعارضة قوية ، وحضور بديهة ، وكانوا ينتجعون فى طلب الدين إلى كل مجتمع ، ويطلبونه حيثما كان « يروى أن نافع بن

الأزرق شيخ الأزارقة « كان ينتجع عبد الله بن عباس ، فيسأله ... سأله مرة عن معنى قوله تعالى ، والليل وما وسق ، فقال ابن عباس ، وما جمع ، فقال أتعرف ذلك العرب ؟ قال أما سمعت قول الراجز (١)

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا .

وسأله مرة قائلا: أرأيت نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم مع ما خوله الله ، وأعطاه ، كيف عني بالهدهد على قلته وضئولته

فقال له ابن عباس . إنه احتاج إلى الماء، والهدهد قناء الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها . فسأل عنه لذلك . قال ابن الازرق : قف ياوقاف كيف يبصر ما تحت الأرض ، والفخ يغطى له بمقدار أصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ! فقال ابن عباس : ويحك يابن الأزرق ، أما علمت أنه إذا جاء القدر عشى البصر ... ويروى أنه مرة أخذ يسأله حتى أمله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن أبي ربيعة وهو يومئذ غلام فسلم وجلس . فقال ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك فأنشده القصيدة التي مطلعها

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

فقال ابن الأزرق : لله أنت ، يابن عباس ، أنضرب اليك أكباد الإبل ، نسأ لك عن الدين ، فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سفهاً فتسمعه ، قال تالله ما سمعت سفها (٢) » أنظر إلى زعمائهم كيف يطلبون علم ابن عباس مع أنه كافر في زعمهم ، مبطل في اعتقادهم ، ولكنه علم الكتاب هو الذي دفعهم لأن يجلسوا مجلس التلميذ من حبر هذه الأمة ، وإن زعموا فيه زيغا

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٢

(٢) ملخص من الكامل ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠

وخروجا ، وكأنهم يعتقدون أنه ممن أضلهم الله على علم، قبحهم الله .

٣ ــ وكانت فيهم رغبة شديدة للمناقشة والمجادلة ومساجلة الآراء والمذاهب حتى أنهم فى القتال كانوا يتواقفون احيانا كثيرة ، ويتناقشون مع مقاتليهم فى الأمور والولاة ، وينشدونهم بعض الاشعار . جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد « روى أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الاغانى الكبير ، قال : كانت الشراة والمسلمون فى حرب المهلب وقطرى يتواقفون ، ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكون ، لا يهيج بعضهم بعضا . فتواقف يوما عبيدة بن هلال اليشكرى ، وأبو حزابة التميمى ، فقال عبيدة : يا أبا حزابة ، إنى سائلك عن أشياء ، افتصدقنى عنها فى الجواب . قال : نعم إن ضمنت لى مثل ذلك قال قد فعلت ، قال فسل عما بدالك . قال : ماتقولون فى أئمتكم . قال : يبيحون الدم الحرام . قال ويحك فكيف فعلهم فى المال ؟ قال يجبونه من غير حله ، وينفقونه فى غير وجهه . قال : فكيف فعلهم فى اليتيم . قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقه ... قال : ويحك يا أبا حزابة أمثل هؤلاء تتبع ؟ .... » وروى أبو الفرج أيضا ، قال كان عبيدة إذا تكاف الناس ، ناداهم ليخرج الى بعضكم ، فيخرج اليه فتيان من عسكر المهلب ، فيقول لهم أيما أحب إليكم أقرأ عليكم القرآن ، أم أنشدكم الاشعار ؟ فيقولون له . أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، ولكن تنشدنا، فيقول يافسقة ، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ، ثم لايزال ينشدهم ، حتى يملوا ويفترقوا » (١)

ونرى من هذا أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم ، حتى كانوا

---

(١) المجلد الاول ص ٣٩٢ ، ٣٩٣

يتواقفون مع مقاتليهم ، ليجادلوهم ويساجلوهم الأفكار والمذاهب ، والأشعار .

٤ ـ وكان يسود التعصب لآرائهم جدلهم ، فهم لا يسلمون لخصومهم بحجة، ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قريبة من الحق ، أو واضحة الصواب ، بل لا تزيدهم حجة خصومهم ، إلا إمعانا فى اعتقادهم ، وبحثا عما يؤيده، والسبب فى ذلك استيلاء أفكارهم على نفوسهم ، وتغلغل مذاهبهم فى أعماق قلوبهم ، واستهواؤها لكل مواضع تفكيرهم وطرق إدراكهم، وكان فيهم مع ذلك لدد وشدة خصومة تمثل نزعتهم البدوية ، وروحهم العربية وحماستهم التى اشتهر بها العرب من قديم الزمان .

٥ ـ وقد دفعهم ذلك التعصب إلى أن يدركوا الحق من جانب واحد، ولا يدركوه من كل نواحيه ، وذلك لأن عصبيتهم الشديدة، وحدتهم وسيطرة المذهب عليهم ، جعلتهم لا ينظرون إلا تحت ضوئه ، ولا يدركون إلا تحت سلطانه ولا يعرفون إلا ما يدعو إليه ، وينصره . ولا تزيدهم حجج الخصوم الا عنادا وإصرارا . بل لقد دفعتهم رغبتهم فى نصرة مذهبهم إلى أن يخترعوا أحيانا أحاديث، وينسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى روى عن بعضهم أنه رجع عن مذهب الخوارج ، فدعا المسلمين لأن ينظروا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا الدليل كذبوا على النبى صلى الله عليه وسلم بحديث ، واحتجوا على الناس .

٦ ـ وكانوا فى جدلهم بالقرآن يتمسكون بظواهره ، ولا يحيطون علما بمراميه وغايته ، وكلما ذكرت لهم آية فهموها كما يبدو من لفظها ، ويظهر بادىء الرأى منها ، وربما كانت لا تنطبق بأى نوع من الانطباق على موضوعهم الذى يجادلون فيه ، أو كان الانطباق غير واضح أو مستقيم . يروى أن عبيدة

ابن هلال اليشكرى الذى ذكرناه آنفا اتهم بامرأة رجل حداد، رأوه مرارا يدخل منزله بغير إذنه، فأتوا قطريا، فذكروا له ذلك، فقال لهم إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم. فقالوا إنا لا نقاره على الفاحشة فقال: انصرفوا، ثم بعث الى عبيدة فأخبره. وقال إنا لا نقار على الفاحشة فقال بهتونى يا أمير المؤمنين، فما ترى؟ قال: إنى جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرىء، فجمع بينهم، فتكلموا فقام عبيدة فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم، الى آخر الآيات الكريمات» فلما سمعوها بكوا، وقاموا اليه واعتنقوه، وقالوا استغفر لنا (١) انظر كيف استولى عليهم بمجرد تلاوة القرآن، فأقروه وبرءوه من غير أن ينظروا: أهو افك رمى به فتنطبق عليه الاوصاف المذكورة فى الآيات الكريمة، أم حقيقة توجب الحد، والخروج عن حظيرة الايمان فى زعمهم، ولكنهم قوم تغلب عليهم العاطفة، ويغلب عليهم النظر السطحى لا يعدونه، ولذا أصدروا الحكم بالبراءة بعد الحكم بالفاحشة، وانتقلوا من النقيض الى النقيض

والقول الجلى: إن مجادلاتهم كانت يسودها الفصاحة، والتعصب عن غيرهم من المسلمين، والنظر الى ظواهر النصوص من غير تعمق فى مراميها، وسبر لأغوارها، وكانوا لا يدركون الحق الا من ناحية واحدة، ناحية مذهبهم

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦

نماذج من جدل الخوارج

١ – مناظرة عبد الله بن عباس وعلى رضى الله عنهم للخوارج

بعث على ابن عباس الى الخوارج . وقال لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج اليهم حتى أتاهم ، فاقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر ، حتى راجعهم فقال : مانقمتم من الحكمين ؛ وقد قال الله عز وجل « ان يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت الخوارج قلنا. أما ماجعل حكمه الى الناس ، وأمر بالنظر فيه والاصلاح له ، فهو اليهم كما أمر به وما حكم به فأمضاه : فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى مئة جلدة وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا . قال ابن عباس ، فان الله عز وجل ، « يقول يحكم به ذوا عدل منكم » فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين . فهذه الاية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ، ويسفك دماءنا فان كان عدلا فلسنا بعدول ، ونحن أهل حربه قد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك مادعوناهم الى كتاب الله عز وجل ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا ، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب ، منذ نزلت براءة ، وبعث على زيد بن النضر اليهم ، فقال انظر بأى رءوسهم هم أشدا طافة فنظر فاخبره أنه لم يرهم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس فخرج على فى الناس . ولما انتهى اليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، قال انته عن كلامهم ، ألم أنهك رحمك الله ، ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه ،

كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا. ثم قال لهم : من زعيمكم . قالوا ابن الكواء . قال على فما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم الى كتاب الله ، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا أصحاب دين ولا قرآن ؛ انى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال ، وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ؛ فانما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنا ومكيدة ، فرددتم على رأيى، وقلتم لا ، بل نقبل منهم . فقلت لكم اذكروا قولى لكم ومعصيتكم إياى ، فلما أبيتم إلا الكتاب شترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فان حكما بحكم القرآن . فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن . وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء . فقال إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن، إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال. قالوا فخبرنا عن الاجل ، لم جعلته بينك وبينهم . قال ليعلم الجاهل . ويتثبت العالم ، ولعل الله عزوجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الامة ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم

٢ ــ مجادلة على للخوارج قبل قتالهم

لما قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الارث أرسل اليهم على أن أسلموا قاتل عبد الله بن خباب، فارسلوا اليه إنا كلنا قتله ، ولئن ظفرنا بك قتلناك فاتاهم على فى جيشه ، وبرزوا اليه بجمعهم . فقال لهم قبل القتال ماذا نقمتم منى ؟ فقالوا أول مانقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ماوجدنا فى عسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟ فقال انما أبحت لكم

أموالهم بدلا مما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الاسلام في بحكم دار الاسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الاسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه ، فخجل القوم من هذا ، ثم قالوا له : نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين عن اسمك فى الكتاب بينك و بين معاوية لما نازعك معاوية فى ذلك فقال فعلت مثل مافعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال سهيل بن عمر لو علمت أنك رسول الله مانازعتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتب «هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمر»

وأخبرني رسول الله ﷺ أن لى منهم يوما مثل ذلك ، فكانت قصتى فى هؤلاء الابناء قصة رسول الله عليه السلام مع الآباء . فقالوا له : فلم قلت للحكمين فن كنت أهلا للخلافة فاثبتانى ، فان كنت فى شك من خلافتك فغيرك بالشك يليك أولى . فقال انما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكمين احكما لى الخلافة لم يرض بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران الى المباهلة ، وقال لهم : «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» ، فانصفهم بذلك من نفسه ولو قال ابتهل فاجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك ، لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسى ، ولم أدر غدر عمرو بن العاص قالوا : فلم حكمت الحكمين فى حق كان لك . فقال وجدت رسول الله ﷺ قد حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضا حكما لكن حكم رسول الله عليه السلام حكم بالعدل وحكمى خدع حتى كان من الأمر ما كان ، فهل عندكم شىء سوى هذا فسكت القوم ، وقال أكثرهم صدق والله وقالوا التوبة ، واستأمن اليه منهم ثمانية آلاف وبقى أربعة آلاف

٣ـ مكاتبة بين نافع بن الازرق

ونجـــدة بن عويمر

أرسل نجدة بن عويمر إلى نافع فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فان عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم وللضعيف كالأخ البر، لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ؛ كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك لولا أنى أعلم أن للامام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؛ فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق نصه ؛ وركبت مره تجرد لك الشيطان ؛ ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ، فغويت ، فأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصديق: «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله» ، ثم سماهم أحسن الاسماء فقال «ما على المحسنين من سبيل» ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال عز ذكره « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقال فى القعد خيرا وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدى الأمانة الى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدى الامانات الى أهلها ، فاتق الله ، وانظر لنفسك ، واتق يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فان الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل

وقوله الفصل والسلام . . .

فكتب اليه نافع : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظني فيه ، وتذكرني ، وتنصح لي ، وتزجرني ، وتصف ما كنت عليه من الحق وما كنت أوثره من الصواب. وأسأل الله جل وعز أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وعبت علي مادنت به من إكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، فسأفسر لك ذلك ان شاء الله: أما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لايجدون إلى الهرب سبيلا ، ولاالى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ماقال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، اذ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض ، فقيل لهم «ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ، وقال « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » وقال « وجاء المعذرون من الاعراب ، ليؤذن لهم » فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله . وقال « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم » فأنظر الى أسمائهم وسماتهم ، وأما أمر الأطفال فان نبي الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يانجدة مني منك فقال « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » فسماهم بالكفر ، وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ، ولا نقوله في قومنا ، والله يقول « أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة في الزبر » وهؤلاء كمشركي العرب لا تقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم الا السيف أو الاسلام ، وأما استحلال أمانات من خالفنا فان الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال

طلق، وأموالهم فىء للمسلمين ، فاتق الله ، وراجع نفسك ، فانه لا عذر لك الا بالتوبة ، ولن تسعك خذلاننا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا .

والسلام على من أقر بالحق وعمل به

٤ ـ مناظرة بين خارجى وعمر بن عبد العزيز .

فى السنة المكملة للمائة خرج شوذب على عمر بن عبد العزيز ، واسمه بسطام ، وهو من بنى يشكر ، فأرسل اليه عمر كتاباً جاء فيه « بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم الى أناظرك ، فأن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرك » فكتب : هذا الى عمر قد انصفت ، وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ، ويناظرانك وأرسل مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصم ، ورجلا بن بنى يشكر ، فقدما على عمر ، فقال لهما ما أخرجكما هذا المخرج ، وما الذى نقمتم ؟ فقال عاصم ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والاحسان ، فاخبرنا عن قيامك بهذا الامر ، أعن رضا الناس ومشورة ، أم ابتززتهم أمرهم . فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد الى رجل كان قبلى فقمت ولم ننكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل فان خالفت الحق ، ورغبت عنه ، فلا طاعة لى عليكم ، قالا : بيننا وبينك أمر واحد قال ما هو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم . فان كنت على هدى ، وهم على ضلالة فالعنهم ، وابرأ منهم . فقال عمر : فقد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم طريقها ، ان الله عز وجل لم يبعث رسول الله لعانا

وقال ابراهيم فمن تبعني فأنه مني ، ومن عصاني ، فأنك غفور رحيم . وقال الله عز وجل « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها ، فان قلتم إنها فريضة ، فاخبرني متى لعنت فرعون . قال ما أذكر متى لعنته . قال أفيسعك ألا تلعن فرعون ، وهو أخبث الخلق وأشرهم ، ولا يسعني ألا العن أهل بيتي ، وهم مصلون صائمون

قال : أما هم كفار بظلمهم . قال لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى الايمان ، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه ، فان أحدث حدثا أقيم عليه الحد . فقال الخارجي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى توحيد الله . والاقرار بما نزل من عنده . قال عمر ، فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم فابرأ مما خالف عملك ، ورد أحكامهم . قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر . اليسا على الحق . قالا بلى . قال أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم ، وسبى الذراري وأخذ الاموال ، قال بلى قال أتعلمون ان عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية . قالا نعم قال فهل برىء عمر من عمل أبي بكر قالا . لا قال افتبرءون انتم من واحد منهما . قالا لا . قال فأخبراني عن أهل النهروان ، وهم اسلافكم هل تعلمان أهل الكوفة خرجوا فكم يسفكوا دما . ولم يأخذوا مالا ، وان من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل . قالا نعم قال فهل برىء هو قالا نعم . قال فهل برىء من لم يقتل ممن قتل قالا : لا . قال افتبرءون انتم من احدى الطائفتين ؟ قالا : لا . قال افيسعكم إن تتولوا ابا بكر وعمر وأهل البصرة . وأهل الكوفة . وقد علمتم اختلاف

أعمالهم، ولا يسعني الا البراءه من أهل بيتي، والدين واحد، فاتقوا الله، فانكم جهال؛ تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتردون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من امن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله. وكان من فعل ذلك عند رسول أمنه وحقن دمه، وماله، وأنتم تقتلونه. ويأمن عندكم سائر أهل الاديان، فتحرمون دماءهم وأموالهم. فقال اليشكري أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم، فعدل فيها، ثم صيرها بعده الى رجل غير مأمون. اتراه ادى الحق الذى يلزمه لله عز وجل، او تراه قد سلم، قال عمر لا. قال افتسلم هذا الامر الى يزيد من بعدك، وانت تعرف انه لا يقوم فيه بالحق قال انما ولاه غيرى، والمسلمون اولى بما يكون منهم فيه بعدى. قال افترى ذلك من صنع من ولاه حقا، فبكى عمر، وقال انظر انى ثلاثا فخرجا من عنده ثم عاد اليه. فقال عاصم اشهد انك على حق. فقال عمر لليشكرى ماتقول انت؟ قال ما احسن ما وصفت، ولكنى لا افتات على المسلمين بامر، اعرض عليهم واعلم حجتهم اه

المرجئة (١)

١ — ابتدأت هذه الفرقة سياسية . ولكنها اخذت تخلط بالسياسة اصول الدين ، وكونوا لهم رأيا سلبياً فى الأمر الذي شغل الأفكار الاسلامية فى العصر ؛ وهو مسألة مرتكب الكبيرة التى أثارها الخوارج والشيعة ، وأهل الاعتزال ، ولنشأتها السياسية عددنا فى الفرق السياسية .

والبذرة الأولى التى نبت منها نبت هذه الفرقة كانت فى عصر الصحابة فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه ، فان القالة فى حكم عثمان وعماله لما شاعت ، وذاعت ، وملأت البقاع الأسلامية ، ثم انتهت بقتله — اعتصمت طائفة من الصحابة بالصمت العميق ، وتحصنت بلامتناع عن الاشتراك فى تلك الفتن التى مرج المسلمون فيها مرجا شديدا ، وتمسكوا بحديث أبى بكرة عن النبى ﷺ إذ قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من

(١) الارجاء على معنيين : احداهما التأخير مثل قالوا ارجه واخاه أى أمهله وأخره . والثانى اعطاء الرجاء . اما اطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ؛ لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والقصد . وأما بالمعنى الثانى فظاهر ، فأنهم كانوا يقولون . لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وقيل الارجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يحكم عليه بحكم ما فى الدنيا ، من كونه من أهل الجنة ، أو من أهل النار ، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان وقيل : المرجئة تأخير على رضى الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة . فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان (الملل والنحل للشهرستانى) .

الساعى ، ألا فاذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه. فقال رجل: يارسول الله من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد الى سيفه ، فيدق على حده بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاء » وامتنعوا عن الخوض فى الحروب التى وقعت بين المسلمين ، ولم يعنوا أنفسهم بالبحث عن الحق فى الطائفتين المتقاتلتين ومن هؤلاء سعد بن أبى وقاص، وأبى بكرة راوى الحديث السابق ، وعبد الله ابن عمران بن الحصين وغيرهم ، وبهذا أرجئوا الحكم فى أى الطائفتين أحق وفوضوا أمورهم الى الله سبحانه وتعالى ، وقد قال النووى فى قضايا هذه الفتن ومسائلها : « إن القضايا كانت بين الصحابة مشتبهة ، حتى ان جماعة من الصحابة تحيروا فيها ، فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب » ، وقال ابن عساكر فى هذا المقام وفى بيان أصحاب هذه الفرقة : « انهم هم الشكاك الذين شكوا ، وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان ، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ، ليس بينهم اختلاف ، فقالوا تركناكم ، وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف . وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول : قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول : كان على أولى بالحق وأصحابه . كلهم ثقة ، وعندنا مصدق . فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما . ونرجىء أمرهما إلى الله . حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما» .

٢ ــ ولما تكونت الفرق الاسلامية ، فأعلن الشيعة الافراط الشديد فى التعصب لآل البيت ، والمغالاة فى ذلك حتى تهجموا على الثلة من الصحابة . وكفروا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذ فرضوا بينهم وبين على من العداوات مالا يتصور إلا فى أخيلتهم الفاسدة ، وأوهامهم الكاذبة . والخوارج كفروا جماهير المسلمين ، وأعلنوا نحلة جديدة لم يكن للمسلمين بها علم من قبل ،

وهى تكفير كل مذنب ، ومن وراء الجميع الدولة الأموية تزعم أن المسلمين هم الذين انضووا تحت لوائهم ، وخضعوا طائعين أو كارهين لسلطانهم . وقبلوا راضين أو غير راضين حكمهم ، ومن عداهم جانف بنفسه عن الملة ، وبعد عن الدين .

لما حدث ذلك الانقسام ، امتنع المرجئون عن مناصرة فريق ، وأرجئوا الحكم فى أمرهم ، وفوضوه إلى الله علام الغيوب . فلم يريدوا أن يخوضوا فى حديث سياسى ، وامتنعوا حتى عن ذكر الأمويين بسوء ، وقالوا فيهم : إنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفارا ولا مشركين ، بل مسلمين نرجىء أمرهم إلى الله الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها .

٣ ـ ولما كثر البحث فى أمر مرتكب الكبيرة ، وادعى الخوارج كفره وشنوا الغارة على كل المسلمين ، وأقاموا حربا شعواء على جماهيرهم ، وكانوا شوكة حادة فى جنب حكامهم ، فوض المسلمون الأمر فى مرتكب الكبيرة وأرجئوا الحكم على مرتكبها كما أرجئوا الحكم فى غيره ، ثم خلف من بعد هؤلاء خلف ، نحله المخالفون اسم المرجئة ، ولم يكن موقف هذا الخلف بالنسبة لمرتكب الكبيرة موقفاً سلبياً كالأول ، بل حكم بأن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، فالايمان منفصل عن العمل ، ومنهم من غالى وتطرف ، فزعم « أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان ، أولزم اليهودية والنصرانية فى دار الاسلام وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الاسلام ومات على ذلك . فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل وهو ولى لله عز وجل ومن أهل الجنة »(١)

بل إن بعضهم « زعم أنه لو قال قائل : أعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير

---

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

ولا أدرى هل الخنزير الذى حرمه هذه الشاة أم غيرها كان مؤمنا . ولو قال أعلم أنه قد فرض الحج إلى الكعبة غير أنى لا أدرى أين الكعبة، ولعلها بالهند كان مؤمنا . ومقصوده أن أمثال هـذه الاعتقادات أمور وراء الايمان لا أنه شاك فى هذه الأمور ، فأن عاقلا لا يستجيز من عقله أن يشك فى أن الكعبة إلى أية جهة هى ، وأن الفرق بين الخنزير والشاه ظاهر »(١)

ووجـد فى ذلك المذهب المستهين بحقائق الأيمان وأعمال الطاعات كل مفسد مستهتر ما يرضى نهمته، فأعلنه له نحلة ، واتخذه له طريقا ومذهبا، حتى لقد كثر المفسدون، واتخذوه ذريعـة لمآثمهم ومبررا لمفاسدهم وساترا لأغراضهم الفاسدة ، ونياتهم الخبيثة ، وصادف هوى فى أكثر المفسدين الغـاوين ، ومما يحكيه أبو الفرج الاصفهانى فى هذا المقام ما يروى من أن شيعيا ومرجئيا اختصما فجعلا الحكم بينهما أول من يلقاهما، فلقيهما أحد الأباحيين المستهترين فقالا له أيهما خير الشيعى أم المرجى فقال ألا إن اعلاى شيعى وأسفلى مرجىء

٤ ــ وعلى هذا نستطيع أن نقول: ان كلمة المرجئة كانت تطلق على طائفتين إحداهما متوقفة فى حكم الخلاف الذى وقع بين الصحابة والخلاف الذى كان فى العصر الذى ولى عصر الصحابة وهو العصر الأموى . والثانية الطائفة التى ترى أن الله يعفو عن كل الذنوب ماعدا الكفر فلا يضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وقد وجد فى هذا المذهب الفساق الباب مفتوحا لمساويهم ولذا قال فى هذا القبيل زيد بن على بن الحسين « أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله» وقد جعلت هذه الطائفة اسم المرجئة من الشنائع التى كانت تسب بها الفرق

٥ ــ ولقد كان المعتزلة يطلقون اسم المرجئة على كل من لا يرى أن صاحب الكبيرة ليس

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى

مخلدا فى النار، بل يعذب بقدار، وقد يعفو الله عنه، ولذا أطلق على أبى حنيفة وصاحبيه رضى الله عنهم مرجئة بهذا الاعتبار. ولقد قال فى هذا المقام الشهرستانى فى الملل والنحل « ولعمرى لقد كان يقال لأبى حنيفة وأصحابه مرجئة السنة، وعده كثير من أصحاب المقالات من جملة المرجئة . ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول الايمان التصديق بالقلب، وهو لا يزيد ولا ينقص ظنوا أنه يؤخر العمل عن الايمان . والرجل مع تحرجه فى العمل كيف يفتى بترك العمل . وله وجه آخر، وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا فى الصدر الاول . والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم فى القدر مرجئا وكذلك الخوارج ؛ فلا بد أن اللقب إنما لزمه من فريقى المعتزلة والخوارج »

وقد عد من المرجئة على هذا النحو عدد كبير غير أبى حنيفة وأصحابه منهم الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب، وسعيد بن جبير، وطلق بن حبيب، وعمرو ابن مرة، ومحارب بن دثار، ومقاتل بن سليمان، وحماد بن أبى سليمان، وقديد بن جعفر وهؤلاء كلهم أئمة الحديث لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة، ولم يحكموا بتخليدهم فى النار

٦ — هذا وقد كانت تعقد مجالس للمناظرة بين المرجئة وغيرهم، وخصوصاً الخوارج وقد جاء فى الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى أن ثابت بن قطنه قد جالس قوما من الشراة وقوما من المرجئة كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان ، فمال إلى قول المرجئة وأحبه ، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدة قالها فى الارجاء وهى .

يا هند إنى اظن العيش قد نفدا ولا أدرى الأمر إلا مدبرا نكدا
انى رهينة يوم لست سابقه إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا
بايعت ربى بيعا ان وفيت به جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا

يا هند فاستمعي لي . ان سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا

نرجي الأمور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا

المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون استووا في دينهم قددا

ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

لا نسفك الدم الا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جددا

من يتق الله في الدنيا فإن له أجر التقي إذا وفى الحساب غدا

وما قضى الله من أمر فليس له رد وما يقض من شيء يكن رشدا

كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا

أما علي وعثمان فإنهما عبدان لله لم يشركا بالله مذ عبدا

وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا

يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ولست أدري بحق أية وردا

الله أعلم ما ذا يحضر الله به وكل عبد سيلقى الله منفردا

الفرق الدينية

علمت كيف كان اختلاف الفرق السياسية ، وكيف كان جدلها فى الجملة ، وكيف ابتدأت سياسية ثم تناولت بحوثها ونظرياتها بحوثا دينية بحتة ، ومنهم من غلبت عليه النظريات الدينية آخر الأمر كالمرجئة . والآن نتكلم عن فرق ابتدأت دينية ، واستمرت دينية . ما خالطها من البحوث السياسية كان تحت سيطرة الفكرة الدينية ، وبطريق النظر العرضى لا الجوهري . ونختار من هذه الفرق ثلاثا نتكلم عنها بكلمات موجزة هي القدرية والجبرية الجهمية ، والمعتزلة . ونعقب الكلام فى كل فرقة بصور من جدلها لنكون على بينة من أمرها

ا - الجبرية

خاض المسلمون فى حديث القدر ، وقدرة الانسان بجوار إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته - فى عهد الصحابة رضى الله عنهم . ولكن سيادة السليقة العربية والنفس القريبة من الفطرة ، جعلتهم لا يتعمقون فى بحث هذه المسائل ولا يغوصون إلى أعماقها ، ولا يتغلغلون فى بحوثها ، ويسيرون فى طريق مذهبي يسيطر عليهم . أما بعد عهدهم ، وانقراض أكثرهم واختلاط المسلمين بأصحاب الديانات القديمة وأهل الملل والنحل ، وكثرة المذاهب والفرق . فقد استفاض قولهم ، واتسعت بحوثهم ، وسلكوا مسالك أصحاب الديانات القديمة فى بحث هذه المسائل .

ففريق منهم وهم الذين نحن بصدد بيانهم زعموا ان الانسان لا يخلق أفعاله ، وليس له مما ينسب اليه من الافعال شىء ، فقوام هذا المذهب ، لا نفى

الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ... اذا العبد لا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لاقدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات . وتنسب اليه الأفعال مجازا كما تنسب الى الجمادات ، وكما يقال أثمرت الشجرة ، أو جرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، وازدهرت الارض ، وأنبتت .. الى غير ذلك . والثواب والعقاب جبر .. واذا أثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبرا »(١)

وقد قال ابن حزم فى بيان وجهة نظر أهل الجبر فى زعمهم « احتجوا فقالوا لما كان الله تعالى فعالا ، لايشبهه شيء من خلقه ، وجب ألا يكون أحد فعالا غيره ، وقالوا أيضا معنى اضافة الفعل الى الانسان انما هو كما تقول : مات زيد وإنما أماته الله . وقام البناء وانما أقامه الله تعالى »

٢ — وقد خاض المؤرخون فى بيان أول من تكلم نطق بهذه النحلة ، وأكثروا . وأعتقد أن النحلة التى تصير مذهبا من الصعب تعرف أول من نطق بها ، ولذا يصعب أن نعين اولا لهذه الفكرة ، وان نذكر مبدأ لقولها . ولكننا نجزم بأن القول بالجبر شاع فى اول العصر الأموى وكثر حتى صار مذهبا فى آخره ، وبين ايدينا رسالتان لعالمين جليلين عاشا فى اول العصر الاموى ذكرهما المرتضى فى كتاب الامنية والأمل احداهما لعبد الله بن عباس يخاطب بها جبرية اهل الشام وينهاهم عن القول بالجبر فيقول فيها « اما بعد أتأمرون الناس بالتقوى ، وبكم ضل المتقون ، وتنهون الناس عن المعاصى ، وبكم ظهر العاصون ، يا أبناء سلف المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وعمار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مفتر على الله ، يحمل إجرامه

(١) الملل والنحل للشهرستانى

عليه وينسبها علانية اليه وهل منكم إلا من السيف قلادته، والزور على الله شهادته، أعلى هذا توالينم، أم عليه تمالأتم . حظكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأكبر عمدتم الى موالاة من لم يدع لله مالا إلا أخذه ، ولا منارا إلا هدمه ، ولا مالا ليتيم إلا سرقه أو خانه، وأوجبتم لأخبث خلق الله أعظم حق الله ، وتخاذلتم عن أهل الحق، حتى ذلوا وقلوا ، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا ، فأنيبوا إلى الله وتوبوا ؛ أتاب الله على من تاب ، وقبل من أناب » وفى هذه الرسالة نصريح بتقبيح فكرتهم الجبرية . إذ يقول « هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه، وينسبها علانية اليه »

ثانيتها — رسالة الحسن بن على إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر . فهو يقول فيها : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد كفر . إن الله لا يطاع استكراها ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه . فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا . فاذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب . ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزا فى القدرة ، ولكن له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم • فان عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم » وفى هذا تصريح واضح بالجبر

وروى عن على بن عبد الله بن عباس انه قال : « كنت جالسا عند أبى اذ جاء رجل فقال : يا ابن عباس إن هاهنا قوما يزعمون أنهم أتوا ما أتوا من قبل الله وأن الله أجبرهم على المعاصى • فقال لو أعلم أن هاهنا منهم أحد لقبضت على حلقه فعصرته، حتى تذهب روحه عنه لا تقولوا : أجبر الله على المعاصى، ولا

تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه فتجهلوه »(١)

٣ـ وقد علمت إن فكرة الجبر نشأت فى عصر الصحابة، بل فى عصر النبى ﷺ وانما الذى امتاز به هـذا العصر أنها صارت فيه نحلة ومذهبا له أنصار يدعون اليه ويدارسونه، ويبينونه للناس، وقالوا إن أول من قام بذلك بعض اليهود، فقد علموه بعض المسلمين، وهؤلاء أخذوا ينشرونه، ويقال ان أول من فعل ذلك الجعد بن درهم، وقد تلقاه عن يهودى بالشام، ونشره بين الناس بالبصرة ثم تلقاه عنه جهم بن صفوان جاء فى كتاب سرح العيون فى الكلام على الجعد ابن درهم « تعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب اليه الجهمية(٢)، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن إبان بن سمعان وأخذه ابان عن طالوت بن أعصم اليهودى » ونرى من هذا أن تلك النحلة ابتدأت يهودية وابتدأت فى عصر الصحابة، لأن طالوت هذا كان معاصرا للنبى ﷺ وبقى الى عصر الصحابة. ولكن مع ذلك لانستطيع أن نقول: ان تلك النحلة كانت بذرا يهوديا خالصا لأن الفرس (٣) كانت تجرى بينهم هذه الافكار من قبل، فكانت من البحوث التى طرقها الزرادشتية والمانوية وغيرهم لم يترعرع ذلك المذهب الا فى خراسان فان جهما زعيم هذه الفرقة التى انتحلت اسمه ونسبت اليه لم يجد أرضا صالحة لدعوته الا فى خراسان وما حولها فهذه الفرقة فارسية يهودية فى هذه النحلة

(١) المنية والأمل.

(٢) هم القائلون بالجبر على ماتقدم.

(٣) جاء فى كتاب المنية والأمل « عن الحسن أن رجلا من فارس جاء الى النبى ﷺ وقال رأيتهم ينكحون بناتهم وأخواتهم، فان قيل لم تفعلون قالوا قضاء الله وقدره فقال ﷺ سيكون فى أمتى من يقولون مثل ذلك أولئك مجوس أمتى ».

وليست من العرب فى شىء .

٤ وقد نسب أهل الجبر الى الجهم(١) بن صفوان لانه أكبر دعاته وأعظم أنصاره ، وقد كان مع دعوته الى الجبر يدعو الى آراء أخرى منها (١) زعمه أن الجنة والنار تفنيان ، وأن لا شىء يخالد ، والخلود المذكور فى القرآن هو طول المكث وبعده الفناء ، لا مطلق البقاء (٢) وزعمه أن الايمان هو المعرفة فقط ، وأن الكفر هو الجهل (٣) وزعمه بأن علم الله وكلامه حادثان (٤) ولم يصف الله بأنه شىء أو حى أو عليم ، وقال لا أصفه بوصف يجوز اطلاقه على الحوادث وقد نفى رؤية الله وقال بخلق القرآن بناء على زعمه من ان كلام الله حادث لا قديم . وقد تبعه كثيرون فى هذه الآراء غير ان النحلة التى بانوا بها وشهرتهم وصارت خاصة بهم ، هى القول بالجبر وإن الانسان لا إرادة له ولا فعل ، وقد تقدم السلف والخلف للرد عليهم ، واثبات بطلان مذهبهم ، وقد ذكرنا لك بعضاً مما جرى على ألسنة السلف كعبدالله بن عباس والحسن بن على ، وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وغيرهم ، وقد دونت الكتب المجادلات الكثيرة فى الرد عليهم والآن نقبس جزءا من مناظرة طويلة جرت بين سنى وجبرى حكاها ابن القيم فى كتابه شفاء العليل ، لتعرف منها كيف كانت المجادلات تجرى فى كل العصور حول مذهبى الجبر والاختيار وها هى ذى :

قال الجبرى : القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ، ولا يستقيم التوحيد إلا

---

(١) ظهر الجهم بن صفوان بخراسان (وهو من موالى بنى راسب) يدعو لهذه الفكرة ، وكان كاتبا لشريح بن الحارث وخرج معه على نصر بن سيار وقتله مسلم بن أحوز المازنى فى آخر عهد بنى مروان ، وبقى أتباعه بنهاوند ، حتى تغلب مذهبا أبى منصور الماتريدى وأبى الحسن الأشعرى على كل المذاهب الاعتقادية بهذه البلاد .

به ؛ لأننا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث، مع أن الله إن شاء فعل ، وان شاء لم يفعل ، وهذا شرك ظاهر ، لايخلص منه إلا القول بالجبر.

قال السني : بل القول بالجبر مناف للتوحيد ، فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل ، والثواب والعقاب ؛ فلو صح الجبر ، لبطلت الشرائع ، وبطل الأمر والنهي ، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب

قال الجبري : ليس من العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، فان هذا لم يزل يقال ، وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد ، وهو من أقوى أدلة التوحيد ، فكيف يكون المصور للشيء المقوي له منافيا له ؟ .

قال السني : منافاته للتوحيد من أظهر الأمور ، ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهي ، وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والجبر ينافي الكلمتين ؛ فان الاله هو المستحق لصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال ، وهو الذي تؤلهه القلوب ، وتصمد اليه بالحب والخوف والرجاء ، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله، الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له ، مع كمال المحبة والانابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته ، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده . فهذا أصل دعوة الرسول ، واليه دعوا الأمم ، وهو التوحيد الذي لايقبل الله من أحد دينا سواه ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين ، وهو الذي أمر به رسله ، وأنزل به كتبه ، ودعا اليه عباده ، ووضع لهم دار الثواب والعقاب ، لأجله ، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله ، وكان من قولك أيها الجبري إن العبد لاقدرة له على هذا البتة ، ولا أثر له فيه ، ولاهو فعله ، وأمره بهذا أمر بما لا يطيق ، بل أمر بايجاد فعل الرب ، أو أن الله سبحانه وتعالى أمره بذلك ، وأجبره على ضده ، وحال بينه وبين ما أمره به ، ومنعه منه ، وصده عنه ، ولم

يجعل له اليه سبيلا بوجه من الوجوه ، مع قولك إنه لا يحب فلا تتأله القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه. والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الألهية وإثبات العبودية ؛ فرفعت معنى الألهية ، بأنكار كونه محبوبا مودودا تتنافس القلوب فى محبته ، وإرادة وجهه ، والشوق إلى لقائه ، ورفعت حقيقة العبودية بأنكار كون العبد فاعلا وعابدا ومحبا ؛ فان هذا لله مجاز لا حقيقة له عندك ، فضاع التوحيد بين الجبر ، وإنكار محبته ؛ فانك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله ، وينهاه عما لا يقدر على تركه ، بل يأمره بفعله هو سبحانه ، وينهاه عن فعله هو سبحانه ، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله البته ، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه ؛ وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره ، وفعل مانهاه بمنزله عقوبته على ترك طيرانه إلى السماء ، وترك تحويله للجبال عن أماكنها، ونقله مياه البحار عن مواضعها ؛ وبمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه وطوله وقصره ؛ وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب لمن لم يعصه طرفة عين ، وأن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك ، بل هو جائز عليه ؛ ولو خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه . وقلت إن تكليفه عباده بما كلفهم إياه بمنزله تكليف الأعمى الكتابة الزمن الطيران فبغضت الرب إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد ، ونفرته عنه . وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده ، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها . وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر ؛ لاخفاء به ؛ فأن مبنى الشرائع على الأمر والنهى ، وأمر الآمر لغيره بفعل نفسه ، لا بفعل المأمور ، ونهيه عن فعله ، لا فعل المنهى عبث ظاهر ؛ فأن متعلق الأمر والنهى فعل العبد وطاعته ومعصيته ؛ فمن لافعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعة أو يعصيه . وإذا ارتفعت حقيقة

الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب ، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاما جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة ، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم .

قال الجبرى : إذا صدر من العبد حركة معينة فأما أن تكون مقدورة للرب وحده ، أو العبد وحده ؛ أو لا للرب ولا للعبد ، وهذا القسم الأخير باطل قطعا ، والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة فأن كانت مقدورة للرب وحده ،فهو الذى نقوله وذلك عين الجبر . وإن كانت مقدورة للعبد وحده فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى ؛ فلا يكون على كل شىء قدير ، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادرا على مالم يقدر عليه خالقه وفاطره وهذا هو الذى فارقت به القدرية للتوحيد ، وضاهت به المجوس . وإن كانت مقدورة للرب والعبد لزمت الشركة ، ووقوع مفعول بين فاعلين ، ومقدور بين قادرين وأثر بين مؤثرين ، وذلك محال ؛ لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالا على أثر واحد ، فهو غنى عن كل منهما بكل منهما ؛ فيكون محتاجا إليهما مستغنيا عنهما

قال السنى : .... قد دل الدليل على شمول قدرة الرب سبحانه لكل ممكن من الذوات والصفات والأفعال وأنه لا يخرج شىء عن مقدوره البته . ودل الدليل أيضا على أن العبد فاعل لفعله بقدرته وارادته ، وأنه فعل له حقيقة يمدح ويذم به عقلا وعرفا وشرعا ، وفطرة فطر الله عليها العباد ، حتى الحيوان البهيم ، ودل الدليل على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين ، وأثر واحد بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال ، ودل الدليل أيضا على استحالة حادث لا محدث له ، ورجحان راجح لا مرجح له . وهذه أمور كتبها الله سبحانه فى العقول ، وحجج العقل لا تتناقض ، ولا تتعارض ولا

يجوز أن يضرب بعضها ببعض ، بل يقال بها كلها ، ويذهب إلى موجبها ، فأنها يصدق بعضها بعضا وإنما يعارض بينهما من ضعفت بصيرته ، وإن كثر كلامه ، وكثرت شكوكه ، والعلم أمر آخر وراء الشكوك ووراء الاشكالات ولهذا تناقض الخصوم . والصواب فى هذه المسألة أن يقال تقع الحركةبقدرة العبد وإرادته التى جعلها الله فيه ، فالله سبحانه وتعالى اذا أراد فعل العبد خلق الله القدرة والداعى إلى فعله ، ويضاف الفعل الى قدرة العبد إضافة السبب إلى سببه، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق ، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين ، قدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر ، وهى جزء سبب ، وقدرة القادر الآخر مستقلة بالتأثير ، والتعبير عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس ؛ فانه يوهم أنهما متكافئتان فى القدرة ، كما تقول هذا الثوب بين هذين الرجلين ، وهذه الدار بين هذين الشريكين ، وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه ، والسبب والمسبب والفاعل والآله كله أثر القدرة القديمة . ولا تعطل قدرة الرب سبحانه عن شمولها وكمالها وتناولها لكل ممكن .. وليس فى الوجود شىء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الرب سبحانه وقدرته ، وكل ما سواه مخلوق له ، وهو أثر قدرته ومشيئته، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله سبحانه ، أو القول بوجود مخلوق لاخالق له .....

قال الجبرى : ضلال الكافر وجهله عند القدرى مخلوق له، موجود بايجاده واختياره ؛ وهذا ممتنع ، فانه لو كان كذلك لكان قاصدا له إذا القصد من لوازم الفعل اختيارا ، واللازم ممتنع ، فأن عاقلا لا يريد لنفسه الضلال والجهل، فلا يكون فاعلا له اختيارا

قال السنى : عجبا بك أيها الجبرى ، تنزه العبد أن يكون فاعلا للكفر والظلم ، وتجعل ذلك كله لله . ومن العجب قولك إن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل ، وأنت ترى كثيرا من الناس يقصد لنفسه ذلك عنادا وبغيا وحسدا مع علمه بأن الرشد والحق فى خلافه ؛ فيطيع دواعى هواه وغيه وجهله ، ويخالف داعى رشده وهداه ، ويسلك طريق الضلال ، ويتنكب عن طريق الهدى ، وهو يراهما جميعا . قال أصدق القائلين : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير حق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ؛ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » قال تعالى« أما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »وقال تعالى عن قوم فرعون : « لما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين،وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » وقال تعالى« وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » وقال تعالى « ولقد علموا لمن اشتراه ، ماله فى الآخرة من خلاق » وقال تعالى « بئس ما اشتروا به أنفسهم ، أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » . وقال تعالى : « لم تكفرون بآيات الله ، وأنتم تشهدون ،يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق ، وأنتم تعلمون » وقال « يا أهل الكتاب ، لم تصدون عن سبيل الله ، من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء » وهذا فى القرآن كثير ، يبين سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمدا على علم . هذا وكم من قاصد أمرا يظن أنه رشد وهو ضلال وعى ... (راجع المناظرة بأكملها فى كتاب شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم)

ب – القدرية

قد علمت خوض المسلمين فى حديث القدر فى العصر الأموى وآخر عصر الخلفاء الراشدين ، وعلمت أن فريقا غالى ، فنفى أن يكون للانسان إرادة فيما يفعل ، وأن الأفعال تصدر عنه ، كما ينبت الزرع ، ويحيا النبات ، وتمطر السماء ، وتجرى الأنهار ، وكما أنه لا إرادة لهذه الاشياء ، فلا إرادة للانسان . وهؤلاء هم الجبرية الذين ذكرناهم ، وقد غالى آخرون فأثبتوا أن كل فعل للانسان إنما هو بارادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى(١) وقد قال عبد القاهر البغدادى فى توضيح فكرتهم ، واصفا المعتزلة بوصفهم ! « ومنها قولهم إن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، ولا لشىء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم ، وأنه ليس لله عز وجل فى أكسابهم ، ولا فى أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير ، ولأجل هذا سماهم المسلمون قدرية »(٢)

ولم يقف منتحلو هذا المذهب عند حد قولهم إن إرادة العبد مستقلة فيما يفعل عن إرادة الله سبحانه وتعالى ، بل غالوا أكثر من ذلك ، ونفوا القدر بمعنى العلم والتقدير ، وقالوا فى ذلك « الأمر أنف » فيروى أن معبد بن خالد الجهنى من شيوخهم سمع من يتعلل فى المعصية بالقدر ، فقام بالرد عليه ينفى كون القدر سالبا للاختيار فى أفعال العباد فقال « لا قدر والأمر أنف » أى أن الأمور يستأنف العلم بها وكأنه بهذا نفى الأرادة الأزلية ، ونفى العلم الازلى القديم ، وأخرج بذلك فعل الانسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم .

---

(١) الخطط المقريزية للمقريزى

(٢) الفرق بين الفرق

وقد دهش بعض المؤرخين من تسميتهم بالقدرية ، إذهم نفاة القدر ،فكيف ينسبون إليه ؟ فقال قوم إنه لامانع من أن ينسبوا الى ضد ما يقولون ، كما تسمى الأشياء بأضدادها ، وقال قوم إنهم نفوا القدر عن الله ، وأثبوه للعبد فسموا لذلك قدرية ، إذ جعلوا كل شيء لأرادة الإنسان وقدرته ، فكأنهم جعلوا الانسان السلطان على القدر ، وقد أشار البغدادى فيما نقلناه آنفا إلى هذه العلة . ويميل بعض الكتاب إلى أن هذا الوصف ذكرهم به الكتاب من مخالفيهم؛ لينطبق عليهم الأثر المشهور « القدرية مجوس هذه الأمة »

وقد قرأنا لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير مصطفى صبرى أفندى شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقا فى كتابه «موقف البشر تحت سلطان القدر» موازنة طريفة بين المجوس والمعتزلة وهو يعتقد أن المعتزلة من القدرية وقد جاء فيها ، « ورد فى حديث آخر : القدرية مجوس هذه الأمة فكما أن المجوس ينسبون الخير الى الله والشر الى الشيطان ، ويسمون خالق الخير يزدان وخالق الشر أهرمن .فالمعتزلة يفرقون بين الخير والشر ويسندون الخير الى الله ، والشر الى الانسان، ويقولون ان الله لا يريده»

ومهما يكن من شيء فجمهرة كتاب الملل والنحل على تسمية نفاة القدر هؤلاء باسم القدرية ، وقد علمت ما فى التسمية من كلام وما فى النسبة من بحث

وقد خاض المؤرخون فى الكلام عن أول من انتحل هذه النحلة ، وفى أى البلدان نبتت ، وتحت أى ظلال ترعرعت ونمت ، وما مصدرها ؟ وقد علمت رأينا فى مثل هذه البحوث ، من أن الافكار التى تشيع وتنتشر من الصعب الوصول الى مبدئها ، ومعرفة أوائلها على وجه الجزم واليقين ، من غير حدس أو تخمين ، وكذلك كان الشأن فى هذه الفكرة

غير أن جل الباحثين ذكروا أن هذه النحلة كان أول ظهورها فى البصرة

فى متناحر الآراء ، ومضطرب الافكار ومريج النحل ، وقد علمت كيف كان العراق كله لا البصرة وحدها موضعا لذلك التناحر ، وقد جاء فى كتاب سرح العيون : «قيل أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا ، فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى » ومن هذا ترى أن الفكرة دخيلة بين المسلمين من عنصر أجنبي دعا إليها باسم الاسلام ، وهو يضمر غيره

واذا كان لكل نحلة زعماء يدعون اليها ، ويجادلون فى شأنها ، وينادون بها ، ويلاحون المخالفين لأجلها ، فقد تصدى للدعوة إلى هذه النحلة رجلان أحدهما معبد الجهنى بالعراق ، وثانيهما غيلان الدمشقى بدمشق ، وقد أخذ معبد يدعو الى هذه النحلة زمناً غير قصير ، حتى كانت فتنة عبد الرحمن بن الاشعث فانضم اليها ، ولما هزم بن الاشعث كان هو فيمن قتله الحجاج صبرا من دعاة هذه الفتنة وأنصارها .

أما غيلان فقد استمر داعيا لها بالشام ، مناديا بها ، وقد ناقشه عمر بن عبد العزيز فى ذلك ، وكتب هو اليه كتبا يدعوه فيها الى التمسك بالعدل ، وفى هذه الكتب يبين نحلته ، ومنه كما فى كتاب المنية والأمل فى الملل والنحل للمرتضى ، إذ قال زاويا عن غيلان كتابا له الى عمر بن عبد العزيز : « أبصرت ياعمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، اعلم ياعمر أنك أدركت من الاسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فيا ميت بين الأموات ، لا ترى أثرا فتتبع ، ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طغى على السنه ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل ، وربما نجت الأمة بالامام ، وربما هلكت بالأمام ، فانظر أى الأمامين أنت فأنه تعالى يقول : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » فهذا إمام هدى ، هو ومن أتبعه شريكان . وأما الآخر فقال تعالى

فيه : «وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون » ولن تجد داعيا يقول : تعالوا الى النار، إذن لا يتبعه أحـد ، لـكن الدعاة الى النار هم الدعاة الى معاصى الله سبحانه وتعالى ، فهل وجدت ياعمر حكيما يعيب ما يصنع أو يصنع مايعيب ، أو يعذب على ما قضى ، أو يقضى ما يعذب عليـه ؟ أم هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة ؟ أم هل وجدت عدلا يحمل الناس على الظلم والتظالم ، وهل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم ؟ كفى ببيان هذا بيانا وبالعمى عنه عمى»

ويروى أنه لما ناقشه عمر بن عبدالعزيز كشف شبهته وأزال غمته ، وقطع حجته فقال هذا له « يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك ضالا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى ، والله لا أتكلم فى شىء من هذا الأمر (١) » .

ولكنه عاد الى دعايته بعد موت عمر ، وأمعن فى نشرها ، وبالغ فى ذلك ، حتى ولى هشام فقتـله ؛ ويروى أنه قد جاء بالأوزاعى الفقيه ، وناقشه حتى قطعه ثم قتله ، وقد رويت تلك المناقشة بعدة روايات فى العقد الفريد وسرح العيون . وغيرها . وقد رواها صاحب كتاب« محاسن المساعى فى مناقب الامام أبى عمر الأوزاعى» ، وقال إنها مناقشة مع قدرى ، ويظهر من موازنتها بغيرها

---

(١) ويقول المرتضى فى المنية والامل « دعا عمر غيلان ، وقال له أعنى على ما أنا فيه ، فقال غيلان ولنى بيع الخزائن ورد المظالم، فولاه ، فكان يبيعها وينادى عليها ، ويقول تعالوا الى متاع الخونة، تعالوا الى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بغير سنته وسيرته الخ، فاحفظ ذلك هشام بن عبدالملك وقال والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه فلما ولى فعل به ما أقسم عليه

أن القدرى هو غيلان ، ولذا أثبت هذه الرواية،وهاهى ذى .

« كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدرى ، فبعث هشام اليه ، فقال له : قد كثر كلام الناس فيك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ادع من شئت ، فيجادلنى ، فان أدركت على بذلك ، فقد أمكنتك من علاوتى . فقال هشام : قد انصفت فبعث الى الأوزاعى ، فلما حضر ، قال له هشام : يا أبا عمرو ناظر لنا هذا القدرى . فقال له الأوزاعى : اختر إن شئت ثلاث كلمات ، وإن شئت أربع كلمات ، وإن شئت واحدة . فقال له القدرى . بل ثلاث كلمات فقال الاوزاعى للقدرى . أخبرنى عن الله عز وجل ، هل قضى على ما نهى ؟ قال القدرى : ليس عندى فى هذا شىء . فقال الاوزاعى : هذه واحدة ، ثم قال : أخبرنى عن الله عز وجل : أحال دون ما أمر ؟ قال القدرى . هذه أشد من الاولى ، ما عندى فى هذا شىء ، فقال الاوزاعى : هذه اثنتان يا أمير المؤمنين ، ثم قال : أخبرنى عن الله عز وجل : هل أعان على ما حرم ؟ فقال القدرى . هذه أشد من الاولى والثانية ، ما عندى فى هذا شىء . فقال الاوزاعى : يا أمير المؤمنين ، هذه ثلاث كلمات ، فأمر هشام فضربت عنقه . فقال هشام للاوزاعى : فسر لنا هذه الكلمات الثلاث ماهى ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، أما تعلم أن الله تعالى قضى على ما نهى ، نهى آدم عن الاكل من الشجرة ؛ ثم قضى عليه بأكلها فأكلها يا أمير المؤمنين أما تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر ، أمر ابليس بالسجود لادم ، ثم حال بينه وبين السجود أما تعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله أعان على ماحرم ؟ حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ثم أعان عليه بالاضطرار . فقال هشام أخبرنى عن الواحدة ما كنت تقول له؟ كنت أقول: «أخبرنى عن الله عز وجل حيث خلقك ، خلقك كما شاء، أو كما شئت ؟ فانه كان يقول كما شاء ؛ فأقول له : أخبرنى عن الله عز وجل ؛

يتوفاك إذا شئت أو اذا شاء ؛ فانه كان يقول إذا شاء ؛ فأقول له . اخبرنى عن الله عز وجل إذا توفاك أين تصير حيث شئت أو حيث شاء ؛ فانه كان يقول . حيث شاء . ياأمير المؤمنين من لم يمكنه أن يحسن خلقه ، ولا يزيد فى رزقه ، ولا يؤخر أجله ، ولا يصير نفسه حيث شاء ؛ فاى شىء فى يده من المشيئة ياأمير المؤمنين. قال صدقت يا أبا عمرو . قال الاوزاعى يا أمير المؤمنين ان القدرية مارضوا بقول الله تعالى ؛ ولا بقول الانبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ ولا بقول أهل الجنة ؛ ولا بقول أهل النار ، ولا بقول الملائكة ، ولا بقول أخيهم ابليس . فأما قول الله تعالى فهو : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » وأما قول الملائكة فهو : « لاعلم لنا إلا ماعلمتنا » . وأما قول الانبياء فقال شعيب عليه السلام : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، واليه أنيب » وقال ابراهيم عليه السلام . « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » . وقال نوح عليه السلام « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان يريد أن يغويكم هو ربكم » . وأما قول أهل الجنة فانهم قالوا « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى ، لو لا أن هدانا الله » وأما قول أهل النـار فهو « لو هدانا الله لهدينا كم » وأما قول ابليس فهو « رب بما أغويتنى » وترى من هذه المناقشة أن الغرض منها كان إلجام غيلان ، ليجد هشام مبررا لقتله ، ولذا كان يسودها التحدى والتعجيز حتى عجز فقتل . وإن حوى بيانها علما عظيما ، وتفكيرا مستقيما ، وأخذا من ظواهر القرآن مايرد على القدريين

ولم يمت المذهب بموت غيلان ، ولم يذب فى غـيره من المذاهب كما ذكر بعض الكتاب الفضلاء ، فقد دام بين أهل البصرة قرونا طويلة ، بل تحول عند طائفة منهم إلى مايشبه مذهب الثنويه الذين جعلوا الخير الى النور والشر الى الظلمة ، وأولئك نسبوا لله فعل الخير ، ولأنفسهم فعل الشر من غير أن

يكون لله فيه إرادة ، بل معاندين بذلك إرادته ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

والآن نثبت لك مجادلة بين قدرى وسنى تدرك منها ماكان يدور حوله الجدل والنقاش وهاهي ذه

مجادلة بين قدرى وسنى (١)

قال القدرى : قد أضاف الله الاعمال الى العباد بأنواع الاضافة العامة والخاصة ، فأضافها اليهم بالاستطاعة تارة كقوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » وبالمشيئة تارة أخرى كقوله تعالى: « لمن شاء منكم أن يستقيم » وبالارادة تارة كقول الخضر « فاردت أن أعيبها » وبالفعل والكسب والصنع كقوله يفعلون ، يعملون ، بما كنتم تكسبون ، لبئس ماكانوا يصنعون ، وأما بالاضافة الخاصة ، فكاضافة الصلاة ، والصيام ، والحج والطهارة ، والزنى ، والسرقة ، والقتل ، والكذب ، والكفر ، والفسوق وسائر أفعالهم اليهم ، وهذه الاضافة تمنع اضافتها اليه ، كما إن اضافة أفعاله تمنع اضافتها اليهم ، فلا تجوز اضافة أفعالهم اليه سبحانه دونهم ، ولا اليه معهم ، فهي اذن مضافة اليهم دونه

قال السنى : هذا الكلام مشتمل على حق وباطل ، أما قولك إنه أضاف الافعال اليهم فحق لاريب فيه ، ولكن قولك هذه الاضافة تمنع إضافتها اليه سبحانه وتعالى كلام فيه اجمال وتلبيس ، فان أردت بمنع الاضافة اليه منع

---

(١) هذه المجادلة مأخوذة من كتاب شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

قيامها به ، ووصفه بها . وجريان أحكامها عليه ، واشتقاق الاسماء منها له فنعم هى غير مضافة اليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه ، وإن أردت بعدم إضافتها اليه عدم إضافتها الى علمه . وقدرته عليها ومشيئته العامـة وخلقه ، فهذا باطل ، .فانها معلومة له سبحانه وتعالى ، مقدورة له مخلوقة ، وإضافتها اليهم لا تمنع هذه الاضافة كالاموال ، فانها مخلوقة له سبحانه وهى ملكه حقيقة قد أضافها اليهم ، فالاعمال والاموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذى جعلهم مالـكيها وعامليها ، فصحت النسبتان ، وحصول الامواله بكسبهم وارادتهم كحصول الاعمـال ، وهو الذى خلق الاموال وكاسبيها ، والاعمال وعامليها ؛ فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده ، كما أن أسماعهم وأبصـارهم وأنفسهم ملـكه وبيده ، فهو الذى جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون ، فأعطاهم حاسة السمع والبصر ، وقوة السمع والبصر ، وفعل الأسماع والأبصار ، وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ونفس العمل ، فنسبة قوة العمل الى اليد والكلام الى اللسان كنسبة قوة السمع الى الاذن ، والبصر الى العين ، ونسبة الرؤية والسمع اختيارا الى محلهما كنسبة الـكلام والبطش إلى محلهما ، وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع ، فهل خلقوا محلهما وقوى المحل والاسباب الكثيرة التى تصلح معها الرؤية والسمع أم الـكل خلق من هو خالق كل شيء، وهو الواحد القهار

قال القدرى : لو كان الله سبحانه وتعـالى هو الفاعل لافعالهم ، لاشتقت له منها الاسماء ، وكان أولى بأسمائها منهم ، إذ لا يعقل النـاس على اختلاف لغاتهم وعاداتهم ودياناتهم قائما إلا من فعل القيام ، وآكلا إلا من فعل الاكل ، وسارقا إلا من فعل السرقة ، وهكذا جميع الافعـال ، فقلبتم أنتم الأمر .

وقلبتم الحقائق فقلتم من قال هـذه الافعال حقيقة لا يشتق له منهم اسم . وإنما تشتق منها الاسماء لمن لم يفعلها . ولم يحدثها، وهذا خلاف العقول واللغات وما تتعارفه الامم

قال السني : العبد فاعل لفعله حقيقة ، والله خالقه ، وخالق آلاته الظاهرة والباطنة،وإنما تشتق الأسماء لمن فعل تلك الأفعال ، فهو القائم والقاعد والمصلى والسارق والزانى حقيقة،فأن الفعل إذا قام بالفاعل ، عاد حكمه اليه ، ولم يعـد إلى غيره ، واشتق له منه اسم ، ولم يشتق لمن لم يقم به . فها هنا أربعة أمور ، أمران معنويان فى النفى والاثبات ، وأمران لفظيان فيهما . فلما قام الأكل والشرب والزنى والسرقة بالعبد عادت أحكام هذه الأفعال اليـه ، واشتقت له منها الأسماء ، وامتنع عود أحكامها إلى الرب واشتقاق أسمائها له، ولكن من أين يمنع هذا أن تكون معلومة للرب سبحانه ، مقدورة له ، مكونة له،واقعة من العباد بقدرة ربهم وتكوينه

قال القدرى : لو كان خالقها لزمته هذه الأمور

قال السنى : هذا باطل ، ودعوى كاذبة ، فأنه سبحانه لا يشتق له الاسم مما خلقه فى غيره ، ولا يعود حكمه عليه،وانما يشتق الأسم لمن قام به ذلك فأنه سبحانه خلق الالوان والطعوم والروائح والحركات فى محالها ، ولم يشتق له اسم منها ، ولا عادت أحكامها اليه ، ومعنى عود الحـكم الى المحل الأخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب

(تراجع المناظرة بأكملها فى كتاب شفاء العليل لابن القيم)

ج ـ المعتزلة

نشأتهم :

نشأت هذه الفرقة فى العصر الأموى ، ولكنها شغلت الفكر الاسلامى فى العصر العباسى ردحا طويلا من الزمان : ولأنها نشأت فى العصر الأموى نتكلم عنها ، ونبين آرائها ، ولكى يكون الكلام وافيا نذكر ما كان فى العصر العباسى فنقول :

كان العراق فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى يسكنه عدة طوائف تنتهى إلى سلائل مختلفة ، فبعضهم ينتهى الى سكان العراق الأقدمين من الكلدان ، وبعضهم فارسى ، وآراميون ، ونصارى ويهود ، وعرب . وقد دخل أكثر هؤلاء فى الاسلام ، وبعضهم قد فهمه على ضوء المعلومات القديمة التى فى رأسه ، واصطبغ فى نفوسهم بصبغتها ، وتكونت عقيدته على طريقتها ، وبعضهم أخذ الاسلام من ورده الصافى ، ومنهله العذب ، والساغ فى نفسه من غير تغيير ، ولكن شعوره واهواءه لم تكن اسلامية خالصة ، بل كان فيه ميل الى القديم ، وحنين اليه على غير ارادة . بل على النحو الذى يسميه علماء النفس فى العصر الحديث : « العقل الباطن » . لذلك لما اشتدت الفتن فى عصر أمير المؤمنين على بن طالب انبعثت فى العراق الأهواء القديمه من مراقدها ، واستيقظت من سباتها ، وهبت من مكامنها مكشوفة من غير ستار ، وظهر فى العراق وحوله الخوارج والشيعة ، والجهمية ، والقدرية ، وفى وسط هذا المريج من الآراء ، وذلك المضطرب الفسيح من الاهواء ظهرت المعتزله .

ويختلف العلماء فى وقت ظهورها . فبعضهم يرى أنها ابتدأت فى قوم من أصحاب على اعتزلوا السياسة ، وانصرفوا الى العقائد عندما تنزل الحسن

عن الخلافة لمعاوية . وفى ذلك يقول أبو الحسين الطرائفى فى كتابه رد أهل الاهواء والبدع :« وهم سموا أنفسهم معتزلة ، وذلك عندما بايع الحسن بن على عليه السلام معاوية ، وسلم اليه الأمر ، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، وكانوا من أصحاب على ، ولزموا منازلهم ، ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة »

٢ — ويرى الدكتور نيبرج «أن الاعتزال أول ما نشأ كان فى القدرية »

٣ — والاكثرون على أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء وقد كان ممن يحضرون مجلس الحسن البصرى العلمى فثارت تلك المسألة التى شغلت الأذهان فى ذلك العصر ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة (١) ، فقال واصل مخالفا الحسن البصرى أنا أقول ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بأطلاق ، بل هو فى منزله بين المنزلتين ثم اعتزل مجلس الحسن ، واتخذ له مجلسا آخر فى المسجد .

ومن هذا تعرف لماذا سمى هو واصحابه بالمعتزلة ؟ ولكن بعض المستشرقين يرى أنهم سموا المعتزلة لأنهم كانوا رجالا اتقياء متقشفين ، ضاربى الصفح عن ملاذ الحياة ، وكلمة معتزله تدل على ان المتصفين بها زاهدون فى الدنيا

(١) قال الازارقة إن مرتكب الذنب صغيرا أوكبيرا كافر هو وولده . ووافقهم الصفرية إلا أنهم خالفوهم فى الاطفال . وقال النجدات إن مرتكب الكبيرة وهى ما أجمعت الأمة على تحريمها ــ كافر .

وقال الاباضية إن مرتكب الذنب الذى جاء فيه وعيد مع معرفته بالله تعالى وما جاء به كافر كفر نعمة لا كفر ايمان. وذهب الحسن البصرى إلى أن مرتكب الكبيره منافق. والجمهور يرى أنه مومن فاسق والمعتزلة يرون أنه فى المنزله التى بين المنزلتين إلا أبا بكر الاصم منهم، فانه يرى رأى الجمهور

وفي الحق ليس كل المنتسبين الى هذه الفرقة كما نعتهم ، بل منهم المتهمون بالمعاصي ، ومنهم المنقون، منهم الابرار ، ومنهم الفجار

وقال الاستاذ أحمد أمين فى كتاب فجر الاسلام :«ولنا فرض آخر فى تسميتهم المعتزله لفتنا اليـه ما قرأناه فى خطط المقريزى من أن بين الفرق اليهودية التي كانت منتشرة فى ذلك العصر وما قبله طائفة يقال لها الفروشيم وقال ان معناها المعتزلة . وذكر بعضهم عن هذه الفرقة ، أنها كانت تتكلم فى القدر ، وتقول ليس كل الافعال خالقها الله ، فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلموا من اليهود لما رأوه بين الفرقتين من الشبه اه ماخصا ·

مذهب المعتزلة . قل أبو الحسن الخياط فى كتابه الانتصار «وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالاصول الخمسة: التوحيد ، والعدل ، والوعدوالوعيد، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فاذا كملت فى الانسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى» ، هذه هى الاصول الجامعة لمذهب المعتزلة ، فكل من يتحيف طريقها ، ويسلك غير سبيلها ليس منهم لا يتحملون أثمه ، ولا تلقى عليهم تبعة قوله ؛ ولنتكلم فى كل أصل من هذه الاصول بكلمة موجزة ، فأما التوحيد فهو لب مذهبهم ؛ وأس نحلتهم ، ويرون فيه كما قال الاشعرى عنهم فى كتابه مقالات الاسلاميين.« إن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ولا لحم ، ولا دم ولا شخص ، ولا جوهر ؛ ولا عرض ؛ ولا بذى لون ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ، ولا برودة ، ولا

رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ، ولا يتبعض ، ولا بذي أبعاض وأجزاء ، ولا جوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ولا بذى يمين وشمال وامام وخلف وفوق وتحت ؛ ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم ، فغير مشبه له . ولم يزل أولا سابقا ، متقدما للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ، ولا يزال كذلك لا تراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالاسماع . شىء لا كالاشياء ، عالم قادر حى ، لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وإنه القديم وحده ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ولا يصل إليه الأذى والآلام ؛ ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء » اهـ قوله

وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة

لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة ، وأن الصفات ، ليست شيئا غير الذات(١) ، وإلا تعدد القدماء فى نظرهم . وبنوا على ذلك أيضا أن القرآن مخلوق لله سبحانه، لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام

وأما العدل ، فقد بين معناه المسعودى فى مروج الذهب، فقال :«هو أن الله لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ماأمروا به ، ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها(٢) ، برىء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقون ، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وإن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التى أعطاهم إياها ، وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادرا، ولكنه لا يفعل إذ كان فى ذلك رفع للمحنة ، وإزالة للبلوى . » اهـ .وقد ردوا بهذا الأصل على الجهمية الذين قالوا إن العبد فى فعله غير مختار ، فعدوا ذلك ظلما ؛ لأنه لا معنى لأمر الشخص بأمر يضطره الآمر إلى مخالفته . ولا لنهيه عن أمر يضطره الناهى إلى فعله ، وقد بنوا على ذلك الأصل كما رأيت أن العبد خالق لأفعاله ، ولكنهم لا حظوا فى ذلك تنزيه الله عن العجز ، فقالوا إن هذا بقدرة أودعه الله إياها وخلقها ، فهو المعطى المانع ، وله القدرة التامة على سلب ما منح ، وإنماء أعطى ما أعطى ليتم التكليف .

---

(١) وليس هذا محل إجماع منهم

(٢) احتجوا على ذلك بظاهر قوله تعالى« ما أصابك من حسنه فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك»

٣ — وأما الوعد والوعيد فهو أن يجازى من أحسن بالأحسان ، ومن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبائر ما لم يتب.

٤ — وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فقد بين وجهة نظرهم فيه الشهرستانى بقوله « ووجه تقريره أنه قال (واصل بن عطاء) إن الايمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمنا ، وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمنا وليس هو بكافر مطلق أيضا ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، لا وجه لأنكارها. لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالدا فيها ، إذ ليس فى الآخرة إلا الفريقان : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، ولكنه تخفف عنه النار وتكون دركته فوق دركة الكفار » (١) اه

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد قرروا وجوبهما على المؤمنين نشرا لدعوه الأسلام ، وهداية للضالين ، وارشادا للغاوين ، وكل بما يستطيع ، فذو الغيان ببيانه، وذو السيف بسيفه

طريقتهم فى الاستدلال على عقائدهم : كانوا يعتمدون فى الاستدلال على

---

(١) والمعتزلة مع اعتقادهم أنه فى منزلة بين المنزلتين يرون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسلم تمييزا له عن الذميين لا مدحا وتكريما . قال ابن أبى الحديد وهو من شيوخهم : « إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما، فأنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة ، وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصوداً به التعظيم والثناء والمدح » شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

عقائدهم على القضايا العقلية ، دون الآثار النقلية ، وكان ثقتهم بالعقل لا يحدها إلا احترامهم لأوامر الشرع ، كل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه ، وما لم يقبله رفضوه .

وقد سرى اليهم ذلك النحو من البحث العقلى – ا – من مقامهم فى العراق وفارس ، وقد كانت تتجاوب فيهما أصداء لمدنيات وحضارات قديمة (ب) ومن سلائلهم غير العربية فقد كان أكثرهم من الموالى (ج) ولعدم علمهم بالحديث د – ولسريان كثير من آراء الفلاسفة الأقدمين اليهم ، لاختلاطهم بكثير من اليهود والنصارى وغيرهم ، ممن كانوا حملة هذه الأفكار ونقلتها إلى العربية

وكان من آثار اعتمادهم على العقل أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلا ، وكانوا يقولون « المعارف كلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيان للحسن والقبح (١) » وقال الجبائى « كل معصية كان يجوز أن يأمر الله سبحانه بها فهى قبيحة للنهى وكل معصية كان يجوز ان يبيحها الله سبحانه فهى قبيحه لنفسها كالجهل به ، والاعتقاد بخلافه ، وكذلك كل ما جاز ألا يأمر الله سبحانه به فهو حسن للأمر به ، وكل ما لم يجز إلا أن يأمر به فهو حسن لنفسه » (٢)

وقد بنوا على هذه الفكرة وجوب الصلاح والأصلح لله ، فقد قال جمهورهم إن الله لا يصدر عنه الا ما فيه صلاح ، فالصلاح واجب له ، ولا شىء مما يفعله جلت قدرته الا وهو صالح ، ويستحيل عليه سبحانه أن يفعل غير الصالح .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى

(٢) مقالات الاسلاميين للاشعرى

أخذهم عن الفلسفة اليونانية وغيرها : فى العصر العباسى توردت على العقل العربى الفلسفة الهندية والفلسفة اليونانيه ، وقدجاءت اليهم ارسالها عن طريق :

(١) الفرس ، لأن الثقافة الفارسيه قبيل الاسلام كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية .

(٢) وعن طريق السريان ، لأنهم قد ورثوا الفلسفة اليونانيه ، وألبسوها لبوسهم الدينى ، ومسوحهم اللاهوتيه

(٣) وعن طريق اليونان أنفسهم ، لأن بعض الموالى كان يجيد اليونانيه والعربيــة •

تأثر المعتزلة بهذه الفلسفة فى آرائهم ، وأخذوا عنها كثيرا فى مقدمات دلائلهم وأقيستهم ، بل كان بعض عقائدهم لا يخلو من تأثر بالفلسفة اليونانيه حتى لقد زعم بعضهم أن رأيهم فى الصفات مأخوذ من المعانى الافلاطونية

وقد دفعهم الى دراسة الفلسفه أمران : أحدهما أنهـم وجدوا فيها ما يرضى نهمتهم العقلية ، وشغفهم الفكرى ، ووجدوا فيها مرانا عقليا جعلهم يلحنون بالحجة فى قوة

وثانيهما أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبادىء الاسلامية ، تصدى هؤلاء للرد عليهم ، واستخدموا بعض طرقهم فى النظر والجدل ، وتعلموا كثيرا منها ، ليستطيعوا أن ينالوا الفلج والفوز عليهم ، فـكانوا بحق الفلاسفه المسـلمين •

دفاعهم عن الاسلام : دخل فى الاسلام طوائف من المجوس ، والصابئه ، واليهود ، والنصارى ، وغير هؤلاء وأولئك ، ورءوسهم ممتلئة بكل مافى هذه الاديان من تعاليم ، جرت فى نفوسهم مجرى الدم فى الجسم ، وتغلغلت فيها ،

واستقرت فى ثناياها ، ففهموا الاسلام على ضوئها . ومنهم من كان يظهر الايمان خشية السلطان ، ويبطن غيره ، فأخذ ينشر بين المسلمين ما يفسد عليهم دينهم ، ويشككهم فى عقائدهم ، ويدسون بينهم أفكارا وآراء ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد ظهرت ثمار غرسهم ، واستغلظت سوق نبتهم ، فوجدت فرق هادمة تحمل اسم الاسلام وهى معاول هدمه ، فكان الروافض والمجسمه والمشبهه ، والزنادقه ، وغيرهم ، وقد تصدى للدفاع دون هؤلاء فرقه درست المعقول وفهمت المنقول ، فكانت المعتزلة . تجردوا للدفاع عن الدين وما كانت الاصول الخمسه التى تضافروا على تأييدها ، وتآزروا على نصرها إلا وليدة المناقشات الحادة التى كانت تقوم بينهم وبين مخالفيهم ، والتوحيد الذى اعتقدوه على الشكل الذى أسلفنا كان للرد على المشبهه والمجسمه ، والعدل كان للرد على الجهميه ، والوعد والوعيد كان للرد على المرجئه ، والمنزلة بين المنزلتين ردوا به على الخوارج الذين كفروا مرتكب الذنب صغيرا أو كبيراً .

وفى عهد المهدى ظهر المقنع الخراسانى ، وكان يقول بتناسخ الارواح ، واستغوى طائفة من الناس ، وسار الى ما وراء النهر ، فلاقى المهدى عناء فى التغلب عليه . ولذلك أغرى بالزنادقة ، فكان يتتبعهم ليقضى عليهم ، بسيف السلطان ، ولكن السيف لا يقضى على رأى ، ولا يميت مذهبا ، ولذا شجع المعتزلة وغيرهم فى الرد عليهم ، وأخذهم بالحجة ، وكشف شبهاتهم ، وفضح ضلالاتهم ، فمضوا فى ذلك غير وانين

مناصرة الخلفاء للمعتزلة . ظهر المعتزلة فى العصر الأموى ، فلم يجدوا من الأمويين معارضة لهم ، لأنهم لم يثيروا شغبا ، ولم يعلنوا حربا ، بل كانوا طائفه لا تحمل لها إلا الفكر وقرع الحجة بالحجه ، والدليل بالدليل ، ووزن

الامور بمقاييسها الصحيحه ، لايتعرضون للسياسه إلا بقدرمحدود ، وحجتهم فيما يرون بيان لاسنان ، وسلاحهم دليل قوى، لاسيف مشهور

ويحكى المسعودى فى مروج الذهب « أن يزيد بن الوليد كان يرى رأى المعتزله،ويعتقد بصحة أصولهم الخمسة »

ولما جاءت الدولة العباسية ، وكان سيل الالحاد والزندقة قد طم ، وجد خلفاؤها فى المعتزله سيفاً مسلولا على الزنادقة فلم يفلوه ، وحربا شعواء منهم على الالحاد ، فلم يخمدوها ، حتى جاء المأمون فشايعهم ، وقربهم ، ورأى ما بينهم و بين الفقهاء من خلاف ، فكان يعقد المناظرات بين الفريقين، ليلتهوا إلى رأى واحد ، ولكنه سقط سقطة ما كان لمثله أن يقع فيها ؛ وهو أنه أراد أن يحمل الفقهاء والمحدثين على رأى المعتزلة فى القرآن بقوة السلطان ، وما كانت قوة الحكم لنصرة الآراء ، وحمل الناس على غير ما يعتقدون ، واذا كان من المحرم الاكراه فى الدين ، فكيف يحل حمل الناس على عقيدة ليس فى مخالفتها كفر ؛ بل تنزيه ، فقد حاول أن يحمل الفقهاء على القول بخلق القرآن فأجابه بعضهم الى رغبته تقية ورهبا ، لا إيمانا واعتقادا، وتحمل آخرون العنت والارهاق والسجن الطويل ، ولم يقولوا غير ما يعتقدون واستمرت تلك الفتنة طول خلافة المعتصم والواثق ؛ لوصية المأمون بذلك ، وزاد الواثق الاكراه على نفى الرؤية الذى يراه المعتزلة ، ولما جاء المتوكل رفع هذه المحنة ، وترك الأمور تأخذ سيرها ، والآراء تجرى فى مجاريها ، وللناس فيها ما يختارون .

منزلة المعتزله عند معاصريهم . شن الفقهاء والمحدثون الغارة على المعتزلة فكان هؤلاء بين عدويين ، كلاهما ، أيد قوى ، الروافض والزنادقه ، ومن

على شا كلتهم من ناحيـة ، والفقهاء والمحدثون من ناحية ، وإنك لترى فى مجادلات الفقهاء ومحاوراتهم تشنيعاً على المعتزلة ، كلما لاحت لهم بارقة ، واذا سمعت الشافعى وابن حنبل وغيرهم يذمون علم الكلام ، ومن يأخذ العـلم على طريقة المتكلمين ، فانما المعتزلة أرادوا بذمهم ، وطريقتهم أرادوا بتزييفهم، ولكن ما السر فى كراهية الفقهاء لهم وكلا الفريقين يسعى لنصرة الدين لا يألو جهدا فى تأييده ، ولا يدخر وسعاً فى إقامته ، يظهر لى أن عدة أمور تضافرت فأوجدت ذلك العداء ، وتعاونت فسببت تلك البغضاء ، وهذا بعض منها:

(١) خالف المعتزلة طريقة السلف الصالح فى فهم عقائد الدين الحنيف ، كان القرآن هو الورد المورود الذى يلجأ اليـه كل من يتعرف صفات الله ، وما يجب الايمان به من العقائد ؛ لا يصدرون عن غيره ، ولا يطمئنون لسواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات القرآن ، وهى بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ، وهم بها خبراء . وان تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور ؛ غير مبتغين فتنة ، ولا راغبين فى زيغ ، ولا سالـكين غير سبيل الحق القويم .

وقد كان ذلك ملائما للعرب كافيا لهم ؛ لأنهم قوم أميون ليسوا أهل علوم ولا منطق ولا فلسفه ، خالف المنزلة ذلك النهج ؛ وحكموا العقل فى كل شىء وجعلوه أساس بحثهم ؛ وساقهم شره عقولهم الى محاولة اكتناه كل أمر — فكان كل ذلك صدمه للفقهاء لم يألفوها ؛ فجردوا عليهم سيوفهم ؛ وأشاعوا عنهم قاله السوء ؛ وما كان المعتزلة فى الحقيقه إلا كما قال أحد العلماء الاوربيين : « انا لم نسمع من المعتزلة صوت المخالفه للدين ؛ ولكن سمعنا صوت الضمير المتدين الذى يناضل ضد كل ما يليق بالله تعالى وعلاقته بعبده »

(٢) شغل المعتزلة بمجادلة الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم ، وكل مجادلة نوع من النزال ، والمحاربة ، والمحارب مأخوذ بطرق محاربه فى القتال ، مقيد بأسلحته ، متعرف لخططه ، دارس لمراميه ، متقص لغاياته ، وكل ذلك من شأنه أن يجعل الخصم متأثرا بخصمه ، آخذا عنه بعض مناهجه ، فالمعتزلة قد تأثروا الى حد ما بآراء مخالفيهم وأفكارهم ، وما أحسن قول نيبرج فى ذلك « من نازل عدوا عظيما فى معركة فهو مربوط به ، مقيد بشروط القتال ، وتقلب أحواله ، ويلزمه أن يلاحق عدوه فى حركاته ، وسكناته ، وقيامه ، وقعوده ، وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله ، كذلك فى معركة الافكار ، وفى الجملة فللعدو تأثير فى تكوين الافكار ليس بأقل من تأثير الحليف فيه ، حتى إن بعض الحنابلة قد شكا أن أصحابه انقطعوا الى الرد على الملحدين انقطاعا أداهم الى الالحاد ، فلا غرو بعد ذلك إذا رأيت شذوذا فى آراء بعض المعتزلة لتأثرهم بهذه المجادلة .

(٣) كانت طريقة المعتزلة فى معرفة العقائد عقلية خالصة ، لا يعتمدون على نص ، اللهم إلا اذا كان موضوع الكلام حكما شرعياً ، أوله صلة بحكم شرعى فجل اعتمادهم على العقل كما أسلفنا ، وللعقل نزوات وغرة ، لذلك وقعوا فى كثير من الهنات دفعتها اليهم نزعتهم العقلية الخالصة ، كقول الجبائى وهو من أئمتهم إن الله مطيع لعبده اذا أجاب دعاءه ، وكان سبب قوله هذا القول انه سأل أبا الحسن الأشعرى قائلا له : ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال موافقة الأمر ، وسأله هذا عن قوله فيها ، فقال الجبائى : الطاعة عندى موافقة الارادة ، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه ، فقال أبو الحسن يلزمك على هذا الاصل أن يكون الله مطيعا لعبده إذا فعل مراده ، ولو جاز أن يكون

الله تعالى مطيعاً لعبده لجاز أن يكون خاضعاً له ؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (١) .

وقول أبى الهذيل من أئمتهم إن أهل الجنة غير مختارين ، لأنهم لو كانوا مختارين لكانوا مكلفين ، والآخرة دار جزاء لا دار تكليف ، وفى ذلك شطط عقلى ، لأن الاختيار لا يستلزم التكليف ، وذكر الخياط أنه رجع عن هذا القول (٢)

مثل هـذا النوع من الشذوذ الفكرى كان يقع من بعضهم ، فيسير بين الناس عنهم ومعه قاله السوء عامة ، من غير أن تخص المسىء ، «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»

(٤) خاصم المعتزلة كثيرين من رجال كانت لهم منزلة كبيرة عند الأمة ، ولم ينزهوا كلامهم فى خصومتهم وانظر الى قول الجاحظ عن رجال الحديث والفقه: «وأصحاب الحديث والعوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون ، ولا يتخيرون ، والتقليد مرغوب عنه فى حجة العقل ، منهى عنه فى القرآن . . . » إلى أن قال : « وأما قولهم فالنساك والعباد منا ، فعباد الخوارج وحدهم أكثر عددا من عبادهم ، على قلة عدد الخوارج فى جنب عددهم ؛ على أنهم أصحاب نية ، وأطيب طعمة ، وأبعد من التكسب ، وأصدق ورعا ، وأقل زيا ، وأدوم طريقة ، وأبذل للمهجة ، وأقل جمعاً ومنعا ، وأظهر زهـدا وجهدا » (٣) فكان الطعن فى مذاهب هؤلاء يجر القول سببا فى نفور الأمة من المعتزله

---

(١) الفرق بين الفرق

(٢) الانتصار . فى الرد على ابن الراوندى

(٣) الفصول المختارة من كتب الجاحظ للامام عبيد الله بن حسان

(٥) كان من خلفاء بنى العباس من شايع المعتزلة ، وناصرهم ، واعتنق مذاهبهم، وتعصب لها ، فأراد أن يحمل الناس على اعتناقها ، فآذى الفقهاء والمحدثين ، وابتلاهم ، وأنزل بهم المحنة ، فصبروا وصابروا ، واستدرت محنتهم عطف الناس عليهم وسخطهم على من كان سبب البلية ، ومن استجل هذه القضية ، فرجعت تلك الآلام وبالا على المعتزلة فى سمعتهم ، لانهم أصل البلاء وخلطاء الخلفاء والامراء ، صدروا عن رأيهم ، ونفذوا بتدبيرهم . وكان منهم من دافع عن هذا الارهاق ، وذلك الاضطهاد . انظر الى قول الجاحظ فى تبرير عمل الخلفاء فى امتحانهم الفقهاء والمحدثين : « وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن الا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الاستار . ولو كان كل كشف هتكا . وكل امتحان تجسساً لكان القاضى اهتك الناس لستر . وأشد الناس تتبعاً لعوره »(١)

ان انهزام الآراء التى تناصرها القوة أمر محتوم ، لان القوة المادية رعناء ، هوجاء من شأنها الشطط . والخروج على الجادة . وكل رأى يعتمد على القوة فى تأييده تنعكس عليه الامور ، لأن الناس يتظنون فى قوة دلائله ، اذ لو كان قويا بالبرهان ، ما احتاج فى النصرة الى السلطان .

(٦) كان كثيرون من ذوى الالحاد يجدون فى المعتزلة عشا يفرخون فيه بمفاسدهم وآرائهم ، ويلقون فيه حممهم ودسهم على الاسلام والمسلمين ، حتى اذا تبدت أغراضهم أقصاهم المعتزلة عنهم . فابن الراوندى كان يعد منهم ، وأبو عيسى الوراق ، واحمد بن حائط ، وفضل الحدثى ، كانوا ينتمون إليهم ، وكل هؤلاء أحدثوا الاحداث فى الاسلام ، وأتوا بالمنكرات ، وكان منهم من أستؤجر

---

(١) الفصول المختارة أيضا

لليهود لافساد عقيدة المسلمين ، وانتماؤهم للمعتزلة أول أمرهم ، وان فصلوا عنهم عند ظهور شنائعهم يجعل رشاشا مما لطخوا به ينال سمعة المعتزلة ، وان أقسموا جهد ايمانهم أنهم منهم براء ، فان الاتهام اسبق الى الاذهان من البراءة .

اتهام الفقهاء والمحدثين لهم : اشتدت حملة أولئك على المعتزلة ، فاتهموهم فى كل شيء حتى ان الامام محمد بن الحسن الشيبانى أفتى بأن من صلى خلف المعتزلى يعيد صلاته ، والامام أبا يوسف عدهم من الزنادقة ، والامامان مالك والشافعى لم يقبلا الشهادة من أحدهم . وسرت مقالة السوء الى من ينتمى اليهم ، حتى اتهموهم بالفسق وانتهاك المحرومة . وفى الحق ان كل خصومة تؤدى الى الملاحاة لابد أن تؤدى الى المهاترة ، ورمى الخصم خصمه بالحق وبالباطل ، فكثير من التهم التى وجهت الى المعتزلة لم تصدر عن انصاف ، بل كان التحيز رائد المتهمين ، والتعصب دليلهم ، وكل تعصب يسد مسامع الادراك فى ناحية من النواحى . فالمعتزلة فيهم خير كثير ، ولو كان قد انتمى اليهم بعض المتهمين فى دينهم المأخوذين بأثمهم ، إذ أن لهم سابقة الفضل بالدفاع عن الاسلام ، فقد تفرق أتباع واصل فى الاقطار الاسلامية رادين على أهل الاهواء ، وكان عمرو بن عبيد حربا على الزنادقة مشبوبة ، لا يخمد أوارها . كان صديقا لبشار بن برد ، فلما علم منه الزندقة سعى فى نفيه من بغداد فنفى منها ولم يعد الا بعد موت عمرو .

وكان منهم العباد الزهاد . فهذا عمرو بن عبيد (١) . يقول فيه الجاحظ

---

(١) كان المنصور يبالغ فى تعظيم عمرو بن عبيد ورثاه بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل قبرا مررت به على مران

(متعصبا) ان عبادته تنى بعبادة عامة عبادة الفقهاء والمحدثين .

وقال الواثق لأحمد بن أبى دؤاد وزيره لم لم تول أصحابى (المعتزلة) القضاء ، كما تولى غيرهم فقال يا أمير المؤمنين ان أصحابك يمتنعون عن ذلك ، وهذا جعفر بن مبشر وجهت إليه بعشرة آلاف درهم ؛ فأبى أن يقبلها ، فذهبت إليه بنفسى ، واستأذنت فأبى أن يأذن لى ، فدخلت من غير إذن ، فسل سيفه فى وجهى ، وقال الآن حل لى قتلك ، فانصرفت عنه ؛ فكيف أولى القضاء مثله .

ومن الغريب أن جعفرا هذا حمل إليه بعض أصحابه درهمين فقبلهما ، فقيل له كيف ترد عشرة آلاف درهم ، وتقبل درهمين ؟ فقال أرباب العشرة أحق بها منى ، وأنا أحق بهذين الدرهمين ؛ لحاجتى إليهما ، وقد ساقهما الله إلى من غير مسألة ، وأغنانى بهما عن الشبهة والحرام .

فهذه نفس قوية تسد كل باب للشبهات ، اشتبه فى مال السلطان لظنه أنه جمع عن غير الطرق المحللة، فرفض العطاء ، وقبل الدرهمين حلالا طيبا .

ومن هذا السياق ترى أن المعتزلة كان منهم الزهاد ، ومنهم المقتصدون، وقليل منهم ساء مايفعلون ؟

مناظرات المعتزلة

تكون علم الكلام من مجموع مناظرات المعتزلة مع خصومهم، سواء أكانوا من الرافضة ، والمجوس والثنوية ؛ وسائر أهل الأهواء ؛ أم من رجال

قبرا تضمن مؤمنا متخشعا　　عبد الأله ودان بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة　　فصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا　　أبقى لنا عمرا أبا عثمان

الفقه والحديث ، أم من الأشاعرة والماتريدية . فهم مركز الدائرة ؛ وقطب الرحى ؛ شغلوا الأمة الاسلامية بمجادلاتهم ومناظراتهم نحو ثلاثة قرون ازدحمت فيها مجالس الامراء ، والوزراء والعلماء ، وتضاربت فيها الآراء ، وتناحرت المذاهب ، وتجاوبت فيها أصداء الفكر الاسلامى ، وقد زين بزينة فارسية أو يونانية أو هندية . وقد امتازوا فى جدلهم بميزات واختصوا بخصائص جعلت لهم لونا خاصا ، ونحلة خاصة ، لاتختلف فى مجملها عما دعا إليها الدين ، وان تباينت طرق استنباطها ، وتخالفت مقدماتهم الاستنباطية عن مقدمات غيرهم من جماهير الأمة الاسلامية . وأوضح ميزاتهم فى الجدل.

(١) مجانبتهم التقليد ؛ ومجافاتهم الاتباع لغيرهم ، من غير بحث وتنقيب ووزن للأدلة ومقايسة للأمور ، الاحترام عندهم للآراء لا للأسماء ، وللحقيقة لا للقائل ، ولذلك لم يكن يقلد بعضهم بعضا . وقاعدتهم التى يسيرون عليهم كل مكلف مطالب بما يؤديه إليه اجتهاده فى أصول الدين . ولعل ذلك هو السبب فى افترافهم الى فرق كثيرة[.]

منهم الواصلية(١) والهذيلية(٢) والنظامية(٣) والحائطية(٤). والبشرية(٥) والمعمرية (٦). والمزدارية (٧). والثمامية (٨) . والهشامية (٩) والجاحظية(١٠)

---

(١) أصحاب واصل بن عطاء (٢) أصحاب أبى الهذيل العلاف (٣) أصحاب النظام (٤) أصحاب احمد بن حائط (٥) أصحاب بشر بن المعتمر (٦) أصحاب معمر ابن عباد السلمى (٧) أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار (٨) أصحاب ثمامة بن اشرس النميرى (٩) أصحاب هشام بن عمر الفوطى . (١٠) أصحاب الجاحظ

والخياطية (١) . والجبائية (٢) . والبهشمية (٣) .

(٢) اعتمادهم على العقل فى إثبات العقائد . وقد اتخذوا من القرآن مددا ، حتى لا يذهب بهم الشطط الى الخروج عن جادته ، ولم تكن معرفتهم بالحديث كبيرة ؛ لأنهم ما كانوا يأخذون به فى العقائد ولا يحتجون به

(٣) أخذهم من مناهل العلوم التى ترجمت فى عصرهم، فقد ضربوا بسهم فى تلك العلوم ، ونالو منها ما يساعدهم فى اللحن بالحجة ، ومقارعة الخصوم ، ومصارعة الاقران فى ميدان الكلام . وقد انضم اليهم كل مسلم مثقف بالثقافة الأجنبية التى غذت العقل العربى فى ذلك العصر . فقد رأى ما يلائمه فى آراء المعتزلة التى كانت جامعة بين الروح الدينية التى تظلها ، وفكرة التنزيه التى تسيطر عليها ، والافكار الفلسفية التى ترضى النهمة العقلية ، ولذلك كان بين رجالها كثيرون من الكتاب الممتازين، والعلماء المبرزين ، والفلاسفة الفاهمين جمع عظيم .

(٤) اللسن والفصاحة والبيان ، فقد كان بين رجالها خطباء مصاقع ، ومناظرون لبقون ، ومجادلون قد مرسوا بالجدل ، فعرفوا أفانينه ، وخبروا طرقه . ودرسوا كيف يصرعون الخصوم ويلوون عليهم المقاصد، وهذا واصل ابن عطاء كبيرهم خطيب ، عليم بخواطر النفوس ، حاضر البديهة ، قوى الارتجال . وهذا النظام من شيوخهم كان ذكيا بليغا ، حاد اللسان أديبا شاعرا وهذا أبو عثمان عمر والجاحظ الذى يقول فيه أحد الصابئة ثابت بن قرة « أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدرة المتقدمين والمتكلمين إن تكلم حكى سحبان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ،

---

(١) أصحاب أبى الحسين الخياط (٢) أصحاب الجبائى (٣) أصحاب أبى هاشم عبد السلام بن الجبائى .

شيخ الأدب ، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة ، ووسائله أفنان نضرة ، ما نازعه منازع الارشاد آنفا ، ولا تعرض له متعرض ، الاقدم له التواضع استبقاء . .

خصوم المعتزلة : جادل المعتزلة (١) الروافض والمجوس والثنوية والجهمية وسائر أهل البدع ، و(٢) والفقهاء المحدثين. (٣) الأشاعر والماتريدية. وسنتكلم الآن على جدلهم مع الروافض والجهمية من اليهم ، والفقهاء والمحدثين ، ونبقى الكلام على جدلهم مع الأشاعرة الى أن يحين وقت الكلام عليهم .

١ — مجادلتهم للكفار وأهل الاهواء . فى آخر العصر الأموى ، وصدر الدولة العباسية كثر الزنادقة والديصانية ، والمرقيونية ، وغيرهم من أهل الاهواء ، وكانوا تارة يكشفون القناع، وأحيانا ينفثون تعاليمهم مستترين بلباس الاسلام ، متسربلين بسرباله ، ليدس السم من غير أن يشعر بهم أحد فلا يحترس منهم المتدينون، وقد كان جل الرافضه على ذلك النحو ، فكانوا أشد عدواة على الاسلام من غيرهم ، وأعظم نكاية له ، وأهدى الى مقاتله لاغترار بعض الناس بهم ، فتصدى لهم المعتزلة ، وصارعوهم فى كل ميدان ظنوا أنهم يحاربون الإسلام فيه ، ثم لاقوا الثنوية والديصانية والدهرية وغيرهم ممن استمد منهم الروافض وجها لوجه ، فالقد فرق واصل أصحابه فى الأمصار لمحاربة الزنادقة فيها ، ودافع بنفسه. ومن مؤلفاته كتاب الف مسألة للرد على المانوية ، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده، وكان جدلهم بقوة ونهوض

(١) ومما يحكى أن صالح بن عبدالقدوس وقد كان سوفسطائيا مات له ولد فمضى اليه أبو الهذيل العلاف والنظام معه وهو غلام حدث كالتبم له . فرآه محترقا . فقال أبو الهذيل : لاأدرى لجزعك وجها، إذا كان البأس عندك كالزرع .

دليل ، وفصاحة ، وبيان ، وقدرة على الاقناع اكتسبوهامن علومهم وممارستهم الجدال حتى إن كثيرين من خصومهم ، كانوا يغمدون السلاح ، ويلقون السلم عند لقائهم ، وكثير منهم كان يسلم بعد نقاشهم ، وهذا أبو الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من المجوس والثنوية ، لحذقه وبراعته فى المناظرة ، وقوة مايدعو إليه ، وضعف ما يلوون ألسنتهم به ، ولكى نعطيك صورة مما كان يجادل به المعتزلة ، ومقدار قوة استدلالهم ننقل لك بعضا مما روى من هذه المناقشات ، جاء فى الانتصار : « إن المنانية تزعم أن الصدق والكذب متضادان ، وأن الصدق خير ، وهو من النور ، والكذب شر وهو من الظلمة . قال لهم (إبراهيم النظام) حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه ، من الكاذب ؟ قالوا الظلمة . قال فان ندم بعد ذلك على مافعل من الكذب وقال قد كذبت وأسأت . من القائل قد «كذبت» ؟ فاختلطوا عن ذلك ولم يدروا مايقولون . فقال (ابراهيم النظام) : إن زعمتم أن النور هو القائل قد كذبت وأسأت ، فقد كذب ، لأنه لم يكن الكذب منه ، ولا قاله ، والكذب شر ، فقد كان من النور شر ، وهذا هدم قولكم . وإن قلتم إن الظلمة قالت : «قد كذبت وأسأت» فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق

فقال صالح ياأبا الهذيل إنما أجزع عليه ، لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان . فقال له النظام : فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وإن مات ، وشك أيضاً فى أنه قد قرأ هذا الكتاب ، وإن لم يكن قرأه فسكت صالح . (من سرح العيون) .

وكذب ، وهما عندكم مختلفان خيراوشراعلى حكمكم » .

انظر إلى ذلك الاستقراء والتتبع ، وأخذ الطرق على المناقش ، حتى يفحمه وكذلك كانت مناقشة المعتزلة للروافض وغيرهم ممن على شاكلتهم . ومع هـذا يجب أن تقرر أنه مع هذه المناقشة الحادة التى كانت تقوم بينهم وبين المعتزلة . كان هؤلاء يحسنون فى معاملتهم . وتلك أخلاق العلماء تتسع صدورهم لمودة مخالفيهم فى الدين حتى يهديهم الله سواء السبيل

مجادلتهم مع الفقهاء والمحدثين : من المقرر فى كتب علم النفس (١) أن المختلفين إن تقاربا فى العقيدة كان الجدال أشد ، والملاحاة أحد . وذلك ما كان فأن موضع الخلاف بين المعتزلة والفقهاء هين متدارك ، لا يكفر به مخالف ، ولا يخرج به عن نهج الدين مجادل ، ولكن الجدال بينهما كان عنيفاً ، والمهاترة قد راجت سوقها ، ولعل السبب فوق ما سبق أن الاختلاف كان اختلاف عقلية ومنطق ، وطرائق تفكير فى هذا الدين القويم ، فالفقهاء والمحدثون يتعرفون دينهم من الكتاب والسنة، وعملهم العقلى فهم نصوص الكتاب الكريم ، وتعرف الصحيح من المأثور عن الرسول الأمين ، ويعد طلب الدين من غير هـذا الطريق شططا وتحيفاً وعوجا. والمعتزله يرون أن إثبات العقائد بالأقيسة العقلية جائز إن لم يكن واجباً ، ما دامت لم تخالف نصاً فى الدين بل تؤيده ، هم لذلك يستخدمون المنطق والبحوث الفلسفية، وإثبات عقائد الاسلام، وأولئك الفقهاء يجافونها، ويرون الوقوف عند النص ، حتى لا تزل الأقدام فى مزالق الضلال ، ومخاطر الأوهام ، والعقل يخدع ويغتر فيضل .

«١» ذكرهذه القضية وأثبتها جوستاف لوبون ، فى كتابه : الآراء والمعتقدات .

وليس معنى هذا الكلام أنه لم يكن هناك خلاف بل كان بينهما خلاف فى جزئيات كثيرة ، ولكنه لا يصيب لب العقيدة : ولذلك هم لا يكفرون الفقهاء والمحدثين ، وهؤلاء لايكفرونهم بل يعدونهم مبتدعة .

وجدالهم كان صورة لاختلاف هاتين العقليتين ، واقرأ مجادلتهم فى مسألة خلق القرآن ، تجد المعتزلى منطلقا وراء الأقيسة العقلية من غير أى قيد يقيد به نفسه إلا التنزيه ،والفقيه أو المحدث متوقف ،متحفظ، غير متهجم على مالم ينص عليه فى كتاب ولاسنة ، وقد علمت أن الجمهور كان وراء الفقهاء والمحدثين على ما أسلفنا .

المأثور من مجادلات المعتزلة : كان العصر العباسى عصر المناظرات حقا . وكانت هى ميدان البيان ومظهر الفصاحة واللسن . وقد كان المعتزلة فرسان الحلبة فى المناظرات فى العقائد.

وقد كثرت مجالس مناظراتهم . فقد تناظروا بين أيدى الأمراء ، وفى المساجد ، وفى كل مكان يصلح للجدل والمناظرة ، ولكن المأثور من المناظرات قليل بالنسبة لما كان . ولعل السبب فى ذلك ، أن أكثر تلك المناظرات كان ارتجاليا ، ومن الصعب تدوين جميع ما يقال ، ذلك الى أن اضطهاد المعتزلة فى عصر المتوكل ، وما والاه ، وكراهية الجماهير الاسلامية لهم ، كانا سببا فى ضياع كثير من آثارهم ، واندثار أكثر مناظراتهم ، وما بقى صورة من قوة جدلهم ، ويبين لنا أنهم قوم خصمون .

مختارات من مناظرات المعتزلة

المناظرة الأولى

مناظرة واصل بن عطاء لعمرو بن عبيد

لما فارق واصل مجلس الحسن البصرى ؛ أرسل اليه هذا عمر بن عبيد يناظره .

فقال واصل : لم قلتم من أتى كبيرة من أهل القبلة استحق اسم النفاق ؟ فقال عمرو : لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات . ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ؛ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ؛ وأولئك هم الفاسقون . فكأن كل فاسق منافق ، اذ كان الف المعرفة ولامها موجودين فى الفاسق .

فقال واصل : اليس قد وجدت الله تعالى يقول : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون » وأجمع أهل العلم على أن صاحب الكبيرة من أهل القبلة استحق اسم ظالم ، كما استحق اسم فاسق ، فألا كفرتم صاحب الكبيرة من أهل القبلة بقوله تعالى : « والكافرون هم الظالمون » فعرف بألف ولام التعريف فى قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ، كما قال فى القاذف « وأولئك هم الفاسقون » فسميته منافقا لقوله تعالى « ان المنافقين هم الفاسقون » ؟

يا أبا عثمان أيما أولى أن نستعمل فى المحدثين من أمتنا ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة ، أم ما اختلفوا فيه ؟ فقال عمرو : بل ما اتفقوا

عليه أولى. فقال واصل ألست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقا ، ويختلفون فيما عدا ذلك من أسمائه ؛ لأن الخوارج تسميه مشركا فاسقا ، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقا، والحسن يسميه منافقا فاسقا ، والمرجئة تسميه مؤمنا فاسقا ؛ فالواجب أن يسمى بالاسم الذى اتفق المختلفون عليه ، وهو الفسق ، ولا يسمى بما عدا ذلك من الاسماء التى اختلفوا فيها ، فهذا أشبه بأهل الدين ، فقال عمرو: ما بينى وبين الحق عداوة ، والقول قولك ، فليشهد على من حضر أنى تارك للمذهب الذى كنت أذهب اليه ، قائل بقول أبى حذيفة ، وانى قد اعتزلت مذهب الحسن فى هذا الباب ،

المناظرة الثانيه

مناظرة المأمون للمرتد الخراسانى

ارتد خراسانى عن الاسلام، فحمل الى المأمون، حتى وافاه بالعراق، فقال له المأمون: لان أستحييك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق ، ولان أقيلك بالبراءة أحب الى من أن أدفعك بالتهمة ، قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانياً ، وكنت فيها أتيح ، وأيامك أطول ، فاستوحشت مما كنت به آنساً ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا ، فخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار آنس لك من الفك القديم ، وأنسك الاول ، فان وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، والمريض من الاطباء يحتاج الى المشاورة ، وان أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء ، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، أو ترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزم

قال المرتد:أوحشنى كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم

قال المأمون : لنا اختلافان أحدهما كالاختلاف فى الآذان ، وتكبير الجنائز،والاختلاف فى التشهد ، وصلاة الاعياد ، وتكبير التشريق، ووجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف ، إنماهو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى ، وأقام مثنى لم يؤثم ، ومن اذن مثنى ، وأقام فرادى لم يحوب ، لا يتعايرون ، ولا يتعايبون . أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه تبيانا ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع اجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب ، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقا على تأويله ، كما يكون متفقا على تنزيله ، ولا يكون بين جميع النصاري واليهود اختلاف فى شيء من التأويلات، وينبغى لك ألا ترجع إلا الى لغة لااختلاف فى تأويل ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا يحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع الينا على الكفاية ، ولو كان الامر كذلك ، لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة،ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله الدنيا .

قال المرتد:أشهد أن الله واحد، لا ند له ولا ولد ، وأن المسيح عبده ، وأن محمدا صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا .

الجدل فى الفروع فى العصر الاموى

فى ذلك العصر تفرقت الأمة سياسيا إلى شيعة وخوارج وأمويين ، كما علمت ؛ وسرى ذلك الاختلاف الى العقائد وإلى الفروع ، وتفرق الصحابة والتابعون فى الاقطار الاسلامية ، فرأوا ما لم يكونوا قد رأوه ، وانفتقت أذهانهم إلى أمور لم يكونوا يعرفونها ، وفى هذا العصر كثر التحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك التفرق مع شيوع التحدث سببا فى كثرة الكذب عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد قوى ذلك دخول طوائف من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم فى الدين الاسلامى ، وهم متأثرون بتعاليمهم القديمة ، فأدخلوا على الأحاديث شيئاً كثيرا من الاسرائيليات وغيرها ، وقد قال الامام النووى فى بيان الدوافع الى الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم : «وهم أنواع منهم من يضع عليه مالم يقله أصلا ، إما ترافعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم ممن لم يرج للدين وقارا ، وإما حسبة بزعمهم كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث فى الفضائل والرغائب ، وإما إغرابا وسمعة كفسقة المحدثين وإما تعصبا واحتجاجا كدعاة المبتدعة ومتعصبي المذاهب ، وإما اتباعا لهوى أهل الدنيا فيما أرادوه وطلب العذر لهم فيما أتوه الخ (١)

أهل الرأى وأهل الحديث . قد علمت أن الصحابة كانوا يجتهدون آراءهم إذا لم يجدوا نصا فى القرآن ولا فى السنة ؛ ولكنهم كانوا يخشون الانسياق وراء الآراء ، حتى لا يضلوا ، ولكيلا يبعدوا عن سمت الدين ومنهج الحق ؛ لذلك أثر عن كثيرين منهم النهى عن الآراء ، فقد قال عمر : « يأيها الناس

---

(١) شرح مسلم للنوى ؛ وقد أسند ذلك إلى القاضى عياض

إن الرأى كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً ، لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف » وقال « اتقوا الرأى فى دينكم » وكان يقول «أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم ، فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم » (١) لذلك وجد قوم من المجتهدين فى ذلك العصر يكرهون الرأى ، ولا يفتون إلا بالحديث ، فإن لم يجدوا الحديث توقفوا ، وكان أكثر هؤلاء فى الحجاز ، وسموا أهل الحديث ، كما وجد قوم أكثر اجتهادهم بالقياس والرأى ، لكثرة ما فى الحديث من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الفريق يرى أن الشريعة معقولة المعنى ، ولها أصول يرجع اليها ، فكانوا لا يخالفون الأولين فى العمل بالكتاب والسنة ما وجدوا اليهما سبيلا ولكنهم لاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة ، كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم فيما لم يجدوا فيه نصا . وفوق ذلك كانوا يحبون معرفه العلل والغايات التى من أجلها شرعت الأحكام وربما ردوا بعض الاحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة(٢) وكان مقام هؤلاء بالعراق لاقامة عبد الله بن مسعود به ، وقد كان من أهل الرأى ، ولأن أكثر رواة الحديث كانوا بالحجاز ، وللتعاليم الفارسية واليونانية التى كانت بالعراق ، وقد امتاز أهل الرأى بقلة روايتهم للحديث وكثرة تفريعهم الفروع ، حتى وصلوا الى وضع أحكام لأمور تتخيل بالخيال ، ولا يحققها الواقع ، كما امتاز رجال الحديث بكثرة روايته ، ووقوفهم عند النص

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ١٤٥و١٤٦

(٢) تاريخ التشريع الاسلامى للاستاذ المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك

مجادلاتهم : اشتدت المجادلة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ولكنها مجادلة منشؤها طريقة الدراسة لا الهوى ؛ كلهم يطلب الحق ، وكلهم يسعى اليه ، ولكن اختلاف الطرق شعب الانظار ، وأوجد ذلك الاختلاف فى الفروع .
وانظر الى تلك المناقشة بين أبى حنيفة وهو من أهل الرأى ، والأوزاعى وهو من أئمة الحديث كما روى سفيان بن عيينة ، إذ قال : « اجتمع ابو حنيفة والأوزاعى فى دار الحياطين بمكة . فقال الأوزاعى لأبى حنيفه : مالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع ، وعند الرفع منه فقال أبو حنيفة لأجل أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع ، وعند الرفع . قال كيف ؟ وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع ، فقال أبو حنيفه حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمه والأسود عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود الى شىء من ذلك . فقال الأوزاعى أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وتقول حدثنى حماد عن ابراهيم . فقال أبو حنيفه كان حماد أفقه من الزهرى ؛ وكان ابراهيم أفقه من سالم . وعلقمه ليس بدون ابن عمر ، وان كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبه فالاسود له فضل كثير » تعطيك هذه المناقشة أن الاثنين اتفقا فى العمل بالحديث ولكن أبا حنيفه لاحظ أولا فقه الرواه .

وكانت المناظرة بريئه لا يقصد بها إلا إحقاق الحق ، وكلهم من نور الشريعة مقتبس ، واقرأ الرسائل التى كانت بين الامام مالك والليث تجد الخلاف فى وجهة النظر مع أدب المناقشه وحسن المودة وسعه الصدر التى امتاز بها العلماء المحققون ، بيد أنا نقول إن كراهه رجال الحديث للرأى وتخوفهم منه

جعل لسان كثير منهم ينزلق إلى مذمته، وينال رشاش منه القائلين به. وانظر الى قول الشعبي لداود. « احفظ عنى ثلاثا . إذا سئلت عن مسألة ، فأجبت فيها ، فلا تتبع مسألتك أرأيت ، فان الله قال فى كتابه « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » حتى فرغ من الآية . والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئا بشيء ، فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم (١) . وقال أيضا ، والله لقد بغض هؤلاء القوم الى المسجد لهو أبغض إلى من كناسه دارى . قيل ومن هم يا أبا عمر قال الأرأتيون (٢)

مختار من جدل المجتهدين فى ذلك العصر

أرسل الليث بن سعد فقيه مصر إلى مالك بن أنس كتابا يبين فيه دليل ما خالفه فيه ، وها هو ذا الكتاب .

سلام عليك ، فانى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ؛ قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم ، وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها اليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فانها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع ، وأنه لم

(١) الموافقات للشاطبي

(٢) يقصد بذلك أهل الرأى لكثرة تفريعهم المسائل وكانوا يقولون أرأيت لو حصل كذا أرأيت لو كان كذا

يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا، إلا أنى لم أذاكرك مثل هذا . وأنه بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك ان شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له . وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرانى أصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه فكما ذكرت . وأما ما ذكرت من قول الله تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » فان كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع اليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وأقرهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ، ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير ، لاقامة الدين ، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن ، أو عمل به النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه ، فاذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان،
ولم يزالوا عليه ، حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ؛ فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين
أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد
اختلفوا بعده فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها
كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وعلى آله وسلم،سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ،
ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن
شهاب ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد
مضى ما قد عرفت وحضرت . وسمعت قولك فيه وقول ذى الرأى من
أهل المدينة يحيى بن سعيد ، وعبيد الله بن عمر وكثير بن فرقد وغيرهم كثير
ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه ،
وذا كرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيت به على ربيعة من ذلك
فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك
بحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ، وفضل مستبين،
وطريقة حسنة فى الاسلام ، ومودة صادقة لاخوانه عامة ، ولنا خاصة رحمه
الله وغفر له ، وجزاه بأحسن من عمله ، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف
كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا ، فربما كتب اليه فى الشيء الواحد على
فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى
من رأيه فى ذلك . فهذا الذى يدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه ، وقد
عرفت أيضا عيب انكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين
ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينه بما لا يعلمه الا الله لم يجمع

منهم امام قط فى ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ؛ ومعاذ بن جبل . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال أعلمكم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل.ويأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برتوة (خطوة) وشرحبيل ابن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح ، وكان أبو ذر بمصر ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر، وبأجناد المسلمين كلها.وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن حصين.ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه سنين ، وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط. ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به، ولم يقض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ثم ولى عمر بن عبد العزيز، وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والجد فى إقامة الدين ، والاصابة فى الرأى ، والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب اليه رزيق بن الحكم انك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب إليه إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين ، ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا . ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع اليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام ، وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق، فتقوم على حقها . ومن ذلك قولهم فى الايلاء أنه لا يكون عليه طلاق ، حتى يوقف وإن مرت الاربعة الأشهر ، وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذى كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الايلاء الذى ذكر الله فى كتابه لا يحل للمولى اذا بلغ الأجل إلا أن يفىء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون إن لبث بعد الأربعة الاشهر التى سن الله فى كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق. وقد بلغنا أن عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . قالوا فى الايلاء إذا مضت الاربعة الأشهر فهى تطليقة بائنة ، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب إذا مضت الأربعة الاشهر فهى تطليقه ، وله الرجعة فى العدة ، ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهى تطليقه ، وان طلقت نفسها ثلاثا فهى تطليقه وقضى بذلك عبد الملك بن مروان ، وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقوله وقد كاد الناس يجتمعون على أنها ان اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق ، وان اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة وان طلقت نفسها ثلاثا . بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فيدخل بها ، ثم يموت أو يطلقها إلا أن يرد عليها فى مجلسه فيقول إنما ملكتك واحدة ، فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته. ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول ، أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه اياها ثلاث تطليقات . وكان ربيعة يقول ذلك. وإن تزوجت المرأة الحرة عبدا، فاشترته فمثل ذلك وقد بلغنا عنكم شىء من الفتيا مستكرها . وقد كنت كتبت اليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتابى ، فتخوفت

أن تكون استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب اليك فى شىء مما أنكره ، وفيما أوردت فيه على رأيك ، وذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة فى الاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الامام إذا دنا من فراغه من الخطبه ، فدعا،حول رداءه ثم نزل فصلى ، وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبه والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه . ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين فى المال أنه لا تجب عليهما الصدقه ، حتى يكون لكل واحد منهما ماتجب فيه الصدقه ، وفى كتاب عمر بن الخطاب أن يجب عليهما الصدقة ، ويترادان بالسوية . وقد كان ذلك يعمل به فى ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم ، وغيره ، والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه ، فرحمه الله ، وغفر له ، وجعل الجنة مصيره.ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول إذا أفلس الرجل ، وقد باعه رجل سلعة ، فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشترى طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع اذا تقاضى من ثمنها شيئا ، أو أنفق المشترى منها شيئا، فليست بعينها، ومن ذلك أنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والامة كلهم على هذا الحديث ، أهل الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ، وأهل افريقية لا يختلف فيه اثنان فلم يكن ينبغى لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى ان تخالف الأمة اجمعين . وقد تركت اشياء

كثيرة من اشباه هذا ، وانا احب توفيق الله إياك ، وطول بقائك لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعه إذا ذهب مثلك مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلىّ بخبرك وحالك ، وحال ولدك ، وأهلك ، وحاجة ، إن كانت لك ، أو لأحد يوصل لك ، فانى أسر بذلك كتبت إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليك ورحمه الله.

العصر العباسى

تمهيـد : امتاز العصر العباسى بميزات جعلته أزهر العصور العربية ، من حيث العلوم، والآداب، والفلسفة

وقد كان لهذا أثره فى الجدل ؛ إذ هو صورة للمنازع العقلية ، والنزوع الفكرى للأمم ؛ ولهذا كان لا بد من الكلام اجمالا عما اعترى الفكر الاسلامى والحياة الاسلامية من تغير ، ذاكرين أسبابه اجمالا :

(١) وأعظم الأسباب لما طرأ على العرب من تغير فى ذلك العصر هو اختلاطهم بغيرهم من الامم،وثمرة ذلك الاختلاط لم تبتدىء فى ذلك العصر ، بل كانت فى أول القرن الثانى الهجرى ؛ اذ تغلغل الموالى فى الاتصال بالعرب ، وكثر التزاوج والتصاهر بينهم ، وابتدأت الأمم ذوات الحضارات القديمة وخصوصا الفرس يلبسون العرب ثيابا من حضاراتهم ، ويخلعون عليهم حللا من ترفهم . وقد أخذت النفس العربية تتنزل عن عصبيتها وحميتها .

اختلط العرب بالموالى ماديا ، وشاركوهم فى عيشتهم ، وأسهموا معهم فى أرزاقهم ، واختاروا منهم أزواجاً وأمهات أولاد ، وحكموهم سياسيا . فكان لهذا كله أثر عقلى ؛ اذ تشارك العقلان ، وتنزل كلاهما عن بعض خواصه ؛ فتكون من المزيج عقل واحد ؛ له خواص مشتركة ، ومناح فكرية متحدة ، غير أن ذلك احتاج الى زمن مديد ؛ فان من السهل اشتراك طوائف من الناس فى مطالب مادية واحدة،ونوع من الحكم واحد ، ولكن من الصعب جمعهم على عاطفة واحدة ، وإحساس مشترك ، ونظر إلى الحياة واحد وأغراض وآمال تحدوهم جميعاً الى غاية واحدة ، وفكر يوحد أنظارهم ، ويجمع أشتات خواطرهم صوب شىء واحد ؛ لذلك لم تظهر عقلية

جديدة في الحياة الاسلامية بمجرد الاختلاط المادى ، والخضوع السياسى ، بل مضى زمن صهرت فيه العواطف والأفكار ، وبدت في عاطفة جديدة وظاهرة فكرية جديدة ، بزغت في مبتدأ هذا القرن ، وتكامل نموها في منتهاه .

٢ — وقد تضافرت أمور في انماء تلك العاطفة المشتركة ، وذلك الفكر المشترك ، منها الانقلاب السياسى الذى انتقل به الملك من الامويين إلى العباسيين ، أو من العرب الى الفرس ؛ فان الفرس الذين نصروا بنى العباس ، كان لهم سلطان فى عهدهم ، قويا أحيانا ، وضعيفا أحيانا . والعرب محرومون فى الحالين ، فانغمروا فى سائر الناس ، وطوتهم لجة الحياة الاجتماعية ؛ وأخذ الفرس ينشرون حضارتهم متأثرة بالاسلام ؛ وببقايا الاخلاق العربية ؛ أو حضارة هى مجموع العنصرين ، ولكن عنصر الفرس فيها أغلب ؛ لأنهم كانوا أقوياء بسلطانهم ؛ وكانوا أقوياء بآمالهم التى زينت لهم احياء ملكهم القديم ؛ وكانوا أقوياء بحضارتهم القديمة ؛ وميراثهم الفكرى . فلما اصطدمت عاداتهم بعادات العرب ؛ وتقاليدهم بتقاليد العرب غلبتها ؛ وإن تأثرت قليلا بها . وكلما تضاربت فى الرءوس تعاليمهم بتعاليم العرب ؛ ألبستها ثوبا من خيالها وصورها الذهنية .

ولم تكن المعركة قائمة بين العرب والفرس فقط ، لان أمما أخرى كان لها أثر فى تكوين تلك الحضارة الجديدة ؛ إلا أن الفرس أظهرها ، وأشدها تأثيرا لسابق ملكهم الذى أورثهم مطامع وآمالا ، ولعظم سلطانهم بنصرتهم العباسيين ، ولأن مكان الاصطدام وهو العراق كان قريبا منهم ؛ مزدحما بهم ؛ متأثرا بنفوذهم قبل الاسلام وبعده .

٣ — والفكر الفارسى الذى كان له بليغ الأثر فى الحياة الاسلامية فى ذلك العصر ، كان متأثراً بالفكر اليونانى ؛ لغزو الفلسفة اليونانية له قبل الاسلام وبعده ، فأن الفلسفة اليونانية قد أنشئت لها مدارس قبيل الاسلام فى فارس ؛ وبعد الاسلام جاءت هذه الفلسفة لابسة ثوبا يهودياً ومسيحيا على ألسنة السريان الذين أجادوا العربية ، فتأثر بهم المسلمون . وكان الفرس بطبيعة تكوينهم الفكرى أشد قبولا لها ؛ لسابق عهدهم بها ؛ ولاستعدادهم للتأمل الذى يوائم الفلسفة ، ويوافقها ؛ فكان ذلك عاملا عظيما من عوامل تغير الفكر الاسلامى فى عصر العباسيين .

٤ — وقد كان مظهر ذلك التغير الفكرى الحركة العلمية التى ظهرت فى ذلك العصر ؛ فانه ما سكنت ريح الفتن السياسية حتى أخذت الأفكار تستغل الثقافات المختلفة التى توردت إليها من عدة جهات ؛ فكثر التدوين فى العلوم العربية والدينية ، فدونت أكثر قواعد النحو ، وابتدأ التفكير فى علوم البلاغة ، ووضع ضوابط عامة لها ؛ إذ كثر النقد والبحث والموازنات بين المتقدمين والمتأخرين . وكانت النهضة الفقهية فى استنباط الاحكام من كتاب الله وسنة رسوله ، وتفريع الفروع ، ووضع القواعد ، وإحكام الصلة بين الاحكام وينبوع الدين ، فدون الفقه وأصوله ، ودونت السنة ، وقوانين روايتها ، وموازين صحة النسبة فيها .

٥ — وبجوار ذلك كانت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية قائمة على قدم وساق ، وزخرت اللغة العربية بأرسال من الافكار اليونانية ، جاءتها من عدة طرائق ، جاءتها من طريق الفرس المتأثرين باليونان ، كما بينا . وجاءتها من طريق السريان الذين كانوا أعظم ورثة اليونان إبان ظهور الاسلام ، وجاء بها من اليونانية نفسها ، فان بعض الموالى كان يجيد اليونانية

والعربية، فنقل اليها طوائف من أفكارها .

جاءت الفلسفة اليونانية أحياناً خالصة كما علمت ، وأحياناً لابسة ثوبا فارسياً ، وأحياناً مرتدية بمسوح يهودية ومسيحية عن طريق السريان .

وكان طبعياً أن يتأثر الذهن الاسلامى بهذه الاشكال المختلفة، وإذا كان من الناس من لهم عقول قوية تسيطر على الأفكار التى ترد إليها ، وتهضمها فكذلك من النا من لاتقوى عقولهم على احتمالها . بل تضطرب عند ورودها بين قديمها وجديدها ؛ فتكون فى فوضى فكرية لا استقرار فيها ، ولذا رأينا قوماً بعضهم شعراء ، وبعضهم كتاب ، وبعضهم فلاسفة ، وبعضهم ينتسبون للعلم ، غزتهم تلك الافكار ، فلم تقو على هضمها عقولهم ، وهجروا أفكارهم القديمة الصالحة؛ فاضطربوا وصاروا حائرين بائرين

٦ — بل نستطيع أن نقول انه ظهر فى ذلك الاضطراب ، وتلك الحيرة الفكرية ، قوم يذهبون مذاهب سوفسطائية(١) اليونان والرومان . منهم من

---

(١) طائفة من فلاسفة اليونان قوام فلسفتها انكار كل موجود ، فيقولون لا شيء بموجود ، ولو وجد ما أمكننا معرفته ، فهم ينكرون الوجود والمعرفة جميعاً ، والشيء كما يعتقد الانسان . فكل حكم يصدره الانسان فهو حق . فليس هناك علم ، ولكن هناك آراء . وليست هناك حقيقة . ولكن هناك ما يشبهها ؛ ويقولون فى الديانات إنها لا أصل لها فى الفكر والعقل . ويقولون فى الارباب التى كانت شائعه إذ ذاك : انها من اختراع واضعى القوانين ؛ ليرهبوا بها البشر ، فلا آلهة ، ولا معبودات فى الواقع والعقل . ويقولون فى الاخلاق : إن الخير نسبي ، وانه ليس هناك عدل ولا ظلم ، ولا حق ولا باطل ، وان القوانين ما وضعت الا للضعفاء الذين

أخذوا يدعون إلى أن الأشياء لا حقيقة لها، فنهم من أنكر وجودها ، ومنهم من ادعى أن الشيء كما يعتقد الانسان ، ومنهم الشكيون الذى يشكون فى كل شيء، ويدعون إلى هذا الشك .

ومن هؤلاء صالح بن عبد القدوس ، ولعلماء الكلام معه ومع غيره مناقشات طويلة .جاء فى كتاب سرح العيون . «مات لصالح بن عبد القدوس ولد فضى إليه أبو الهذيل والنظام معه، وهو غلام حدث ، كالتبع له ، فرآه محترقا ، فقال أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك وجها ، إذ كان الناس عندك كالزرع . فقال صالح : يا أبا الهذيل ، إنما أجزع عليه ؛ لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك . فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان ، حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه قد كان . فقال له النظام : فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وإن مات ، وشك أيضاً فى أنه قد قرأ هذا الكتاب ، وإن لم يكن قد قرأه . فخصر صالح ، وكان مذهبه مذهب السوفطانية ؛ فانهم يزعمون أن الاشياء لا حقيقة لها ، وأن ما نستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده ، وأن حال اليقظان كحال النائم » . وإنك لترى

مخالفتها ، وإن السعادة كل السعادة فى القوة والسيادة على الاشياء ، والفوز من أى طريق ، وكون الفرد لايتقيد بغير ارادته . فملخص فلسفتهم كما رأيت إنكار حقائق الكون ، ومسائل الاخلاق والعقل ، واعتبار الفرد محور كل الوجود، فماانعكس فى نفسه فهو الواقع والحق ، والشيء حق عند من اعتقد أنه حق ، وباطل عند ما اعتقد أنه باطل ؛ ولذا قال زعيمهم بروتغوراس « الفرد مقياس كل شيء » اه (مأخوذ من مذكرات الفلسفة للمؤلف)

إلى الآن كتب علم الكلام تبتدىء بالرد عليهم ، وتعنى بالنظر فيما ينقض كلامهم .

٧ – ولم تكن الحضارة الفارسية والثقافة اليونانية هما وحدهما مادة الغذاء للفكر الاسلامى فى ذلك العصر ، بل شاركتهما عدة عناصر أخرى ، فهناك بقايا الحضارة الأشورية وعلوم الكلدانيين ، وهناك الفلسفة الهندية ، وما اشتملت عليه من تصوف ، وما بها من أفكار ونحل ، وليس مبدأ تناسخ الأرواح الذى كثر الحديث فيه فى هذا هذا العصر وسابقه إلا غزوا هنديا غزا الفكر الأسلامى . وقد ظهر بين المسلمين دعاة مبادىء إلحاد تشبه مبادىء كانت قائمة فى الهند القديمة ، فالدهريون الذين كثروا فى العصر العباسى وكانوا يقولون لا يوجدنا ولا يهلكنا إلا الدهر قد نبتوا فى الهند ، وقد ظهرت فى المسلمين طائفة طالما ناقشها المعتزلة وسائر علماء الكلام وناظرتهم ، وهى طائفة السمنية (١) ، وهى طائفة ولدت فى الهند وفاشت فى الهند وغيرها ، وسرت أفكارها الى بعض ضعفاء الايمان (٢) من المسلمين ، وقوام مذهبها إنكار كل

---

(١) تنسب هذه الطائفة الى سومنات ، وهو اسم صنم كان فى الهند ، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦ كما ذكر الجذرى فى تاريخه . وقد ذكر البيرونى أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة . وقد كانت خراسان . وفارس ، والعراق ، والموصل الى حدود الشام فى القدم على دينهم . إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان ، ودعا ببلخ الى المجوسية ، وراجت دعوته فانجلت السمنية عنها الى مشارق بلخ

(٢) جاء فى كتاب الأغانى . « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام . عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس

مالا يعلم إلا بالحس والتجربة ، فلا يعترفون بغير الحس طريقاً للعرفان، وينكرون بسبب ذلك وجود الله سبحانه وتعالى، لأنه ليس معروفا بالحس. ومع ذلك يأخذون بمبدأ التناسخ .

وقد كانت المناقشة قائمة بين كثير من علماء الكلام وبين السمنية فى داخل البلاد الاسلامية وخارجها . جاء فى كتاب المنية والأمل للمرتضى : « أن ملك السند طلب الى الرشيد أن يبعث اليه من يناظره فى الدين فبعث الرشيد اليه قاضيا لا متكلما . (لأن الرشيد كان قد منع الجدال فى الدين، وحبس علماء الكلام) فانتدب ملك السند سمنيا ليجادل القاضى . فسأل السمنى القاضى أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال نعم . قال أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة ، وأصحابنا ينكرونه . فقال السمنى : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك الى الرشيد ، فقامت قيامته ، وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا بلى . يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدال فى الدين وجماعة منهم فى الحبس ، فقال أحضروهم . فلما حضروا قال: ماتقولون فى هذه المسألة ؟ فقال صبى من بينهم : هذا السؤال محال ، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثا ، والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن

وعبد الكريم بن أبى العرجاء . ورجل من الأزد . فكانوا يجتمعون بمنزل الأزدى ويختصمون عنده . فأما عمرو بن عبيد فصار الى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة . وأما بشار فبقى متحيرا مخلطا . وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية . وهو مذهب من مذاهب الهند القديمة ، وبقى ظاهره على ما كان عليه »

يخلق مثله أولا يقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون عاجزا أو جاهلا فقال الرشيد : وجهو اليه بهذا الصبي . فقالوا انه لا يؤمن أن يسألوه عن غير هذا . فقال اختاروا غيره . فاختاروا معمر بن عباد السامي ، فسم فى الطريق

ومن هذا ترى كيف كانت المناقشة قائمة بين السمنية وعلماء الكلام من المعتزلة وغيرهم فى داخل البلاد الاسلامية وخارجها

٨ — وقد كان العصر العباسى عصر التحام جدلى بين أصحاب الديانات . فقد كانت كثرة اسلام اليهود والنصاري وغيرهم من أهل الديانات المختلفة سببا فى أن رؤساء هذه الديانات تجردوا للدفاع عنها ، ومهاجمة المسلمين فى رفق ومن غير طعن إلا قليلا فى الاسلام ؛ فكان ذلك محور جدل عظيم كما سنبين فيما يلى .

نمو الجدل فى العصر العباسى

اشتدت حركة الجدل فى العصر العباسى ، ونمت وازدهرت ، وقوى أمره حتى صار موضع مباراة العلماء ، ومسابقة الأدباء ، ومنازلة الكتاب ، ومناط التقدير لكل عالم مستبحر وكل نجيب شاد ، يريد أنه يتخذ من العلم طريقا للمجد ومن الأدب طريقا للسبق ، ومن البحث والاطلاع وسيلة للوصول الى الغاية ونيل الأمل ، والحصول على المأرب وقد تضافرت عدة أسباب فجعلت للجدل تلك المنزلة وله ذلك الشأن منها :

١ — كثرة الملل والنحل فى البلاد الاسلامية ، فقد صارت الحواضر الاسلامية شرقا وغربا مزدحمة بأهل الملك والنحل من كل صوب ، فيها اليهودى ، والنصرانى ، والمجوسى المانوى ، والزرادشتي والمزدكي ، والحرانى والدهرى ، والسمنى ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، وكلهم اجتمعوا فى صعيد واحد

وكسبهم ظل الاسلام حرية دينية يقيمون بها شعائرهم الدينية ، من غير أن يمسهم أحدهم بسوء ، وحرية فكرية تجعلهم يتناقشون فى كل ما يقع تحت أنظارهم من أمور دينية وغيرها ، ما داموا لا يسبون دينا ، ولا يقدحون فى شعيرة من شعائره . ولقد حفظت مناقشات بين هذه الطوائف المختلفة ، وأقواها ما كان بين المسلمين وغيرهم ، ومن ذلك ما حكى من أن المأمون ناقش مجوسيا ثنويا ، فقال له : « أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما ، هل ندم مسىء قط على إساءته . قال بلى . قال فالندم على الاساءة إساءة أم احسان قال إحسان قال . فالذى ندم هو الذى أساء أم غيره . قال : بل هو الذى أساء . قال . فأرى أن صاحب الخير هو صاحب الشر . قال فانى أقول : الذى ندم غير الذى أساء . قال فندم على شىء كان منه أم على شىء كان من غيره » (١) وترى على هذا النحو كثيرا من المناقشات الدينية ، سببها كثرة الاختلاط واستمتاع الجميع بحرية القول والعمل فى ظل الأدب والأخلاق الفاضلة التى يجب أن تسود المناقشات العقلية بين الأكفاء ذوى الفكر الراجح . والعقل القويم .

٢ — دخول طوائف كثيرة من أهل الديانات الأخرى فى الاسلام ، فان الرؤساء وزعماء الاديان قد تقدموا بسبب ذلك للدفاع عن أديانهم ، ومهاجمة بعض المبادىء الاسلامية فى حرص وحذر واتئاد . وأشد ما كانت تلك المهاجمات ماكان يجىء من اليهود والنصارى ، لعلمهم بالكتب المنزلة . ولقد تصدى للرد عليهم علماء المسلمين ، فردوا دعاويهم فى نحورهم ، ولووا مقدماتهم على نتائجهم . وبينما أولئك دائبون فى محاولة الهدم ، كان هؤلاء

(١) العقد الفريد ج١ ص٣٣٥ .

مسارعين لاحقاق الحق ورده الى نصابه . يروى أن يحيي الدمشقى وضع رسالة يحاول فيها الدفاع عن دينه ، وقد رأى الناس يخرجون عنه أفواجا أفواجا ، جاء فيها : « إذا قال لك العربى ما تقول فى المسيح ؟ فقل له : إنه كلمة الله . ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن . وليرفض أن يتكلم بشىء، حتى يجيبه المسلم ، فانه سيضطر إلى أن يقول : « كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه » فان أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذن كان ، ولم تكن له كلمة ولا روح ، فان قلت ذلك فسيفحم العربى، لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين »، ولهذه الاعتراضات الواهية ردود قيمة مذكورة فى مواضعها من كتب علم الكلام ، وفى القرآن الكريم وتفسيره ، فلا نشغل أنفسنا بحكايتها ، وإنما سقنا ذلك لتعرف مقدار ما كان يتضافر به النصارى للدفاع عن عقيدتهم إزاء الغزو الروحى للاسلام فى جماعتهم ، وقد كتب الجاحظ رسالة لأحد اخوانه فى الرد على النصارى ، جاء فى مقدمتها « أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب إخوانكم وضعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز . وذكرتم أنهم قالوا : ان الدليل على أن كتابنا باطل ، وأمرنا فاسد اننا ندعى عليهم مالا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأنا نقول إن الله عز وجل قال فى كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله فى سرهم ، ولا ادعوا ذلك قط فى علانيتهم وأنهم زعموا أننا ادعينا عليهم مالا يعرفون كما ادعينا على اليهود مالا يعرفون حين نطق كتابنا، وشهد نبينا أن اليهود قالوا عزير ابن الله ، وأن يد الله مغلولة

وأن الله فقير وهم أغنياء ، وهذا مالا يتكلم به انسان ، ولا يعرف فى شىء من الاديان . ولو كانوا يقولون فى عزير ما علمتموه وادعيتموه ما جحدوه من دينهم ، وما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بأنكار بنوة عزير أحق منا بأنكار بنوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة وأخذ الجزية ... الخ (١) ثم يسترسل الجاحظ فى بيان ما يعترض به النصارى ، ويعقب عليه بنقضه لبنة لبنة ، حتى لا يترك لهم بعد ذلك حجة قائمة . وهذا كله يدل على أن دخول طوائف كثيرة فى الاسلام حرك الكثيرين من المتعصبين للذود عن دينهم ومهاجمة الاسلام بسيوف مفلولة . وإن ذلك قد دفع الى حركة جدلية واسعة النطاق ؛ عقدت لاجلها مجالس المناظرة وفصلت فيها الفصول فى الكتب

٣ — اضطراب عقائد بعض ضعفاء الايمان ، إما لالتباس الامر عليهم ، وحيرتهم بين قديم قد أنسوا اليه وألفوه ، وجديد قد عرفوه ، وإما لأنهم قوم لا يهتمون بالاديان ، بل سيطر الالحاد على قلوبهم ويلبسون أردية الدين اتجارا لنيل غرض أو شهوة . فقدكان اضطراب هؤلاء سببا فى كثرة المناقشات الدينية والموازنات بين الاديان ، والتاريخ يروى لنا أن بعض الناس دخل فى الاسلام ، ثم ارتد عنه وذلك يستدعى مناقشته لأن حكم الاسلام فى المرتد أنه يستتاب قبل قتله ، والاستتابة تستدعى مناقشة فى الاسباب التى حملته على الخروج من الاسلام بعد أن عرفه . فان كان ضالا ، بين له السبيل ، ووضح له الطريق . وان كان معاندا عولج رأسه بالسيف ؛ فأنه مفسد أراد اللهو والعبث بالاديان . ولا معنى للدخول فى الاسلام وهو فى حل من ألا يدخل .

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل

ثم الخروج منه إلا الافساد، والتشنيع بالباطل . واقرأ مناظرة المأمون للمرتد الخراسانى ؛ فانها تعطيك صورة من الجدل الذى كان يجرى بسبب الدخول فى الاسلام، ثم الخروج من غير حجة واضحة ، ولا سبب معقول. وستأتى هذه المناظرة فى المختار من مجادلات هذا العصر .

٤ — اتساع نطاق الحركة العلمية ، وتغلغل المذاهب الفلسفية فى الثقافة الاسلامية وفى نفوس رجال ممن يعيشون فى ظل الاسلام . فقد علمت أن الفلسفة اليونانية ودخولها الربوع الاسلامية تبعه غزو سوفسطائية اليونان لبعض المسلمين ، ودخول كثير من النحل وآراء الفلاسفة فى الالهيات فى بحوث المسلمين الدينية . بل ان أولئك العلماء الذين تصدوا للرد على الفلاسفة سلكوا مسلكهم فى الاستدلال ، وبنوا قضاياهم الدينية على بحوث فى الطبيعيات ، وقد نالوا لهذا أشطرا من الفلسفة ؛ ليلاحنوا على خصومهم ، وليعرفوا أسلحتهم ، فيشهروا عليهم مثلها فتكا وقوة ، وليلزموهم بمبادئهم وما يعتنقون من آراء ومذاهب ، وقد كان التحام الفلاسفة ، ومن لف لفهم مع علماء المسلمين مثاراً لحركة جدلية واسعة . قد قيدت بقيود المنطق ، وسادتها قيود الفلسفة واصطلاحات العلماء . وإنك لترى ذلك واضحا فى ردود الغزالى على الفلاسفة التى جمعها فى كتابه تهافت الفلاسفة وردود ابن رشد عليه التى جمعها فى كتابه تهافت التهافت

٥ — تشجيع الخلفاء للمناظرة . فقد عمل خلفاء بنى العباس على تشجيع الحركة العلمية ، وتقريب العلماء ، وادنائهم لهم ؛ وذلك التشجيع قد تبعه تشجيع المناظرات ؛ اذ ليست الا صورة لقوة الحركات العلمية ، واختلاف النفوس فى المنازع ، واختلاف العقول فى المسالك فعقدت لهـا المجالس فى

تصور الخلفاء والأمراء، وفى المساجد والنوادى . وأشد الخلفاء سبقاً فى هذا الميدان المأمون ، فقد كان بما أوتى من قدرة جدلية ، وما امتاز به من رغبة علمية ، وما اشتهر به عصره من كثرة العلم والعلماء أبرز الخلفاء العباسيين فيه شخصية وقوة، يعقد المجالس للمناظرة ، ويسهم فيها برأيه ، ويجادل كلا فى حجته ، والجميع فى المناقشة سواء لا فرق بين أحد إلا بالحجة الدامغة . والعارضة القوية ، والقول المبين .

ولقد أكثر المأمون من مجالس المناظرات ، حتى لقد عيب ذلك عليه . قال الطيفورى فى تاريخ بغداد : « قال التغلبي سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهالى بغداد ؛ فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا ، وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ؛ فسأل عن مسائل ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم ؛ فلما نقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين . قال المأمون : يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم ، وتزكية آرائهم ، فطائفة عابوا علينا فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه. وظنوا أنه لايجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف . والله ما استحل أو قال ما استجيز أن انتقص الحجاج ، فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأتينى بالقطعة من العود ، أو بالخشبة ، أو بالشيء الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه . فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، أو مسه ، وما هو عندى بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، الا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهى وعينى ، وأتبرك بالنظر اليه وبمسه. وانما هو عود لم يفعل هو شيئا ، ولا فضيلة له يستوجب بها المحبه ، الا ماذكر

من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ؛ فكيف لا أرعى حق أصحابه . وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة ، وعادى العشائر والعمائر والأقارب ، وفارق الاهل والاولاد ، واغترب عن داره ؛ ليعز الله دينه ، ويظهر دعوته . يا سبحان الله ، والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الأخلاق جميلا . وان من المشركين لمن يرعى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها ، حتى نسبته الى البدعة في تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه . وقد قال الله جل من قائل : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول . فما فرض علينا ذلك ؛ ولا ندبنا اليه ؛ اذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة . فمن دون النبيين مثل ذلك ، اذ شهد لهم بالعدالة . والتفضيل أمر لو جهله جاهل ، رجونا ألا يكون اجترح اثما ، وهم لم يقولوا : بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشك في الآخر ، واحتج في كسره وابطاله في الاحكام والفروج في الفروج والدماء والأموال التي كان النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل . فيغالط في مثل هذا أحد يعرف شيئا ، أوله روية أو حسن نظر ؛ أو يدفعه من له عقل أو معاند يريد الأغلاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة أو معتقد الاوطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رياسته ، لعله يدغوفئة لضرب من البدعة . ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الامر الذي قد عقد به رياسة بدعة ، ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين من هو أعظم من ذلك ، الا أن ذلك أمر لا رياسة له ، فسأله عليه ، وامسك عنه عند ذكر مخالفته اياه فيه . فاذا خولف في نحلته ، ولعلها مما وسع

الله فى جهله : او قد اختلف السلف فى مثله ، فلم يعاد بعضهم بعضا، ولم يروا فى ذلك اثما . ولعله يكفر مخالفه أو يبدعه ، او يرميه بالأمور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها ؛ ليلتهبوا اموال الناس ، ويستحلوها بالغلبة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتن زئير الأسد على فرائسها . وانى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على اتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ماهو ارضى وأصلح للدين . اما شاك فيتبين ويثبت فينقاد طوعا ، واما معاند فيرد بالعدل كرها »

يستفاد من هـذا النص كيف كان المأمون مشغوفاً بالجدل والمناظرة ؛ وكيف كان يعقد لها المجالس رجاء حسم خلاف وفض نزاع ، او هداية شاك طالب لليقين ، او اخذ الذريعة للقضاء على معاند مكابر لا يبغى سدادا ، ولا يطلب رشادا . وتراه قد كان يشكو من ناقديه وتجنيهم عليه بسبب تفضيله على بن ابى طالب على غيره من الصحابة ، وبهذا تعرف كيف كانت حركة الجدل قائمة على قدم وساق

٦ — تشعب الفرق الاسـلامية ، وانفراعها ، والتحامها ، وكثرة مجادلاتها ؛ فالمعتزلة قضوا ردحاً طويلا من ذلك العصر فى منازلات مع الفقهاء والمحدثين ، واهل الأهواء والنحل ؛ حتى جاءهم الاشاعرة وانفصل عنهم الخلفاء، فنازلوهم فى كل مكان حتى ضعف أمرهم . والشيعة المعتدلة كثر حديثها وكانت مجالس المأمون موضعاً لـكثير من مناقشات الشيعة . يروى عن بشر المريسى قال . « حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبى العبـاس ، وعلى بن الهيثم ، فتناظروا فى التشيع ؛ فنصر محمد بن أبى العباس الامامية .

ونصر على بن الهيثم الزيدية •

وجرى الكلام بينهما الى أن قال محمد لعلى : يا نبطى ما أنت والكلام فقال المأمون وكان متكئاً فجلس : الشتم عى ، والبذاءة لؤم ، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب ؛ فاجعلا بينكما أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئاً رجعتم الى الاصول » وهكذا كل الفرق الاسلامية وقد جدت فرق ونحل لم تكن من قبل زادت حركة الجدل حدة وقوة ونماء

٧ – وجود المذاهب الاسلامية فى الفروع ، فقد دونت هذه المذاهب وكان لها أئمة يدافعون عنها ، ويبرهنون عليها ويقيمون الادلة عليها ، وانك لتقرأ كتاب الام للشافعى فتجد فيه أبوابا قد جاءت على شكل مناظرات مما يدل على رواج سوقها ، وقوة أمرها فى هذا الباب ، ولم يكتفوا بالاجتهاد فى الفروع بل استنبطوا لها أصولا ، وقعدوا لها قواعد . وقد كثر جدل الفقهاء كثرة فاحشة حتى بعد اغلاق باب الاجتهاد ، حتى كانت مجالس العزاء تحيا بالمجالات الفقهية ، والمناقشات فى أصول المذاهب . وقد وضع لتنظيم جدل الفقهاء وترتيبه علم الجدل والخلاف ، وهو يشبه المنطق العملى ، وسنبين ذلك بياناً أوفى عند الكلام على الجدل فى الفروع .

لهذه الاسباب كلها ، ولغيرها مما لا يسع المقام ذكرها قويت المناظرات وحلت محل الخطابة عند ما ضعفت وكسدت بضاعتها وكان المجادلون فيها يحرصون على بلاغة الكلام ، وافصاح البيان والتأثير بالاقناع بعد الافحام

مواضع الجدل

الجدل فى الأمامة : لم تنشأ فرق سياسية جديدة ، وان أخذت الفرق القديمة

تبعد عن مذاهب أسلافها . وأشد الجدل فى السياسة ما كان بين العلويين والعباسيين ، خصوصاً فى أول قيام الدولة العباسية فقد رأى العلويون أبناء عمهم يبتزون الأمر منهم ، ويستبدون به دونهم ، وما لحنوا إلا بحجتهم ، ولا قاموا إلا بأنصارهم ؛ فأعلنوا الخروج على المنصور ، وبادلوه الكتب يحتجون عليه بما لأبيهم من مآثر ، ويحتج عليهم بما له من حق الوراثة ، وقد استمر العلويون شجا فى حلق الدولة العباسية،يمنعونها أن تتقلب فى نعيم من الهدوء ،وتكرر خروجهم فى عصور مختلفة على الدولة ، وقامت لهم خلافة فى مصر ، لا تقل قوة عن خلافة العباسيين فى بغداد ، بل أقوى. والمناظرات فى شأن العلويين استمرت طول العصر العباسى قائمة على أحد ما تكون قوة ، وأشد ما تكون انتشارا ، وسرت إلى الأدباء والكتاب ، وكتبت فيها الرسائل ، ودبجت فيها الكتب .

أما الخوارج فقد ضعف أمرهم ، وإن كان منهم خروج وحروب فى صدر الدولة ، فقد خضدت شوكتهم ، وباد أكثرهم فى آخرها .

الجدل فى العقائد

الزنادقة

١ — كانت تطلق كلمة الزندقة فى هذا العصر على كل متهم فى دينه ، يخلط بالاسلام عقائد مجوسية قديمة ، أو يتشكك فى دينه ، أو يرتكب الموبقات ، ويستحل المحرمات ، ولا يرجو للدين وقارا ، يهزع الأخلاق ، وينشر المجون والفساد .

وقد ذاعت هذه الأحوال فى ذلك العصر ذيوعا شديدا ، وتضافرت

عدة أسباب فى رواجها وانتشارها ، حتى خشى كثيرون على الاسلام الاندثار وعلى أسسه الانهيار ، ولكنه كان أقوي عمادا ، وأشد سنادا ، وأعمق فى القلوب تأثيرا ، مما توهم الأكثرون . والأسباب فى شيوع الزندقة كثيرة قوامها طمع بعض الفرس فى احياء ملكهم القديم ، ولذا تقدم المقنع الخراسانى ، مهاجماً الدولة الاسلامية بالسيف فى عهد المهدى ؛ فقد خرج بخراسان من قرية من قرى مرو ، وكان فيما ذكر يقول بتناسخ الأرواح ، فاستغوى بشرا كثيرا ، وقوى ، وسار إلى ما وراء النهر ، فوجه المهدى لقتاله عدة من قواده ، فيهم معاذ بن مسلم ، وهو يومئذ على خراسان ، ثم أفرد لمحاربته سعيدا الحرشى ، وضم إليه القواد ، فاستعد المقنع فى قلعة كش ، فحاصره سعيد بقلعته ، ولما اشتد عليه الحصار ، وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله ؛ فمات وماتوا جميعاً ، ودخل المسلمون قلعته ، واحتزوا رأسه(١)

٢ — ولما عجزت تلك المحاولة ، انصرف مريد وإحياء الملك الفارسى ، إلى احياء الديانات الفارسية ، فأحيوا المانوية وأرادوا نشر الزرادشتية ، ولذ كثر المانويون وغيرهم من طوائف المجوس ، وقد أغرم المهدى بالفتك بهم ، والقتل الذريع فيهم ، حتى كان يأخذ بالظنة ؛ إذ رأى عددهم يكثر وينمى . « لما انتشر من كتب مانى ، وابن ديصان ، ومرقيون ، مما نقله ابن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٣٨

الناس . وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ، ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين فأوضحوا الحق للشاكين(١) »

تتبعهم المهدى فى كل مكان ، ولم ير أحد متهما فى دينه من غير أن يفتك به ، وينزل به ما يجعله عبرة لغيره . ويظهر أن المانوية كانوا أكثر ظهورا من غيرهم ، فوصيته لولده الهادى كان موضوعها المانوية . وها هى ذه بنصها كما جاء فى الطبرى : « يا بنى إن صار اليك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) ؛ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ؛ وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ؛ ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا انكاح الاخوات والبنات ، والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال ؛ لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتجرد بأمرها الى الله لا شريك له ؛ فانى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين »

وقد نفذ الهادى وصية أبيه ، فتتبع المانوية بالقتل الذريع فيهم ، وحرك أهل الكلام لابطال مذاهبهم .

وقد كان للمأمون مع بعضهم مناقشات ، ويروى أنه حاكى أسلافه من الخلفاء فى الفتك ، والعمل على إبادتهم بالسيف .

٣ — ويظهر أن مزدك بعد ذلك كان له أنصار كثيرون بجوار أنصار

---

(١) من ضحى الاسلام للاستاذ الجليل أحمد أمين نقلا عن المسعودى

مانى ، فان كثيرين من الأباحيين من الشعراء وغيرهم كانوا مزدكيين فى أعمالهم، وربما كان منهم من يعتنق مذهبه ، على أنه عقيدة يؤمن بها ، ومذهب يسير على طريقته

ولقد وجد من دعا إلى هذا المذهب علنا من غير مرء وجهرا من غير اخفاء . فقد ظهر بابك الخرمى ، وأخذ فى العبث والفساد ، ودعا إلى المزدكية، وكان أصحابه جميعا عليها ، وكان ظهوره فى عصر المأمون . وقد أوصى أخاه المعتصم بالتشديد فى قتاله هو وقبيله ، وجاء فى الوصية ذلك الكلام : «والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد ، وا كنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه . واعلم أن العظمة اذا طالت ، أوجبت على السامع لها ، والموصى بها الحجة ؛ فاتق الله فى أمرك كله ، ولا تفتن (١) »

ولقد تجرد الافشين وهو من قواد المعتصم الممتازين لبابك ، حتى قضى عليه . ومن الغريب أنه هو اتهم بالزندقة ، وبأنه من أنصار المزدكية ، وقد حوكم ، ثم قضى عليه، وكانت محاكمته مناظرة قيمة؛ ولذلك نثبتها هنا كما وردت فى الطبرى :

« أتى بالافشين ، ولم يكن بعد فى الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه ؛ لتبكيت الافشين بما هو عليه ، ولم يترك فى الدار أحد من أصحاب المراتب ، وصرف الناس . وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان ، والموبذ(٢) والمرزبان بن تركش ،

(١) الطبرى ج ١٠

(٢) الموبذ هو فقيه المجوس .

وهو أحد ملوك السغد ، ورجلان من أهل السغد(١) فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة فقال لهما .. ماشأنكما ؟ فكشفا عن ظهورهما، وهي عارية من اللحم ، فقال له محمد تعرف هذين . قال : نعم هذا مؤذن ، وهذا امام بنيا مسجدا بأشر وسنه . فضربت كل واحد منهما ألف سوط، وذلك أن بيني وبين ملك السغد عهدا أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه . فوثب هذا على بيت كان فيه أصنامهم(يعني أهل شروسنة) فأخرجا الأصنام ، واتخذاه مسجدا ، فضربتهما على هذا ألفا لتعديهما ، ومنعهما القوم من بيعتهم .

فقال له محمد : ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج ، فيه الكفر بالله ؟ قال هذا كتاب قد ورثته عن أبي فيه أدب من آداب العجم . وما ذكرت من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب ، وأترك ما سوى ذلك ، ووجدته محلى ، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك في منزلك ؛ فما ظننت أن هذا يخرج من الاسلام .

ثم تقدم الموبذ ، فقال : إن هـذا كان يأكل المخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة ، وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء بضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفيها ، ويأكل لحمها ، وقال لي يوماً : اني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة (يعني لم يطل ، ولم يختتن) .

(١) أماكن بسمرقند

فقال الافشين : خبرونى عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام أثقة هو فى دينه (وكان الموبذ مجوسياً ، أسلم بعد ذلك على يد المتوكل) قالوا : لا . قال فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ، ولا تعدلونه ! • ثم أقبل على الموبذ ، فقال : هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها ، وتعرف أخبارى ؟ قال : لا قال أفليس كنت أدخلك إلى ، وأبثك سرى ، وأخبرك بالأعجمية ، بيلى إليها وإلى أهلها ؟ قال نعم • قال : فلست بالثقة فى دينك ، ولا بالكريم فى عهدك إذا أفشيت على سرا ، أسررته إليك .

ثم تنحى الموبذ ، وتقدم المرزبان بن تركش ، فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟ • قال : لا فقيل للمرزبان هل تعرف هذا ؟ قال : نعم هذا الافشين • قالوا له هذا المرزبان • فقال له (المرزبان) يا مخرق ، كم تدافع وتموه ؟ قال له الافشين : يا طويل اللحية ما تقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملكتك • قال كما كانوا يكتبون إلى أبى وجدى • قال : فقل • قال لا أقول • فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية • قال : بلى • قال أفليس تفسيره بالعربية الى الآلهة من عبده فلان بن فلان • قال بلى • قال : قال محمد بن عبد الملك والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا !! فماذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى • قال : كانت هذه عادة القوم لأبى وجدى ، ولى قبل أن أدخل فى الاسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم ، فتفسد على طاعتهم

فقال له اسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، ويحك يا حيدر ، كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ، ونصدق يمينك ونجريك مجرى المسلمين ، وأنت تدعى ما ادعى فرعون .

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان ، فقالوا للافشين : تعرف هذا ؟ قال :

لا ، قالوا للمازيار تعرف هذا ؟ قال نعم ، هذا الافشين ، فقالوا له هذا المازيار قال نعم قد عرفته الآن . قالوا هل كاتبته ؟ قال لا ، قالوا للمازيار . هل كتب اليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش الى أخي قوهيار . إنه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك ، فأما بابك ، فانه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فابى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك غيري ، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس ، فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب ، والمغاربة والاتراك ، والعربي بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعني المغاربة) إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين (يعني الاتراك) فانما هي ساعة، حتى تنفد سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة، فتأتي آخرهم،ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم

فقال الأفشين : هـذا يدعي على أخيه وأخي دعوى لا تجب على . ولو كنت كتبت بهذا الكتاب اليه لأستميله ويثق بناحيتي ، كان غير مستنكر ، لأني إذا نصرت الخليفة بيدي ، كنت بالحيلة أحرى أن أنصره ، لآخذه بقفاه ، وآتي به الخليفة ، لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله بن طاهر عند الخليفة ، ثم نحى المازيار . ولما قال الأفشين للمرزبان التركشي ما قال ، وقال لاسحق بن ابراهيم ماقال ، زجر ابن أبي دؤاد الأفشين . فقال هذا له : يا أبا عبد الله ، ترفع طيلسانك بيدك ، فلا تضعه على عاتقك ، حتى تقتل به جماعة فقال ابن أبي دؤاد : أمطهر أنت ؟ قال . لا . قال فما منعك من ذلك ، وبه تمام الاسلام ، والطهور من النجاسة ، قال . أو ليس في دين الاسـلام استعمال التقية؟ قال بلى . قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي ، فأموت :

قال : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ؛ فلا يمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب ، وتجزع من قطع قلفة ، قال تلك ضرورة تعنينى ، فاصبر عليها إذا وقعت . وهذا شىء استجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج عن الاسلام . فقال ابن أبى دؤاد : قد بان حكم أمره ، ثم أمر به فحبس .

٤ — وقد أخذت بعض فرق الشيعة تخلط بتعاليمها مبادىء من الديانات القديمة ، فالاسماعيلية الباطنية التى تقول بالامام المستور أخذت تخلط بمذهبها تعاليم مجوسية قديمة ؛ ويؤكد بعض المؤرخين أن عبـد الله بن ميمون القداح وهو من زعمائهم كان هو وأبوه ديصانيين (١) وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر كثيرا من الترهات والأباطيل ، ويذكر أن الارض تطوى تحته ، فيمضى إلى أى مكان يحب فى أقرب مدة (٢)

وليس القرامطة الذين ظهروا فى آخر عصر المعتمد ، إلا شعبة من الباطنية التى اختلطت تعاليمها بتعاليم مجوسية ونصرانيـة ، فكانت زندقة لبست لبوساشيعيا ، وقد كانوا قوة مخربة وسط الدولة العباسية ، وشجا فى حلقها ، وشوكة فى جنبها ، وكان ابتداء ظهور على يد رجل قدم من نواحى

---

(١) الديصانية نحلة مجوسية قديمه ، تنسب الى ابن ديصان ، وكانت تقول بالاصلين النور ، والظلمة ؛ والظلمة . وطائفة منهم تقول إن النور خالط الظلمة اختيارا منه ليصلحها ، فلما اختلط بها ، ورام الخروج فيها ، امتنع ذلك عليه ، وقالت طائفة إن النور أراد ان يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ، فشابكها بغير اختياره

(٢) الطبرى ، الجزء الحادى عشر .

خوزستان الى سواد الكوفة ، وكان يظهر الزهد والتقشف ، ويأكل من كسبه وإذا قعد اليه انسان ذاكره أمر الدين وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه ، ثم أعلمهم أنه يدعو الى امام من أهل بيت الرسول ؛ فلم يزل على ذلك يقعد اليه،فيخبرهم من ذلك بما تعلق به قلوبهم ، ثم مرض ؛ وبقى فى الطريق مطروحا وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرمتيه ، لحمرة عينيه (وهو بالنبطية أحمر العينين) فكلم فى أن يحمل هذا العليل الى منزله ففعل ، وأقام عنده حتى برأ فكان كرميته يدعو النـاس الى مذهبه ، حتى أجابه جمع كثير من الاكرة ، وكان يأخذ من كل من يدخل مذهبه دينارا يزعم أنه للامام ، ومما دعاهم اليه أنه جاء بكتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانه . إنه داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية » وذكر أن المسيح تصور له فى جسم انسان ، وقال له إنك الداعية ؟ وإنك الحجة ، وانك الناقة ، وانك الدابة وإنك روح القدس ، وانك يحيى بن زكريا. ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز» (١)

ولقد خاف الرجل بعد ذلك على نفسه ، إذ أفسد الناس ، ففر الى الشام فنسب مذهبه الى كرميتة ثم خفف فقيل قرمط (٢)

ولقد عظم أمر القرامطة ، وانتشرت مفاسدهم ، وازداد طغيانهم ، وهاجموا الحجاج ؛ وفتكوا بهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، وانتزعوا منه الحجر

(١) ملخص من الطبرى الجزء الحادى عشر

(٢) الطبرى الجزء المذكور

الأسود ثم ردوه اليه ؛ وقالوا قد أخذناه بأمر ، ورددناه بأمر ؛ وكانت لهم مواقع حربيــة شديدة التقوا فيها مع جيوش العباسيين حتى قضى عليهم هؤلاء بالسيف .

وقد تصدى الاشاعرة للرد عليهم ، ومناقشاتهم ؛ وكانت المناظرات بينهم على أقوى ماتكون حدة ، حتى انتشلوا العامة من ضلالهم ، وردوا كيدهم فى نحورهم ؛ وأثبتوا بذلك أن الاسلام أقوى من أن يرام بذلك النحو من الكيد مهماتعددت مثارات الباطل،ونوازع الشيطان ، وطرق التضليل

٥ — من كل ماسبق علمت كيف كان كثيرون من الفرس يحاولون إحياء دياناتهم القديمة ، ونور الاســلام فى الآفاق ؛وينشرون مبادئهم الثنوية فى تحت سلطان دين التوحيد ، وكان بجوار هؤلاء طائفة أخرى ملحدة لادين لها دأبها الشك وديدنها الانـكار لاتذعن لدين ، ولا تطمئن إلى شرع ، ومن الناس من كان يطلق على هؤلاء اسم الزنادقة كالأولين ؛ كما أن من الناس من كان يطلق الزندقة على طائفة الأباحيين الذين لا يتقيدون فى شهواتهم بقيــد من واجب أو دين أو خلق ، فكأن الزندقة كانت تطلق حينئذ على من اعتنقوا الديانات الفارسية القديمة وخصوصا المانوية . وكانت تطلق على الاباحيين . وعلى الملحدين وأكثر مناقشات العلماء والفقهاء كانت بينهم وبين الاولين وكثير منها كان بينهم وبين الملحدين.

٢٦٧
خلق القرآن

هذه مسألة شغلت الفكر الاسلامي في عصور ثلاثة من خلفاء بني العباس: المأمون، والمعتصم، والواثق. ابتلى فيها العلماء، واضطربت فيها النفوس وأرهقت فيها حرية العقيدة، وحرية الرأى، وأوذى المتمسكون بدينهم، المتورعون في ألفاظهم، المتوقفون في علمهم عند حدود النص — إيذاء شديدا. ولا ذنب لهم في ذلك، إلا العكوف على كتاب الله وسنة رسوله، وعدم خروجهم عن نطاق ما بينا خشية أن يضلوا في متاهات الباطل، ومثارات الشيطان، ونزغات الفكر، وزيغ العقول؛ وما كانوا في تدينهم ليفتوا بغير علم من كتاب أو أثارة من سنة.

١ — وفي الحقيقة إن المناقشة في خلق القرآن لم تكن بدعاً في العصر العباسي، بل كانت قبل ذلك

ويروى أن أول من تكلم فيها الجعد بن درهم في العصر الأموي، فقد كان يقول بخلق القرآن «فقتله خالد بن عبد الله القشيري يوم الاضحى بالكوفة، وكان والياً عليها؛ أتى به في الوثاق، فصلى، وخطب. ثم قال في آخر خطبته: انصرفوا، وضحوا بضحاياكم، تقبل الله منكم؛ فأني أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم؛ فانه يقول ما كلم الله موسى تكليما، ولا اتخذ الله ابرهيم خليلا تعالى عما يقول علوا كبيرا، ثم نزل، وحز رأسه بالسكين بيده» (١)

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان، فقد نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى تنزيهاً له عن الحوادث وصفاتها، وحكم بسبب ذلك بأن القرآن مخلوق له؛ وليس بقديم

---

(١) سرح العيون ص ١٨٦

ولما جاء المعتزلة ، ونفوا صفات المعانى ، ثم بالغوا ، فأنكروا أن يكون الله متكلما ، وما ورد فى القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليما أولوه بأنه خلق الكلام فى الشجرة ، فهم لا يصفون الله بأنه متكلم . ولكن يعتقدون أنه يخلق الكلام ، كما يخلق كل شىء . وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن الكلام مخلوق لله سبحانه ، لذلك خاضوا فى حديثه فى العصر العباسى خوضاً شديداً ، وشاركهم فى حديثه بعض الفقهاء ، « فقد كان بشر بن غياث المريسى على كبر محله فى الفقه من المصرين على القول بخلق القرآن ، وقد نهاه أبو يوسف عن ذلك ، فلم ينته . فطرده من مجلسه .

وقد كان ابتداء الخوض الشديد فى شأن القرآن فى عصر الرشيد ، ولم يكن هو ممن يشجعون الخوض فى العقائد ، والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة ، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد من المعتزلة ؛ ولذا لم يشجع الكلام فى شأن القرآن أهو قديم أم حادث ؛ ولذا لما بلغته مقالة بشر بن غياث المريسى فى شأن القرآن . قال : إن أظفرنى الله أقتله ، فظل بشر مختفياً طول خلافة الرشيد

٢ ـ فلما جاء المأمون ، أحاط به المعتزلة ، وكان جل حاشيته من رجالهم ، وأدناهم هو إليه ، وقربهم زلفى نحوه ، وأكرمهم ، أبلغ الإكرام ؛ حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطى من أئمة المعتزلة تحرك له حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس . وذلك لأنه كان تلميذا لأبى الهذيل العلاف فى الأديان والمقالات وهو معتزلى . ولما عقد المجالس للمناظرات والمناقشات فى المقالات والنحل ، كانوا الفرسان ، والسابقين فى الحلبة والبارزين على الخصوم ؛ لما عنوا به من دراسات عقلية واسعة ، كما بينا آنفاً

عند الكلام على المعتزلة .

ولذلك كان لهم الاثر الكبير فى نفس المأمون يجتبى منهم من يشاء لصحبته ، ويختار منهم من يريد لوزارته ، وخص منهم أحمد بن أبى دؤاد بالرعاية والعطف والتقريب حتى انه أوصى أخاه المعتصم باشراكه معه فى أمره وقال له : « وأبو عبد الله بن أبى دؤاد ، فلا يفارقك ، وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ؛ فانه موضع لذلك منك »

فلما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له اعلان القول بخلق القرآن نشرا لمذهبهم ؛ وليكتسبوا بذلك اجلال العامة واحترامهم ؛ وصادف ذلك هوى فى نفسه ، فأعلن ذلك سنة ٢١٢ هـ وناظر من يغشى مجلس مناظرته فى هذا الشأن ، وأدلى فيها بحججه وأدلته ، ولكنه ترك الناس أحرارا فى عقائدهم ، لا يرهقون فى مذاهبهم ؛ ولا يحملون على فكرة لا يرونها ، ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض فى شأنها ، ولكن فى سنة ٢١٨ وهى السنة التى توفى فيها بدأ له (ولعل ذلك بوسوسة بعض أهل الاعتزال) أن يدعوا الناس بقوة السلطان على اعتناق القول بخلق القرآن ، بل أراد أن يحملهم على ذلك قهرا وغلبة ، وابتدأ ذلك بارسال كتابه وهو بالرقة الى اسحاق بن ابرهيم نائبه فى بغداد ، بامتحان القضاة والمحدثين ، ليحملهم على القول بخلق القرآن . ويظهر أنه كان يريد حمل الذين لهم شأن فى مناصب الدولة ، والذين يتصلون بالحكام بأى نوع من الاتصال ، ولو كانوا شهودا فى نزاع قد رفع أمره الى القضاء ، على تلك العقيدة ، فقد جاء فى آخر الكتاب الأول ، « فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ؛ فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن واحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده ، واستحفظه

من أمور رعتيه بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه . فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ؛ وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ؛ فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم . والأمر لهم بمثل ذلك . ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم . حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد » .

وترى من هذا أنه لم توضع عقوبة لمن لم يعتقد هذه العقيدة سوى الحرمان من مناصب الدولة ؛ وعدم سماع شهادته إن كان شاهدا ؛ ولم يعد كتابه الثانى ذلك فأحضر اسحاق بن ابراهيم القضاة واختبرهم ؛ ولم يكتف بذلك ؛ بل أحضر المحدثين أيضا ، وكل من تصدى للفتوى والتعليم والارشاد وامتحنهم ؛ وأرسل إجابتهم عن مسألته فى خلق القرآن إلى المأمون . فأرسل هذا كتابا (١) يبين سخف هذه الاجابات ؛ ويجرح المجيبين ويسلقهم بقارص القول وعنيف الكلام . ثم ذكر فى هذا الكتاب عقوبات لمن لم يقل مقالته ، إذ أمر بحمل من لم يقل اليه موثقاً . وقال « ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا . ولم يقل ان القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدى (٢) فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم الى عسكر أمير

---

(١) ستجىء اليك هذه الكتب فى باب المختار من المناظرات فى ذلك

(٢) قد ذكر فى كتابه أنهما ان لم يقولا يقتلان

المؤمنين ، ويسلمهم الى من يؤمن بتسليمهم اليه ، لينصهم أمير المؤمنين . فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله » .

وترى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان الى الانذار بعقوبة الاعدام .
وقد سارع اسحاق ابن ابراهيم الى تنفيذ رغبته وإجابة طلبته ، من غير مراجعة أو توان ، فأحضر الفقهاء والمفتين وأنذرهم بالعقوبة الصارمة ، والعذاب العتيد ، إن لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلبوا وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب ، ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم ، واطمأنوا الى حكم الله ، وآثروا الباقيه على الفانية . ولم يرضوا بالدنية فى دينهم أصروا على موقفهم إصرارا جريئاً ، وهم أحمد ابن حنبل ، ومحمد بن نوح والقواريرى ، وسجادة ، فشدوا فى الوثاق وكبلوا بالحديد ، وباتوا ليلتهم مصفدين فى الأغلال ، فلما كانوا فى الغد أجاب سجاده اسحاق فيما يدعوه اليه ، فخلوا عنه وأطلقوا من قيوده ، واستمر الباقون على حالهم ورضوا بتقييد الأشباح فى سبيل انطلاق الافراح .

وفى اليوم التالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب اليهم ، فخارت نفس القوارى ، وأجابهم الى ماطلبوا ، ففكوا قيوده ، وبقى اثنان الله معهما فسيقا فى الحديد ليلتقوا بالمأمون فى طرسوس ، وقد استشهد ابن نوح فى الطريق . والذين أجابوا طلب منهم أن يواجهوا المأمون أحرارا . وقدموا كفلاء بأنفسهم ليوافوه بطرسوس كأخويهم . وبينما هم فى الطريق نعى الناعى المامون ، ولكنه عفا الله عنه لم يودع هذه الدنيا من غير أن يوصى أخاه المعتصم بالتمسك بمذهبه فى القرآن ودعوة الناس اليه بقوة

السلطان وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت على رأسه دين واجب الاطاعة، وواجب لا يبرأ عنقه منه من غير أن يوصى خلفه به ، فوصاه

فقد جاء فى مطلع وصيته « هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هرون أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد هو ومن حضره أن الله عز وجل وحده ، لا شريك له فى ملكه ، ولا مدبر لأمره غيره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئا له مثل ، ولا شىء مثله تبارك وتعالى »

وجاء فى وسط الوصية : « يا أبا اسحاق ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن »

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون ، بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شرا مستطيرا على المتوقفين من الزهاد والعلماء والفقهاء والمحدثين ، وأهل الفتيا فى الدين

استمر البلاء بأحمد بن حنبل ، ومزق جسمه بالسياط ، وهو راض بالبلاء غير مستهين بعقيدته . واستمر فى الحبس نحو ثمانية وعشرين شهرا ؛ حتى استيئسوا منه ، وعلموا أنه لا يجيب دعاءهم ، ويؤثر بالاجابة دعاء النفس والوجدان ، وما يراه واجب الاعتقاد ، وجزءا من الايمان . ثم أطلق سراحه فعاد إلى ما كان عليه من الافتاء والتحديث إلى أن مات المعتصم . ولما آل الأمر إلى الواثق سار على سنة أبيه وعمه فى هذه المسألة ، وانزال المحنة بمن لا يراها . ولكنه لم يرد أن ينزل بأحمد أكثر مما نزل به ، فقال له : « لا تجمعن إليك أحدا ، ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الامام أحمد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها ، حتى مات الواثق »

ولم تكن المحنة مقصورة على أحمد ، بل تجاوزته إلى غيره ، وكان

الفقهاء يساقون من الأمصار إلى بغداد ؛ ليختبروا في هذه المسألة ؛ ويفتش عن خبايا قلوبهم . وممن نزل به ذلك يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الامام الشافعى فقد دعى القول بما يقولون فامتنع ؛ فحمل مقيدا مغلولا ، حتى مات فى أصفاده ، محتسباً ذلك عند ربه ؛ ومنهم نعيم بن حماد ، فقد مات فى سجن الواثق مقيدا لذلك ، ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق ، وصلبه لامتناعه عن الخوض فيما يخوضون فيه ، وقد قيل إن ثمامة بن أشرس هو الذى سعى به اليه . ويروى أن الواثق ندم على قتله ، وعاتب ثمامه وكل من أشار عليه بقتله .

فى هذه الفتنة الصماء التى خفت فيها صوت الحكمة ، وفى هذه الشدة الطخياء التى سكت نداء الرحمة، عاش العلماء سنين ، وكان التورع عن الخوض جريمة لا تغتفر ، وإثما لا يعفى عنه ، وحوباً كبيرا لا يعذر فيه مؤمن لسابق عمله ، أو حسن سيرته ؛ أو صلاحه واحترام الناس له .

وقد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى ، حتى سئم الناس هذه الحال ، بل حتى سئمها القائمون بها ، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس . يروى أنه دخل عبادة المضحك على الواثق ، فقال يا أمير المؤمنين ، أعظم الله أجرك فى القرآن . قال ويلك ، القرآن يموت . قال يا أمير المؤمنين ، كل مخلوق يموت . بالله يا أمير المؤمنين ، من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال : قاتلك الله ، أمسك .

ويروى الدميرى فى كتاب حياة الحيوان أن الواثق رجع فى آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لا يرى هذا الرأى؛ إذ دخل عليه شيخ ممن نزلت به المحنة فقال فى ضمن مجادلته مع ابن أبى دؤاد « شىء لم يدع اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا على تدعو أنت الناس

إليه ، ليس يخلو أن تقول علموه ، أوجهلوه ، فان قلت علموه ، وسكتوا عنه، وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم . وإن قلت جهلوه ، وعلمته أنت ، فيالكع ابن لكع ، يجهل النبي صل الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئاً ، وتعلمه أنت »

فلما سمع الواثق ذلك وثب من مجلسه ، وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعفا عن الشيخ ، ورجع عما كان يفعل ، كما روى ابنه المهتدى .

موضع النزاع فى هذه المسألة : لم يكن النظر فى الواقع متلاقيا حول محور واحد فى هذه المسألة ؛ فأحد المتناظرين وهم المعتزلة، والخلفاء ، وكل من له يد فى هذه المحنة يرى أن القرآن شىء وإن كان أعلى من كل الأشياء ، وأن الله جعله ، وخلقه ، وإن كان أعلى من كثير من المخلوقات، والآخرون نظروا إلى ان القرآن من حيث معانيه وكلام الله القائم ؛ وكلام الله قديم ؛ اذ هو صفة من صفاته فقد وصف الله سبحانه وتعالى بالكلام ، فقال « وكلم الله موسى تكليما » ولا يمكن أن تكون صفة من صفات الله محدثة

ولما اشتدت حومة الجدل ، وحمى الوطيس رضى الأكثرون من العلماء والفقهاء والمحدثين أن يتوقفوا ، ولا يخوضوا ، وأن يسكتوا عن أمر لم يرد فى كتاب ولا فى سنة،وإنك لتجد ذلك فى أجوبة كثيرين ممن امتحنهم اسحاق ابن ابراهيم اجابة لطلب المأمون،اذكانت أجوبتهم تدور حول التوقف؛ والامتناع عن الخوض ، والامساك عن الأمر . وانظر إلى اجابة بشر بن الوليد،فاسحاق يقول له : « ما تقول فى القرآن ؟ فقال أقول فى القرآن هو كلام الله . قال لم أسألك عن هذا،أمخلوق هو ؟ قال الله خالق كل شىء . قال : القرآن شىء؟قال هو شىء . قال فمخلوق. قال ليس بخالق . قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك »

وانظر إلى اجابة أبى حسان الزيادى ، إذ قال له اسحاق : « القرآن مخلوق

هو ؟ قال القرآن كلام الله ؟ والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم ما لم نعلم . وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ...» وترى من هاتين الاجابتين كيف كان القوم متوقفين ، لا يريدون الخوض فى هذا الحديث ، ولا يحبون اثارة الفتنة حوله ؛ ولذا نستطيع أن نقول إن المناظرة كانت مناظرة قوم قد اعتنقوا مذهبا مع آخرين قد امتنع الأكثرون منهم عن الخوض فى موضع النزاع ، ولم يروا أن يتكلموا فيه ، لعدم وروده فى قرآن أو سنة ، ولعدم تعرض السلف الصالح له وقليل منهم من كون له اعتقادا مناقضا لما قال المعتزلة .

ومن هنا نرى ظلم المأمون ؛ اذ سن سنة سيئة ، فأخذ يمتحن الناس فى عقيدتهم ، ويحملهم على قول لم يجدوا من ورعهم ودينهم ما يشجعهم على الخوض فيه ، اذ لم يرد به شرع ، ولم يثبت بنص ، ولم يعرف أن أحدا من أصحاب الرسول تعرض له وناقش فيه ، فليس بكافر من امتنع عن الخوض ، بل هو أقرب الى الرشاد ، وأولى إلى السداد .

مختار من الجدل فى خلق القرآن

١ - مجلس مناظرة

لما أعلن المأمون القول بخلق القرآن ، وزخرت مجالسه بالمناقشة فيه قبل نزول المحنة وبعدها ، تقدم رجل من أهل مكة اسمه عبد العزيز بن يحيى الكنانى لاعلان رأيه فى هذا المقام ، وهو إنكار ما يدعون ، فرحل الى بغداد ، ووقف فى مسجد الرصافة ، وقال بصوت جهير يسمعه كل من فى المسجد: « القرآن كلام الله منزل غير مخلوق » فحمل إلى المأمون ، وشارك الناس فى مجلس مناظرته ، وتقدم لاقناعه ، وافهامه بشر بن غياث المريسى الفقيه

الذى قدمنا الكلام فى بعض شأنه ، وقد دون عبد العزيز تلك المناظرة فى رسالة سماها الحيدة . وها نحن أولاء نقتبس لك منها شيئاً يدل على نسقها ؛ وأساليب الجدل فيها :

قال بشر (مستدلا على خلق القرآن) : قال الله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً »

قال عبد العزيز: أى شىء فى هذا من الحجة والدليل على خلقه؟

فقال بشر : هل فى الخلق أحد يشك فى هذا ، أو يخالف عليه ، ان معنى جعلناه خلقناه

قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إن القرآن نزل بلسانك ولسان قومك وأنت أعلم أهل الأرض بلغة قومك ، ولغة العرب كلها ، ومعانى كلامها ، وبشر رجل من أبناء العجم ، يتأول كتاب الله تعالى ، على غير ما أنزل الله ، وغير ما عناه الله عز وجل ، ويحرفه عن مواضعه ، ويبدل معانيه ، ويقول ما تنكره العرب وكلامها ولغاتها ، وأنت أعلم خلق الله بذلك ، وانما يكفر بشر الناس ، ويستبيح دماءهم بتأويل ، لا بتنزيل

قال بشر : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، يروغ عبد العزيز الى الكلام والخطب والاستعانة بأمير المؤمنين ؛ لينقطع المجلس.. قد أتيتك بما لا تقدر على رده ، ولا التشبيه فيه ؛ لينقطع المجلس بثبات الحجة عليك ، وايجاب العقوبة لك ، فان كان عندك شىء ، فتكلم به ، والا فقد قطع الله مقالتك ، وأدحض حجتك ..

قال عبد العزيز : يا بشر ، أخبرنى عن (جعل) هذا الحرف لحكم لا يحتمل غير الخلق ؟

قال بشر: لا ، وما بين جعل وخلق عندى فرق ، ولا عند غيرى من

سائر الناس من العرب والعجم ، ولا يتعارف الناس إلا هذا

قال عبد العزيز : أخبرنى عن نفسك ، ودع ذكر العرب وسائر الناس ، فأنا من الناس ، ومن الخلق ، ومن العرب ، وأنا أخالفك على هذا ، وكذلك سائر العرب يخالفونك

قال بشر : هذه دعوى منك على العرب ، وكل العرب والعجم يقولون ما قلت أنا ؟ وما يخالف فى هذا غيرك

قال عبد العزيز : أخبرنى يا بشر ، اجماع العرب والعجم بزعمك أن جعل وخلق واحد ، لا فرق بينهما فى هـذا الحرف وحده ، أو فى سائر ما فى القرآن من (جعل)

قال بشر : بل ما فى سائر القرآن من جعل ، وسائر ما فى الكلام والأخبار والأشعار

قال عبـد العزيز : قد حفظ عليك أمير المؤمنين ما قلت ، وشهد به عليك

قال بشر : أنا أعيد عليك هذا القول متى شئت ، ولا أرجع عنـه . ولا أخالفه

قال عبد العزيز لبشر : زعمت أن معنى « جعلناه قرآنا عربيا » خلقناه قرآناً عربياً . قال نعم هكذا

قال عبد العزيز : قال الله عز وجل « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » خلقتم الله عليكم كفيلا ، لا معنى له عند بشر غير ذلك . . . ومن قال هذا فقد أعظم الفرية على الله عز وجل ، وكفر به ، وحل دمه باجماع الأمة . وقال الله عز وجل . « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فزعم بشر أن معنى ولا تجعلوا الله

ولا تخلقوا الله ، لا معنى له عنده غير ذالك .. وكل من قال هذا من الخلق فهو كافر حلال الدم باجماع الأمة ؛ لأنه حكى أن الله أخبر بمثل هذا . وقال الله عز وجل «ويجعلون لله البنات سبحانه» فزعم بشر أن معنى ويجعلون لله البنات ، يخلقون لله البنات ، لا معنى لذلك غير هذا . فقال المأمون : ماأقبح هذه المقالة ،وأعظمها،وأشنعها!! لحسبك يا عبد العزيز ؛ فقد صح قولك ، وأقر شر بما حكيت عنه ، وكفر نفسه من حيث لم يدر

قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لى أن أنتز ع بآيات بقيت واختصر . قال المأمون : قل ما شئت . قال عبـد العزيز : قال الله عز وجل « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سـبيله » فزعم بشر أن معنى جعلوا لله خلقوا لله أندادا ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم ؛ إذ كان قد أخبر بمثل هذا عن الله عز وجل . وقال : « وجعلوا لله شركاء الجن » فزعم بشر أن معنى جعلوا خلقوا لله ؛ لا معنى لذلك غير هذا ، ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم باجماع الأمة ...

قال المأمون : حسبك فقد أثبت حجتك كلها فى هذه المسألة ، وانكسر قول بشر ، وأبطلت دعواه ، فارجع الى بيان ماقد انتزعت ؛ وشرحه ومعانيه ، وما أراد الله عزوجل به ، وما هو من(جعل) مخلوق ؛ وما هو غير مخلوق ،وما تتعامل به العرب فى لغاتهم

قال عبدالعزيز : يا أمير المؤمنين ، إن (جعل) فى كتاب الله يحتمل معنيين ، معنى خلق ، ومعنى صير .. ولما كان جعل يحتمل معنيين : معنى خلق ؛ ومعنى صير ، لم يدع الله فى ذلك اشتباها على خلقه ، فيلحد الملحدون ؛ ويشبه المشبهون على خلقه ، كما فعل بشر وأصحابه ؛ حتى جعل عز وجل على كل من الكلمتين علماً دليلا ـ فرق بين (جعل) الذى بمعنى خلق و (جعل) الذى

بمعنى صير · فأما جعل الذى هو معنى خلق ، فان الله جعله من القول المفصل ؛ فأنزل القرآن به مفصلا ، وهو بين لقوم يفقهون ، والقول المفصل يغنى السامع إذا أخبر به ، عن أن توصل الكلمة بغيرها من الكلام ، إذ كانت قائمة بذاتها على معناها ؛ فمن ذلك قول الله عز وجل ، « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » فسواء عند العرب ، قال جعل أو قال خلق ؛ لأنها قد علمت أنه أراد بها خلق ، لأنه انزله من القول المفصل وقال « جعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » فقالت العرب إن معنى هذا . وخلق لكم ، إذ كان قولا مفصلا . وقال « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » فعقلت العرب عنه ، إنه عنى خلق لكم ؛ إذ كان من القول المفصل ، فسواء قال خلق ، أو جعل ، وأما (جعل) الذى هو على معنى التصيير ، لا معنى الخلق فان الله عز وجل أنزله من القول الموصل الذى لا يدرى المخاطب به ، حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها ، فيعلم ما أراد بها ؛ وإن تركها مفصولة لم يصلها بغيرها من الكلام لم يفهم السامع لها ما يعنى بها ، ولم يقف على ما أراد بها ، فمن ذلك قوله عز وجل . « يا داود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض » فلو قال « إنا جعلناك ولم يصلها بخليفة فى الأرض ، لم يعقل داود ما خاطبه به عز وجل ، لأنه خاطبه وهو مخلوق ، فلما وصلها بخليفة عقل داود ما أراد بخطابه وكذلك حين قال لأم موسى « وجاعلوه من المرسلين » · · · فأرجع أنا وبشر يا أمير المؤمنين فيما أختلفنا فيه من قول الله عزوجل : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » إلى سنة الله فى كتابه فى الجعلين جميعاً ، والى سنة العرب أيضاً مما تتعارفه ، وتتعامل به ، فان كان من القول الموصل ؛ فهو كما قلت ؛ إن جعله قرآن عربياً ، أى صيره قرآن عربياً ، وأنزله بلغة العرب ولسانها ،

ولم يصيره عجمياً ، فيبين له بلغة العجم ..... (تراجع رسالة الحيدة كلها) .

المناظرة الثانية

٣ـ كتب المأمون فى القول بخلق القرآن

كتب المأمون إلى ولاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن ، وهو ما أرسله الى نائبه اسحاق بن ابراهيم ، وما يرويه لنا الطبرى فى نص كتابه ، وهو :

(أما بعد) فان حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد فى اقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ؛ وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ؛ والأقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامه ، ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الاقطار والآفاق ، أهل جهالة ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه ، وتوحيده ، والايمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ؛ وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى . وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجين ، على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ؛ ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل فى محكم كتابه : الذى جعله لما فى الصدور

شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى « انا جعلناه قرآنا عربياً » فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور » وقال عز وجل « كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق » فأخبر أنه قصص لامور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها . وقال « الر، كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وكل محكم مفصل دخله محكم منفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ، ثم هم الذين جادلوا بالباطل ؛ فدعوا الى قولهم، ونسبوا أنفسهم الى السنة ؛ وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ، ونحلتهم . ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرو به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم ، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالتهم ؛ فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونغل أديهم ، وفساد دياناتهم ، ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى اليها جروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم . وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه . أولئك الذين أصمهم الله واعمى ابصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الامة ، ورءوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الايمان نصيباً ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، لسان ابليس الناطق فى أوليائه ، والمائل على اعوائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه

وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فانه لا عمل إلا بعد يقين ، وإلا بعد استكمال حقيقة الاسلام ، واخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من أهـل الايمان بالله وبتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله ، والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا . ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته من كـذب على الله ووحيه،ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه،وبهت حق الله بباطله ؛ فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتـكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن واحداثه ، واعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فاذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنوة . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والامر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم ، وتفقد آثارهم حتى لاتنفذ أحكام الله الابشهادة أهل البصائر فى الدين والاخلاص للتوحيد.واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله.وكتب فى شهر ربيع الاول سنة ٢١٨ هـ

وكتب المأمون إلى اسحاق بن ابراهيم ــ فى أشخاص سبعة نفر ــ منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ؛ ويحيى بن معين،وزهير بن حرب،وأبوخيثمة ، واسماعيل بن داود،واسماعيل بن أبى مسعود وأحمد بن الدورقى،فاشخصوا اليه،فامتحنهم،وسألهم عن خلق القرآن ، فاجابوا

جميعاً أن القرآن مخلوق،فاشخصهم الى مدينة السلام ، وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره،فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فاقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم ، وكان ما فعل اسحاق بن ابراهيم من ذلك بأمر المأمون

وكتب المأمون بعد ذلك الى اسحاق بن ابراهيم

(أما بعد) فان من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لاقامة دينه،وحملهم رعاية خلقه،وامضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله فى بريته أن يجهدوا الله أنفسهم ،وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا اليه من زاغ عنه،ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم،ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم،وأن يؤثروا ذلك من ارشادهم وتبصيرهم ،اذ كان جامعاً لفنون مصانعهم،ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله وحده،وحسبه الله وكفى به،ومما بينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ،فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله اماما لهم ، وأثرا من رسول الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم باقبالهم واشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم ، وتزين فى عقولهم الا يكون مخلوقا فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله والذى بان به عن خلقه وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته،وانشائها بقدرته،والتقدم عليها بأوليته التى لا يبلغ

أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، اذ كان كلمة الله والله عزوجل ، يقول « انا جعلناه قرآنا عربيا » وتأويل ذلك « انا خلقناه كما قال جل جلاله « وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقال وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » وقال « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فسوى عز وجل بين القرآن ، وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شبه الصفة ؛ وأخبر أنه جاعله وحده . فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ؛ فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ؛ ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » وقال : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » وقال . « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا « ما أنزل الله على بشر من شىء » ثم أكذبهم على لسان رسوله ؛ فقال لرسوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا » فسمى الله تعالى القرآن ذكرا ، وايمانا ونورا وهدى ، ومباركا ، وعربيا ، وقصصا ، فقال « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » وقال : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله » وقال « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، وقال « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ؛ والجرح فى أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والالحاد فى قلوبهم ؛ حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ؛ وشبهوه به والاشياء أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا على الدين ،

ولا نصيبا من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل احدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية،ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وان ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فان الفروع مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ؛ ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا.

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به اليك ، وانصصهما عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ،وإنه لا توحيد إلا لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فان قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم اليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق،ونصهم عن قولهم في القرآن ؛ فمن لم يقل منهم إنه مخلوق ابطلا شهادته ولم يقطعا حكما بقوله ؛ وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره ؛ وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ؛ وأشرف عليهم اشرافا يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ؛ ويمنع المرتاب من اغفال دينه ؛ واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله

فاحضر اسحاق بن ابراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين وأحضر أبا حسان الزيادي،وبشر بن الوليد الكندي ؛ وعلى بن أبي مقاتل بن غانم ؛ والذيال بن الهيثم ؛ وسجادة ؛ والقواريري ؛ واحمد بن حنبل ؛ وقتيبة وسعدويه الواسطي، وعلى ابن الجعد ، واسحاق بن أبي اسرائيل . وابن الهرش وابن علية الاكبر ، ويحيي ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضي الرقة ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعي ، ومحمد

ابن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المضروب ، وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر بن شميل،وابن على بن عاصم ، وأبو العوام البزاز وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن اسحاق . فادخلوا جميعاً على اسحاق فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين،حتى فهموه،ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فقال : أقول القرآن كلام الله . قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال الله خالق كل شىء قال القرآن شىء ؟ قال هو شىء قال فمخلوق ؟ قال ليس بخالق فال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك.وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه،وليس عندى غير ما قلت لك.فأخذ اسحاق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه،فقرأها عليه،ووقفه عليها فقال أشهد أن لا إله الا الله أحد فرد لم يكن قبله شىء، ولا بعده شىء ولا يشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى،ولا وجه من الوجوه.قال: نعم وقد كنت أضرب الناس على دون هذا فقال للكاتب.اكتب ماقال

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل ماتقول يا على ؟ قال سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، وما عندى غير ما سمع،فامتحنه بالرقعة،فاقر بما فيها،ثم قال القرآن مخلوق ؟ قال القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء ، سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلى بن أبى مقاتل . فقال له مثل ذلك، ثم قال لأبى حسان الزيادى ماعندك ؟ قال سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال من لم يقل هذا القول ، فهو كافر . فقال القرآن مخلوق هو ؟ قال القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما دون الله

مخلوق ، وأمير المؤمنين أمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا فسار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدي اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه،ونرى امامته امامة ، وان أمرنا ائتمرنا ، وان نهانا انتهينا ، وان دعانا أجبنا.قال القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال ان هذه مقالة أمير المؤمنين . قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به ، فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء ،فان أبلغتنىعنه بشىء صرت اليه، قال ماأمرنى أن أبلغك شيئاً قال على بن أبى مقاتل ، قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرنى آتمر . قال ما أمرنى أن آمرك ، وانما أمرنى أن أمتحنك

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال ما تقول فى القرآن ؟ قال هو كلام الله قال أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله ، لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى إلى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وأمسك عن لا يشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر . فقال : أصلحك الله ، انه يقول سميع من اذن ، بصيرمن عين.فقال اسحاق لاحمد بن حنبل ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال هو كما وصف نفسه . قال فما معناه ؟ قال لا أدرى ، هو كما يصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا كلهم يقول:القرآن كلام الله ، إلاهؤلاء النفر . قتيبة ، وعبيد الله ابن محمد بن الحسن ، وابن علية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منبه، والمظفر بن مرجان، ورجلا ضريرا ليسمن أهل الفقه

ولا يعرف بشيء منه، إلا أنه دس فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرمة ، وابن الاحمر . فاما ابن البكاء الأكبر، فانه قال. القرآن مجعول لقول الله تعالى « انا جعلناه قرآناً عربياً » ، والقرآن محدث لقوله « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » قال له اسحاق فالمجعول مخلوق؟ قال نعم قال فالقرآن مخلوق ؟ قال لا أقول مخلوق ولكنه مجعول . فكتب مقالته فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الاصغر فقال . أصلحك الله . إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما . فأعادا الكلام قال له اسحاق هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين . قال فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لتحكى ذلك عنهما . قال له اسحاق ان شهدت عندهما بشهادة، فستعلم مقالتهما إن شاء الله فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون فمكث القوم تسعة أيام، ثم دعا بهم، وقد ورد كتاب المأمون هو جواب كتاب اسحاق بن ابراهيم فى أمرهم وها هو ذا .

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه كان اليك فيما ذهب اليه متصنعة أهل القبلة ، ومتلمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن . وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم واحلالهم محالهم ، تذكر احضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ؛ وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدلالة على حظهم ، وإطباقهم على نفى التشبيه . واختلافهم فى القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم أنه مخلوق بالامساك عن الحديث ، والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك الى السندى وعباس مولى

أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم الى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب اسماء من حضروا مقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت ، وأمير المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهله ، ويسأله أن يصلى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، وما رجعت اليك فيه كل امرىء منهم ، وما شرحت من مقالتهم ، فاما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك ، وكفر ، وقال الزور والمنكر . ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره ، عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الاخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به اليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانصصه عن قوله فى القرآن ، واستتبه منه ، فان أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح ، والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فان تاب منها فاشهر أمره ، وأمسك عنه ، وان أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه ان شاء الله ، وكذلك ابراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما امتحنت به بشرا ، فانه كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ ، فان قال ان القرآن مخلوق ،

فاشهر أمره واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه وابعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما على بن أبى مقاتل فقل له : الست القائل لأمير المؤمنين انك تحلل وتحرم ، والمتكلم له بمثل ما كلمته به مما لم يذهب عنه ذكره ؛ وأما الذيال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الانبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله ، وانه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ، ومحتذيا سبيلهم ، لما خرج الى الشرك بعد ايمانه ، وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام وقوله إنه لا يحسن الجواب فى القرآن ، فاعلمه أنه صبى فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل وإنه إن كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه ، اذا أخذه التأديب ، ثم ان لم يفعل كان السيف من وراء ذلك ان شاء الله

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه ، فاعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها . وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك ، فانه من كان شأنه ، وكانت رغبته فى الدنيا الدرهم ، فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعا فيهما ، وايثارا لعاجل نفعهما ، وانه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه . فما الذى حاد به عن ذلك ؛ ونقله الى غيره . وأما الزيادى ، فاعلمه أنه كان منتحلا لأول دعى كان فى الاسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون موليا لزياد أو يكون موليا لأحد

من الناس ، وذكر أنه إنما نسب الى زياد لأمر من الأمور . وأما المعروف بأبى نصر التمار فان أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره

وأما الفضل بن الفرخان فاعلمه أنه حاول بقوله الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن اسحاق وغيره،تربصا بمن استودعه ، وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه من تقادم عهده ، وتطاول الأيام به . فقل لعبد الرحمن بن اسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك اياه ، وهو معتقد للشرك ؛ منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى معمر، فاعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم ، إلا لاربائهم ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا ،وصاروا للنصارى مثلا ، وأما أحمد بن شجاع، فاعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام ، وانه من الدينار والدرهم دينه . وأما سعدويه الواسطى فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به ، والحرص على طلب الرياسة فيه ان يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها : متى يمتحن فيجلس للحديث . وان المعروف بسجاده ، وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق ، فاعلمه أنه فى شغله باعداد النوي وحكه لاصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها اليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد، والهاه،ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن يقولانه ان كان شاهدهما وجالسهما ، وأما القواريرى ففيم تكشف من

أحواله، وقبوله الرشا ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه.وقد انتهى الى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله فتقدم الى جعفر بن عيسى فى رفضه ، وترك الثقة به ، والاستهانة اليه

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى ، فان كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف ، وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم ، فانه كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التى حكيت ، وأنه بعد صبى يحتاج الى التعلم ، وقد كان أمير المؤمنين وجه اليك المعروف بأبى مسهر ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن ، فجمجم عنها ، ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف،فاقر ذميما فانصصه عن اقراره فان كان مقيما عليـه ، فاشهر ذلك وأظهره ان شاء الله ؛ ومن لم يرجع عن شركـه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكر أمير المؤمنين وأمسك عن ذكره فى كتابه ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدى فاحملهم أجمعين ، موثقين الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم فى طريقهم حتى يؤديهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم لمن يأمر بتسليمهم اليه ،لينصهم أمير المؤمنين،فان لم يرجعوا ويتوبو حملهم جميعاً على السيف انشاء الله ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد وادراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فانفذ لمـا أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ليعرف أمير المؤمنين ما يعملونه ان شاء الله

٣ - مناظرة(١) احمد بن أبى دؤاد لشيخ فى مجلس الواثق

أدخل على الواثق شيخ من أهل الشام مقيدا ، وهو جميل الوجه ، تام القامة ، حسن الشيبة، فاستحيا منه ، ورق له ، فما زال يدنيه ويقربه ، حتى قرب منه ، فسلم الشيخ بأحسن السلام ، ودعا بأبلغ الدعاء ، وأوجزه

فقال له الواثق : اجلس . ثم قال له : يا شيخ ، ناظر ابن أبى دؤاد على ما يناظرك عليه . قال الشيخ يا أمير المؤمنين ، ان ابن أبى دؤاد يقل ، ويصغر ويضعف عن المناظرة . فغضب الواثق ، وقال: أبو عبد الله بن أبى دؤاد يقل ويصغر ، ويضعف عن مناظرتك أنت. فقال الشيخ هون عليك يا أمير المؤمنين ما بك ، وائذن لى فى مناظرته . فقال الواثق : ما دعوتك إلا للمناظرة . فقال الشيخ : يا أحمد بن أبى دؤاد إلى م دعوت الناس ، ودعوتنى اليه . فقال : إلى أن تقول القرآن مخلوق ؛ لأن كل شىء من دون الله مخلوق

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت أن تحفظ على وعليه ما تقول، قال : أفعل. فقال: يا أحمد ، أخبرنى عن مقالتك هذه ، أواجبة داخلة فى عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملا ، حتى يقال فيه ما قلت

قال ابن أبى دؤاد : نعم

فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله عز وجل ، هل ستر شيئا مما أمره الله به فى دينه ؟

---

(١) هذه المناظرة مروية عن الواثق رواها ابنه المهتدى ، وهى بأكملها فى كتاب حياة الحيوان للدميرى .

قال ابن دؤاد : لا

فقال الشيخ : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى مقالتك هذه ؟ فكست ابن أبى دؤاد

فقال الشيخ له :تكلم، فالتفت الشيخ الى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين، واحدة ، فقال الواثق : واحدة

قال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن آخر ما نزل الله من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا . فقال الشيخ : أ كان الله تبارك وتعالى الصادق فى اكمال دينه ، أم أنت الصادق فى نقصانه ؛ فلا يكون الدين كاملا ، حتى يقال فيه مقالتك هذه ، فسكت ابن أبى دؤاد . فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجب . فقال الشيخ . يا أمير المؤمنين : اثنتان . فقال الواثق : اثنتان .

فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرنى عن مقالتك هذه ، أعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم جهلها ؟ فقال ابن أبى دؤاد : علمها ، فقال الشيخ : أدعا الناس اليها ؟ فسكت ابن أبى دؤاد ، فقال الشيخ . يا أمير المؤمنين ، ثلاث . فقال الواثق : ثلاث

فقال الشيخ . يا أحمد فاتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما زعمت ، فلم يطالب أمته بها ، قال . نعم

فقال الشيخ . واتسع لأبى بكر رضى الله عنه ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ، قال ابن أبى دؤاد : نعم . فأعرض الشيخ عنه ، وأقبل على الواثق ، وقال . يا أمير المؤمنين قد قدمت القول أن أحمد يقل، ويصغر ، ويضعف عن المناظرة ، يا أمير المؤمنين،

إن لم يتسع لك من الامساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فلا وسع الله على من لم يتسع له ما اتسع لهم .

فقال الواثق : نعم إن لم يتسع لنا من الامساك عن هذه المقالة ، ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبى بكر ، وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، فلا وسع الله علينا ، اقطعوا قيد الشيخ ، فلما قطعوا قيده ، ضرب الشيخ بيده إلى القيد ؛ ليأخذه ، فجذبه الحداد اليه ، فقال الواثق . دع الشيخ ، ليأخذه ؛ فأخذه الشيخ ، فوضعه فى كمه ، فقيل للشيخ . لم جاذبت عليه : فقال الشيخ . لأنى نويت أن أتقدم الى من أوصى اليه ، إذا أنا مت أن يجعله بينى ، وبين كفنى ، حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة وأقول . يا رب ، سل عبدك ، هذا ، لم قيدنى ، وروع أهلى وولدى واخوانى بلا حق أوجب ذلك على ، وبكى الشيخ ، وبكى الواثق ، ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه . فقال الشيخ : والله يا أمير المؤمنين ، قد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم اكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ اذ كنت رجلا من أهله . فقال الواثق : لى إليك حاجة . فقال الشيخ . ان كانت ممكنة فعلت ، فقال الواثق تقيم قبلنا ، فتعلم فتياننا ، فقال الشيخ يا أمير المؤمنين إن ردك إياى الى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عندك ، أصير الى أهلى وولدى ، فأكف دعاءهم ، فقد خلفتهم على ذلك

الاشاعرة والماتريدية

اشتد طغيان المعتزلة باسم الخلفاء ، ولم يتركوا فقيها معروفا ، أو محدثاً مشهورا أو إماما متبعاً إلا أنزلوا به محنة فى عقيدته ، وابتلاء فى فكرته . فكرههم الناس ، وصاحب ذكرهم ذكر البلاء والمحن ، وتأريث العداوات والأحن ، والقاء الشر فى النفوس ، والدس للعلماء عند السلطان ، حتى نسى الناس خيرهم بجوار ذلك الشر المستطير،والفتنة الطخياء ، والبلية العامة نسوا دفاعهم عن الاسلام وبلاءهم فيه وتصديهم لاهل الاهواء من الزنادقة والسمنية وغيرهم نسوا هذا كله ولم يذكروا لهم الا إغراءهم الخليفة بامتحان كل امام تقى ،وكل ندب محتسب وكل مفت نقى، وكل محدث مهدى . فلما جاء المتوكل وأبعدهم عن حظيرته وأدنى خصومهم اليه،وفك قيود العلماء ، وترك هذه المحنة خضدت شوكتهم، وتجرد لمنازلتهم المقاول من العلماء والفقهاء والمتكلمين،وجادلوهم بلسان عضب وحجةدامغة ،ومن ورائهم العامة يؤيدونهم والخاصة يناصرونهم. وظهر فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع رجلان امتازا بصدق البلاء، وكثرة الأتباع والأولياء ، أحدهماأبو منصور الماتريدى وثانيهما أبو الحسن الأشعرى، وكلاهما كان يدعو إلى ما كان يدعو اليه الفقهاء والمحدثون،ويناصرهم دون المعتزلة .

وقد ولد الأول بقرية (ماتريد) من أعمال سمرقند، وتفقه على مذهب أبى حنيفة،ونبغ حتى رجع الناس اليه فيما وراء النهر يأخذون عنه الفقه وأصوله وسائر علوم الدين ، وألف فى الأصول كتاب الجدل،وفى الفقه كتاب مآخذ الشريعة ، ثم ذاعت شهرته فى علم الكلام، حتى صار له مذهب يسلكه أهل خراسان يقارب مذهب الاشعرى الذى سنبينه ، وقد ذكر الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده فى تعليقاته على العقائد العضدية أن بين الماتريدية والاشاعرة خلافا فى نحو ثلاثين مسألة ، ولكن أكثر العلماء على أنها مسائل جزئية . والاختلاف فيها لفظى ، فهما متفقان فى الغاية وأكثر الوسائل . وقد ألف الماتريدى فى علم الكلام كتاب الرد على الكعبى المعتزلى ، وكتاب أوهام المعتزلة،وكتاب الرد على الرافضة ، وكتاب الرد على القرامطة ، وقد مات سنة ٣٣٢ هـ

أما الأشعرى فقد ولد بالبصرة،وتوفى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة بعد الهجرة .تخرج على المعتزلة فى علم الكلام،وتتلمذ لشيخهم فى عصره أبى على الجبائى ، وكان لفصاحته ولسنه يتولى الجدل والمناظرة نائبا عن شيخه،اذ كان هذا يجيد الكتابة والدفاع بالقلم ولايجيد النقاش باللسان . ولكن الأشعرى وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة فى تفكيرهم ، مع أنه تغذى من موائدهم ونال كل ثمرات فكرهم ، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين مع أنه لم يغش مجالسهم،ولم ينل العقائد على طريقتهم ؛ ولذا عكف فى بيته مدة ؛ وازن فيها بين أدلة الفريقين ، وانقدح له رأى بعد الموازنة،فخرج على الناس وجهر به ،وناداهم بالاجتماع عليه ، فرقى المنبر يوم الجمعة بالمسجد الجامع بالبصرة ؛ وقال :

أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى (أنا فلان بن فلان) كنت أقول بخلق القرآن،وان الله تعالى لا يرى بالابصار،وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع،متصد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة ؛ لأنى نظرت ، فتكافأت عندى الأدلة ؛ ولم يترجح عندى شىء على شىء ، فاستهديت الله تعالى ، فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد ، كما

انخلعت من ثوبى هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ، ودفع الى الناس ما كتبه على طريق الجماعة من الفقهاء والمحدثين ، وفيها ما أخذه على المعتزلة وما ناصر فيه الفقهاء والمحدثين. وقد بين مذهبه وما آخذه على المعتزلة اجمالا فى مقدمة كتابه الأبانة ، وقد جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على النبي : « أما بعد ، فأن كثيرا من المعتزلة ، وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد لرؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين ، فخالفوا رواية الصحابة عن نبي الله صلى الله عليه وسلم فى رؤية الله بالابصار ، وقد جاءت فى ذلك الروايات من الجهات المختلفات ، وتواترت الآثار ، وتتابعت به الاخبار ، وأنكروا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردوا الرواية فى ذلك عن السلف المتقدمين، وجحدوا عذاب القبر ، وان الكفار فى قبورهم يعذبون ، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون ، ودانوا بخلق القرآن نظيرا لقول اخوانهم من المشركين الذين قالوا : إن هـذا إلا قول البشر . فزعموا أن القرآن كقول البشر ، وأثبتوا وأيقنوا أن العباد يخلقون الشر نظيرا لقول المجوس الذين يثبتون خالقين : أحدهما يخلق الخير ، والآخر يخلق الشر . وزعموا أن الله عز وجل يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء خلافا ، لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان، ومالا يشاء لايكون ، وردا لقول الله . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » فأخبرنا أنا لا نشاء شيئاً ، إلا وقد شاء أن نشاءه ولقوله « ولو شاء الله ما اقتتلوا » ولقوله « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» ولقوله تعالى . « فعال لما يريد » ، ولقوله مخبرا عن شعيب أنه قال . « وما يكون لنا أن نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا » . ولهذا سماهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الامة ؛ لأنهم دانوا بديانة المجوس، وضاهوا أقوالهم ، وزعموا أن للخير والشر خالقين ، كما زعمت المجوس ، وأنه يكون من الشر مالا يشاء الله ، كما قالت المجوس ذلك ، وزعموا أنهم يملكون من الضر والنفع لأنفسهم ردا لقول الله تعالى « قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعاً إلا ما شاء الله »، وانحرافا عن القرآن ، وعما أجمع عليه المسلمون ، وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم . وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل ، ووصفوا أنفسهم بالقدرة على مالم يصفوا الله بالقدرة عليه ، كما أثبت المجوس للشيطان من القدرة على الشر مالم يثبتوه لله عز وجل ، فكانوا مجوس هذه الأمة . إذ دانوا بديانة المجوس ، وتمسكوا بأقوالهم ، ومالوا على أضاليلهم وقنطوا الناس من رحمة الله ، وآيسوهم من روحه . وحكموا على العصاة بالنار والخلود ، خلافا لقول الله تعالى : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وزعموا أن من دخل النار لم يخرج منها خلافا لما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الله عز وجل يخرج من النار قوما بعد ما امتحشوا فيها ، وصاروا حمما . ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وأنكروا أن يكون لله يدان مع قوله : « لما خلقت بيدي » وأنكروا أن يكون لله عين مع قوله : « تجرى بأعيننا » وقوله « ولتصنع على عيني » ونفوا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله « إن الله ينزل الى السماء الدنيا » . وأنا ذاكر ذلك إن شاء الله بابا ، بابا ، وبه المعونة والتأييد ، ومنه التوفيق والتسديد . فان قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة . والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له قولنا الذي به نقول ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما

روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه . ورفع درجته ، وأجزل مثوبته وعن خالف قوله مجانبون ، لأنه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين . وشك الشاكين . فرحمة الله عليه من امام مقدم . وكبير مفهم وعلى جميع أئمة المسلمين ، وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئا ، وأن الله إله واحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وان محمد عبده ورسوله ، وان الجنة والنار حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله استوى على عرشه ، كما قال الرحمن على العرش استوى ، وأن له وجهاً كما قال : ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، وأن له يدا كما قال : بل يداه مبسوطتان . وأن له عيناً بلا كيف كما قال : تجرى بأعيننا : وأن لله علماً : كما قال : أنزله بعلمه ، ونثبت لله قدرة كما قال « أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ونثبت لله السمع والبصر ، ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية ، ونقول ان كلام غير مخلوق وانه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن فيكون ، كما قال إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وأنه لا يكون فى الارض شىء من خير وشر إلا ماشاء الله . وأن الاشياء تكون بمشيئة الله . وأن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ، ولا نستغنى عن الله . ولا نقدر على الخروج من علم الله ، وأنه لاخالق الا الله . وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة له كما قال . والله خلقكم وما تعملون ، وأن العباد لايقدرون أن يخلقوا شيئاً . وهم يخلقون ، وكما قال أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون

وهذا فى كتاب الله كثير ، وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ، ولطف بهم ونظر لهم ، وأصلحهم كانوا صالحين ولو هداهم كانوا مهتدين كما قال تبارك وتعالى : من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ٠٠٠٠ وأنا نؤمن بقضاء الله وقدرة خيره وشره ، وحلوه ومره . ونعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ٠٠ ونقول ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن من قال بخلق القرآن كان كافرا . وندين أن الله يرى بالابصار يوم القيامة ؛ كما يرى القمر ليلة البدر . يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونقول ان الكافرين عنه محجوبون، كما قال الله عز وجل (كلا انهم عن ربهم لمحجوبون) ٠٠٠ ونرى أن لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه ، كالزنى ، والسرقة وشرب الخمر ، كما دانت بذلك الخوارج ، وزعموا أنهم بذلك كافرون . ونقول إن من عمل كبيرة من الكبائر مستحلا لها كان كافرا إذا كان غير معتقد تحريمها ٠٠٠ ونقول إن الله يخرج من النار قوما بعد ما امتحشوا بشفاعه محمد صلى الله عليه وسلم . ونؤمن بعذاب القبر ٠٠٠ وأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ٠٠٠ وندين بحب السلف الذين اختارهم لصحبة نبيه ، ونثنى عليهم بما أثنى الله عليهم ، ونتولاهم . ونقول ان الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضى الله عنه ، وأن الله أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين ٠٠ ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم عثمان نضر الله وجهه ، قتله قاتلوه ظلما وعدوانا ، ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه . فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافتهم خلافة النبوة ، ونشهد للعشرة بالجنة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ ، ونتولى سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونكف عما شجر بينهم ، وندين الله أن الائمة الأربعة راشدون مهديون

فضلاء لا يوازيهم فى الفضل غيرهم . ونصدق بجميع الروايات التى أثبتها أهل أهل النقل من النزول الى السماء الدنيا ،وأن الرب يقول « هل من سائل ؟ هل من مستغفر ؟ ..» وسائر ما نقلوه وأثبتوه .... ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والاقرار بأمامتهم ، وتضليل من رأى الخروج عليهم اذا ظهر منهم ترك الاستقامة . وندين بترك الخروج عليهم بالسيف وترك القتال فى الفتنة . ونقر بخروج الدجال . ونؤمن بعذاب القبر . ومنكر ونكير ، ونصدق بحديث المعراج، ونصحح كثيرا من الرؤيا فى المنام . ونرى الصدقة عن موتى المؤمنين والدعاء لهم، ونؤمن أن الله ينفعهم ... ونقول إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآياته . وقولنا فى أطفال المشركين إن الله عز وجل يؤجج لهم نارا فى الآخرة ،ثم يقول اقتحموها ، كما جاءت الرواية بذلك . ونرى مفارقة كل داعية لفتنة ومجانبة أهل الاهواء ، وسنحتج لما ذكرنا من قولنا ... »

هذه خلاصة قيمة لآراء الاشعرى بعد أن ترك الاعتزال، ودان بما تعتقده جماعة الفقهاء والمحدثين ،ونستنبط من هذا هذه الأمور

١ — أنه يرى أن يأخذ بكل ما جاء به الكتاب والسنة من عقائد ، ويحتج لها بكل وسائل الاقناع والالحام

٢ — أنه يأخذ بظواهر النصوص فى الآيات الموهمة للشبيه من غير أن يقع فى التشبيه ،فهو يعتقد أن لله وجها لا كوجه العبيد ، وأن لله يدا لا تشبه أيدى المخلوقات .

٣ — أنه يرى أن أحاديث الآحاد يحتج بها فى العقائد وهى دليل لاثباتها وقد أعلن اعتقاد اشياء ثبتت بأحاديث الآحاد .

٤ — أنه فى آرائه كان يجانب أهل الاهواء جميعاً والمعتزلة، ويجتهد فى

إلا يقع فيما وقع فيه كثير من المنحرفين .

وفى الحق ان كثيرا من آرائه كانت وسطا بين المغالين وطريقا مستقيما بين الآراء المتجاذبة الاطراف. وان الدارس لحياة ذلك المفكر العظيم لايجد من العنت عليه أن يختار طريقا وسطا لعامه الغزير واطلاعه الواسع . وكتابه « مقالات الاسلاميين » يدل على اطلاع كبير وفهم دقيق للفرق الاسلامية على اختلاف منازعهم ، وتباين مذاهبهم وتباعد مسالكهم . ولا يصعب على المتقصى أن يثبت ذلك الاعتدال فى كل فكرة من أفكاره ، وعقيدة من عقائده فرأيه فى الصفات وسط بين المعتزلة والجهمية الذين نفوا الحياة والسمع والبصر والحشوية والمجسمة الذين شبهوا الله تنزهت صفاته بالحوادث تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . ورأيه فى القدرة وافعال الانسان وسط بين الجهمية والمعتزله ، فالمعتزلة قالوا هو قادر على الاحداث والكسب معا والجهميه قالوا : إن الانسان لا يقدر على احداث شيء ولا كسب شيء . فقال لاشعرى العبد لايقدر على الاحداث ، ويقدر على الكسب (١) . وقالت المشبهة إن الله يرى يوم القيامة مكيفا محدودا . وقالت المعتزلة والجهمية انه سبحانه لا يرى بحال من الأحوال . فسلك الأشعرى طريقا بينهما . فقال يري من غير حلول ولا حدود ، وقالت المعتزله لله يد يد قدرة ونعمة . وقالت الحشوية يده يد جارحة . فسلك الاشعرى طريقاً وسطاً ، فقال يده يد صفة كالسمع والبصر . وقالت المعتزلة : القرآن كلام الله مخلوق مبتدع . وقالت الحشوية الحروف المقطعة ، والاجسام التى يكتب عليها ، والألوان التى يكتب بها ، و مابين الدفتين كلها قديمة (٢) فسلك الأشعرى طريقاً بينهما وقال : القرآن

(١) تبيين كذب المفترى فيما نسب لأبى الحسن الأشعرى

(٢) تبيين كذب المفترى ص ١٥٠

كلام الله قديم غير مغير ، ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع ، فأما الحروف المقطعة والأجسام والألوان ، والأصوات المحدودات مخلوقات مخترعات ، وقالت المعتزلة ان صاحب الكبيرة مع ايمانه وطاعاته لا يخرج من النار قط ، وقالت المرجئه من أخلص لله سبحانه وتعالى وآمن به فلا تضره كبيرة مهما تكن ، فسلك الأشعرى طريقاً بينهما وقال المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى ان شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وان شاء عاقبه بفسقه ، ثم أدخله الجنة ، وقالت الرافضة ان للرسول صلوات وسلامه عليه ولعلى رضى الله عنه شفاعة من غير اذن الله ولا أمره ، وقال المعتزلة لاشفاعة له بحال من الاحوال فسلك الأشعرى طريقاً وسطاً وقال ان للرسول صلوات الله وسلامه عليه شفاعة مقبولة فى المؤمنين المستحقين للعقوبة ، يشفع لهم بأمر الله واذنه ولا يشفع الا لمن ارتضى

وهكذا تراه سلك فى مذهبه مسلك الاعتدال والوسط ، وفى الوسط الحق والقسطاس المستقيم فى كثير من الاوقات .

وقد سلك الاشعرى فى الاستدلال على العقائد مسلك النقل ، ومسلك العقل ، فهو يثبت ماجاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله ورسله واليوم الآخر ، والملائكة والحساب والعقاب والثواب ، ويتجه الى الادلة العقلية ، والبراهين المنطقية يستدل بها على صفات الله سبحانه وتعالى ، وقد استعان فى ذلك بقضايا فلسفية ، ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة ، وسلكها المناطقة . والسبب فى ذلك هو :

١ — أنه تخرج على المعتزلة ، وتربى على موائدهم الفكرية ، فنال من مشربهم وأخذ من منهلهم ، واختار طريقتهم فى إثبات العقائد وان خالفهم فى النتائج . وباعد بينه وبين ماوصلوا ، وقد علمت أن المعتزلة سلكوا فى استدلالاتهم مسلك المنطق والفلسفة

٢ ــ وأنه قد تصدى للرد على المعتزلة ومهاجمتهم ؛ فلا بد أن يلحن بمثل حجتهم ، وأن يتبع طريقتهم فى الاستدلال ؛ ليفلج عليهم ، ويقطع شبهاتهم ، ويفحمهم بما بين أيديهم ، ويرد حججهم عليهم .

٣ ــ وأنه تصدى للرد على الفلاسفة ، والقرامطة ، والباطنية ، والحشوية والروافض، وغيرهم من أهل الاهواء الفاسدة ، والنحل الباطلة. وكثير من هؤلاء لا يقنعه إلا أقيسة البرهان ، ومنهم فلاسفة علماء لا يقطعهم إلا دليل العقل ، ولا يرد كيدهم فى نحورهم أثر أو نقل .

وقد نال الاشعرى منزلة عظيمة ، وصار له أنصار كثيرون ، ولقى من الحكام تأييدا ونصرة . فتعقب خصومه من المعتزلة والكفار وأهل الأهواء فى كل مكان ، وبث أنصاره فى الأقاليم والجهات ، يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها ، ولقبه أكثر العلماء بإمام أهل السنة والجماعة .

ولكن مع ذلك بقى له من علماء الدين مخالفون منابذون، فابن حزم يعده من الجبرية لرأيه فى أفعال الانسان(١)، ويعده من المرجئة لرأيه فى مرتكب الكبيرة(٢) وقد تعقبه فى غير هاتين المسألتين ، ولكن مع ذلك قد ذاب مخالفوه فى لجة التاريخ الاسلامى ، واشتد ساعد أنصاره ، جيلا بعد جيل، وقويت كلمتهم وقد حذوا حذوه وسلكوا مسلكه ، وقاموا بما كان يقوم به هو والماتريدى من محاربة للمعتزلة والملحدين ، ومنازلة لهم فى كل ميدان من ميادين القول، وكل باب من أبواب الايمان ، ومذهب من مذاهب اليقين .

---

(١) الجزء الثالث ص ٢٢ من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

(٢) الجزء الرابع ص ٢٠٤ من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

ومن أبرزهم وأقواهم شخصيه وأبينهم أثرا أبو بكر الباقلانى (١) فقد كان عالماً كبيرا ، هذب بحوث الاشعرى ، وتكلم فى مقدمات البراهين العقلية للتوحيد ، فتكلم فى الجوهر والعرض ، وأن العرض لايقوم بالعرض ، وأن العرض لايبقى زمانين ، الى آخر ما هنالك . ولم يقتصر فى الدعوة لمذهب الاشعرى على ما وصل إليه من نتائج ، بل ذكر أنه لايجوز الآخذ غير ما أشار اليه من مقدمات لاثبات تلك النتائج ، فكان ذلك مغالاة وشططا فى التأييد والنصرة ؛ فان المقدمات العقلية لم يجىء بها كتاب أو سنة . وميادين العقل متسعة ، وأبوابه مفتحة ، وطرائقه مسلوكة ، وعسى أن يصل الناس الى دلائل وبينيات من قضايا العقول ونتائج القرائح لم يصل إليها الأشعرى. وليس من شر فى الأخذ بها مادامت لم تخالف ما وصل اليه من نتائج ؛ وما اهتدى اليه من ثمرات فكريه .

ولذلك جاء الغزالى (٢) من بعده ، فلم يسلك مسلك الباقلانى ، ولم يدع لمثل مادعا إليه ، بل اعتقد أنه لايلزم من مخالفه مسلك الباقلانى والأشعرى فى الاستدلال بطلان المدلول والنتيجة ، وآمن بأن الدين خاطب العقول جميعا ، وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاء بالكتاب والسنة ، ولهم أن يقووه بما يشاءون من أدلة .

والحق أن الغزالى نظر فى كلام أبى منصور الماتريدى ، وأبى الحسن الأشعرى نظرة حرة بصيرة فاحصه ، لا نظرة تابع مقلد ، فوافقهما فى أكثر ما وصلا اليه ، وخالفهما فى بعض ما ارتياه دينا واجب الاتباع ولذا رماه كثيرون من أنصارهما بالكفر والزندقة . واقرأ ما قاله فى رسالته فيصل

(١) مات الباقلانى سنه ٣٠٤

(٢) الغزالى توفى سنه ٥٠٥

التفرقة بين الاسلام والزندقة، فقد جاء فيها

« إنى رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب موغر الصدر منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين وأن العدول عن مذهب الاشعرى، ولو فى قيد شعرة كفر، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر . فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك، لا يضيق به صدرك، وفل من غربك واصبر على ما يقولون، واهجرهم هجرا جميلا، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف، فأى داع أكمل واعقل من سيد المرسلين ﷺ، وقد قالو إنه مجنون من المجانين وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين، وقد قالوا إنه أساطير الأولين... خاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر؛ فان زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الاشعرى، أو مذهب المعتزلى، أو مذهب الحنبلى، أو غيرهم فاعلم أنه غر بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع باصلاحه الزمان . وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه؛ إذ لا يجد بين نفسه، وبين سائر المخالفين له فرقا وفصلا . ولعل صاحبك يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى، ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر من الكفر الجلى، فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفا عليه، حتى قضى بكفر الباقلانى إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى، وزعم أنه ليس هو وصفا لله زائدا على الذات، ولم صار الباقلانى أولى بالكفر بمخالفته الأشعرى من الاشعرى بمخالفة الباقلانى، ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثانى . أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان، فقد سبق الاشعرى غيره من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه، أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم، فبأى ميزان

ومكيال قدرت درجات الفضل، حتى لاح له أنه لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده . فأن رخص للباقلانى فى مخالفته ، فلم حجر على غيره . . وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة . وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع الى لفظ لا لتحقيق وراءه ، كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعما أنهما جميعا متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف فى أن ذلك يرجع الى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف بأن الله عالم محيط بجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات ، وإنما يخالف الأشعرى فى أنه عالم قادر بالذات أو بصفة زائدة فما الفرق بين الخلافين . . الخ . . »

وترى من هذا كيف كان ينظر فى العقائد نظرة جريئة لا يقلد فيها إماما ولا يتبع مذهبا من المذاهب المقررة فى العقائد ، وإن انتهى إلى قريب مما انتهى اليه الأشعرى والماتريدى وأنصارهما واتباعهما .

ولقد جاء بعد الغزالى أئمة كثيرون اعتنقوا مذهب الأشعرى فى نتائجه وزادوا على دلائله منهم البيضاوى (١) والسيد الشريف الجرجانى (٢) وغيرهما من العلماء الأعلام ، والأئمة الأفذاذ الذين أحاطوا خبرا بالمعقول والمنقول ، وقد دونت دلائلهم وردودهم على المعتزلة وغير فى علم الكلام الذى لا زال يدرس إلى الآن ، وفق الله الجميع للسداد ، وهداهم إلى سبيل الرشاد .

---

(١) توفى البيضاوى سنة ٧٠١ وكان مناظرا مجيدا ، وإماما متعبدا ، وفقيهاً شافعياً مدققا .

(٢) توفى سنة ٨١٦ ، كان فقيهاً حنفيا ، ملما بالعلوم العقلية ألف فيها كتبا انتفع الناس بها .

مختار من مناظرات الاشعرى

١ — مناظرته للجبائى فى أسماء الله

دخل رجل على الجبائى ، فقال : هل يجوز أن نسمى الله عاقلا ؟ فقال الجبائى : لا ، لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع فى حق الله محال ، فامتنع الاطلاق .

فقال أبوالحسن الأشعرى : فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيما ؛ لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام ، وهى الحديدة المانعة للدابة عن الجموح ، ويشهد لذلك قول حسان :

فنحكم بالقوافى من هجانا ونضرب حين يختلط الدماء

وقول الآخر :

أبنى حنيفة حكموا سفاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى نمنع بالقوافى من هجانا ، وامنعوا اسفهاءكم ، فاذا كان اللفظ مشتقا من لمنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى

قال الجبائى : فلم منعت أن يسمى الله عاقلا ، وأجزت أن يسمى حكيما ؟

قال الأشعرى : لأن طريقى فى مأخذ أسماء الله تعالى الاذن الشرعى ، دون القياس اللغوى ؛ فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ؛ ولو أطلقه الشارع لأطلقته .

٢ — مناظرة بينهما فى الاصلح والتعليل

سأل أبو الحسن الأشعرى أبا على الجبائى قائلا : ما قولك فى ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، وصبى ، فقال : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الدركات ، والصبى من أهل النجاة .

قال الأشعرى : فان أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن ؟

قال الجبائى : لا ، يقال له : إن المؤمن إنما نال هـذه الدرجة بالطاعة ، وليس لك مثلها :

قال أبو الحسن : فان قال التقصير ليس منى ، فلو أحييتنى كنت عملت الطاعات بعمل المؤمن .

قال الجبائى : يقول له الله : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهى إلى سن التكليف .

قال أبو الحسن : فلو قال الكافر يارب علمت حاله كما علمت حالى ، فهلا راعيت مصلحتى مثله.فسكت الجبائى .

اختلاف المجتهدين من القرن الثانى

إلى منتصف القرن الرابع

امتازت تلك الحقبة من الزمن (١) باتساع نطاق الحضارة فى كل المدن الاسلامية ، وسعة العمران (٢) وبكثرة العلوم ، واتساع نطاق الحركه الفكرية لدخول كثير من الموالى فى الاسلام ، وكثرة الكتب المترجمة (٣) وبتدوين السنة فى بطون الكتب ، بعد أن كانت فى صدور الرجال ، والعناية بمعرفة الصحيح من المروى عن الرسول ، ووضع قوانين وأسس لرواية السنه ؛ لكى يتبين بها الخبيث من الطيب ، والصحيح من المكذوب على رسول الله ﷺ (٤) وبأن النزاع بين المجتهدين كان فى الأصول التى تستنبط منها الاحكام الشرعيه ؛ وفى الاحكام نفسها .

الاختلاف فى السنه : كانت كثرة الكذب على النبي ﷺ مع طول العهد سبباً فى صعوبة معرفة الاحكام الشرعيه من السنه ، ولذلك نبتت فى بعض الرءوس فكرة رفض الاحتجاج بالسنة مالم تكن بياناً لقرآن ، والاقتصار على القرآن ، ويظهر أن هذا الفريق من الناس طوته لجة التاريخ ، واندثر لعدم استحقاقه للبقاء . ولولا أن الأم للامام الشافعى ذكرت فيه مناظرة قامت بين أحد القائلين به وبين الشافعى ما سمع بهم أحد ، ولعل هؤلاء كانوا من المعتزلة أهل الكلام ؛ فقد رأينا فى كتاب تأويل مختلف الحديث أنهم كانوا يجتهدون فى الفقه ، ورأينا أن الام يذكر أن بعض أهل البصرة هم رافضو الاحتجاج بالسنه على ما سبق ، والبصرة عش الاعتزال على ماعلمت

والعلماء على أن السنة هى الاصل الثانى لمعرفه أحكام هذا الدين ، ولكنهم اختلفوا فى ذلك العصر فى أوصاف الاحاديث التى تصلح حجه لذلك ، وقد

بين ذلك كله بياناً وافياً فى علم أصول الفقه . وإذ كانت هذه المسألة مثار جدل عنيف بين مجتهدى ذلك العصر الذى وضعت فيه هذه الاصول .

الاختلاف فى القياس والرأى : فى هذا الدور اشتد النزاع بين أهل السنة وأهل الرأى وشنت غارة شعواء على أهل الرأى ، فلاقى هؤلاء خصومهم فى كل ميدان من ميادين القول ، وقام كل فريق يدلى بحجته . وقد رأينا كثيرا من عبارات الاستهزاء بالرأى صادرة عن أهل الحديث

والعراق كان فى هذا العصر عش أهل الرأى كما كان كذلك فى سابقه ؛ وأقدمهم قولا بالقياس أبو حنيفة وأصحابه وكان أكثر فقهاء هذا العصر على ذلك . وقد قال الاستاذ الخضري « إن مبدأ اتخاذ القياس أصلا فى التشريع قد انتصر فى هذا الدور انتصارا عظيما ، وإن لم يكن الفقهاء على درجة واحدة فى استعماله فى الاستنباط فأبعدهم أثرا ، وأرسخهم قدما فيه الحنفيه ، وأقلهم نفوذا فيه الحنابلة والمالكية ، والشافعيه بين الفريقين ، وابتعد عنه بعض أهل الحديث والشيعة ، وغلا الظاهرية فى رفضة .

النزاع فى الاجماع : رأى قوم من الفقهاء أن إجماع العلماء على أمر من الامور يوجب اتباع الاعقاب له ؛ لان من لم يتبعهم يسير فى غير سبيل المؤمنين ورأى آخرون أن الاجماع ليس بحجة ، بل أنكر وجوده . وكان الشافعي يقول إن الاجماع حجة ، ولكنه كان إذا ناظر أنكر وجوده ، وقال الامام أحمد بن حنبل من ادعى الاجماع فهو كاذب ، وقد جرت مناظرات كثيرة بين المجتهدين فى فى الاجماع ، وفى كتاب الام الشيء الكثير منها .

وقد كان من موضوعات نزاعهم أمور أخرى منها أصل التكليف ، ومنها دلالات الالفاظ وغير ذلك ، وقد كان ثمرة تلك المناظرات علم أصول

الفقه كما علمت .

وكان الاختلاف فى الفروع قد شمل المسائل الواقعة والفرضية ، واشتد ، واتسع ، وكانت ثمرته ظهور المذاهب الاربعة وغيرها .

والخلاف فى هذا الدور كما فى الدور الذى سبقه كان يقوم على الاجتهاد المطلق ، ولم يكن للتقليد فيه أثر ، ولكن فى آخر هذا الدور كانت تظهر بعض روائح التقليد ، وسرعان ما تزول ، وكانت حرية الرأى واسعة ، والمناظرات قائمة على قدم وساق ، كل يدافع عن رأيه فى قوة ، وثبات وسعة صدر ، ولم تكن مهاترة فى القول إلا نادرا ؛ لاخلاص المتناظرين ، وقوة فكرهم ، وتأدبهم بآداب الدين الحنيف .

وقد جاء وليدا للمناظرات فى أصول الفقه والفروع فى هذا العصر علم الجدل الذى قال فيه ابن خلدون « هو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فانه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه مايكون صوابا ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمه الى أن يضعوا آدابا واحكاما ، يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له ان يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصا منقطعا ، ومحل اعتراضه ومعارضه واين يجب عليه السكوت (١)

مختار من مناظرات الفقهاء فى ذلك العصر

١ — مناظرة بين محمد بن الحسن والشافعى

قال محمد بن الحسن : ما تقول فى رجل غصب من رجل ساجة ، فبنى عليها بناء ، أنفق فيه الف درهم ، ثم جاء صاحب الساجة ، فأثبت بشاهدين

(١) مقدمة ابن خلدون

عدلين أن هذا اغتصب هذه الساجة وبنى عليها ، ما كنت تحكم ؟

قال الشافعي : أقول لصاحب الساجة يجب أن تأخذ قيمتها ، فان رضى حكمت له بالقيمة، وإن أبى إلا ساجته قلعتها له ، ورددتها اليه .

قال محمد : فما تقـول فى رجل اغتصب من رجل خيط حرير ، نخاط به بطنه ، لجاء صاحب الخيط ، وأثبت بشهادة عدلين أن هذا اغتصب هذا الخيط ، أكنت تنزع الخيط من بطنـه ؟ . قال الشافعي لا . قال محمد : الله أكبر ، تركت قولك . قال الشافعي : لا تعجـل ، أخبرني لو لم يغصب الساجة من أحد ، وأراد أن يقلع هذا البناء عنها ؛ أيباح له ذلك ، أم يحرم عليه ؟ فقال محمد يباح ، فقال الشافعي : أفرأيت لو كان الخيط خيـط نفسه ، فأراد أن ينتزعه من بطـه ، أمباح له ذلك ، أم محرم عليه ؟ فقال محمد بل محرم ، فقال فكيف تقيس مباحا على محرم .

قال محمد : أرأيت لو أدخل غاصب الساجة فى سفينة ، ولجج فى البحر ؛ أكنت تنزع اللوح من السفينة .

قال الشافعي : آمره أن يقرب سفينته إلى أقرب المراسى اليه ثم أنزع اللوح ، وأدفعه الى صاحبه .

قال محمد : أليس قد قال رسول الله ﷺ : لا ضرر ولا ضرار ؟ فقـال الشافعي : هو أضر بنفسه ، ولم يضر به .

ثم قال الشافعي : ماتقول فى رجل اغتصب من رجل جارية، فأولدها عشرة كلهم قد قرءوا القرآن ، وخطبوا على المنابر ، وحكموا بين المسلمين ؛ فأثبت صاحب الجارية بشاهدين عدلين ، أن هذا اغتصبها منـه ؛ ناشدتك الله بماذا كنت تحكم ؟ قال : أحكم بأن أولاده أرقاء لصاحب الجارية ؛ فقال الشافعي : أيهما أعظم ضررا أن تجعل أولاده أرقاء أو تقلع البناء عن الساجة .

٢ـ مناظرة بين الشافعي واسحاق بن راهويه

تناظر اسحاق بن راهويه مع الشافعي فى جلود الميتة إذا دبغت . فقد قال الشافعي دباغها طهورها : فقال اسحاق ما الدليل ؟ فقال الشافعي : حديث الزهرى عن عبيد الله عن عبد الله بن عباس عن ميمونة أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة ، فقال : هلا انتفعتم بجلدها .

قال ابن اسحاق : حديث ابن حكيم: كتب الينا رسول الله ﷺ قبل موته بشهر ألا تنتفعوا من الميتة بأهاب ولا عصب — أشبه أن يكون ناسخا لحديث ميمونة ؛ لأنه قبل موته بشهر .

قال الشافعي : هذا كتاب وذاك سماع .

قال اسحق : إن النبي ﷺ كتب إلى كسرى ، وقيصر ، وكان حجة عليهم عند الله فسكت الشافعي .

الخلاف فى الفقه من القرن الرابع

الى عصرنا هذا

كان الناس فى العصور السابقه قسمين: احدهما مجتهد يطلب الدين من اصوله، والثانى مقلد يأتى أهل العلم، فيسألهم عن حكم الدين فى الامر الذى عرض له

أما الناس فى هذه العصور، فقد استولت عليهم روح التقليد، وأصبح الفقيه من يعرف ما استنبطه غيره، لا من يستنبط الأحكام من مصادرها، وشاع تقليد أصحاب المذاهب السابقه. حتى قال الامام أبو الحسن الكرخى «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ (١)». ولم يعرف أن أحدا أقدم على فتح باب الاجتهاد بعد أن أحكموا إغلاقه، إلا الامام الجوينى والد إمام الحرمين، وعددا قليلا من العلماء اجتهدوا فى بعض المسائل.

ولكن لماذا غلقت أبواب العلم أمام العقول، وقد كانت مفتحة، وكزت العقول فى محيط التقليد الضيق، وقد كانت فى ساحة الاجتهاد المتسعة الارجاء؟ السبب فى ذلك عدة أمور منها:

١ - تعصب التلاميذ لآثار أساتذتهم من الأئمة المجتهدين الذين أناروا العصر السابق، وكشفوا ظلمات المسائل بنور عقلهم الساطع، وإن التعصب لفكرة يحمل الانسان على الجمود عليها، والتماق بأهدابها، ودعوة الناس إليها، وتحبيذها. وكذلك فعل أولئك الذين جاءوا بعد الأئمة السابقين، فقد عنوا بدراسة مذاهبهم، ونشرها بدل السير على منوالها، والاجتهاد كما اجتهد أصحابها، فوثق الناس بالسابقين، وشكوا فى أنفسهم.

(١) تاريخ التشريع للاستاذ الخضرى بك.

٢ — القضاء، كان الخلفاء يختارون قضاتهم أول الأمر من المجتهدين ، لا من المقلدين ، ولكنهم في هذه العصور آثروا اختيارهم من المقلدين ، ليقيدوهم بمذهب، وليعينوا لهم ما يحكمون به ، بحيث يكونون معزولين عن كل قضاء يخالف ذلك المذهب ، ولأن بعض القضاة المجتهدين كان يتعرض لتخطئة الفقهاء ، فيكون حكمه مثار نقد عند الناس ، لا سبب اطمئنان لهم ، وحكم القضاة يجب أن يكون داعية اطمئنان ، لا داعية انتقاد ، ليطمئن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم . وكان تقييد القاضي بمذهب يرتضيه الخليفة سبباً في نشر هذا المذهب ، واكتفاء أكثر الناس به .

٣ — سعى الحكام المستبدين لاغلاق باب الاجتهاد ، لأنهم وجدوا في استمراره مفتوحا ماقد ينقض عليهم أمرهم ، إذا لعقول ، إذا اتجهت بحرية إلى ماقي الدين من حقائق ، ونهلوا من ينابيعه ، وجدت من أصوله ماينقض دعائم يبنيها الظالمون ، ويؤسس قواعدها الغاشمون .

٤ — تدوين المذاهب ، فتدوينها سهل على الناس تناولها ، والناس دائما يطلبون السهل اليسير ، دون الصعب العسير .

٥ — كان يدفع الناس إلى الاجتهاد فيما سبق تعرف أحكام حوادث جدت لايعرفون حكمها ، وشئون عرضت لايدركون أمر الشريعة في شأنها ، فلما جاء المجتهدون في الدور السابق ، ودونوا أحكام الحوادث التي عرضت والتي يحتمل عروضها ، صار الناس كلما عرضت لهم مسألة وجدوا السابقين ، قد تعرضوا لها ، فاكتفوا بمقالهم في شأنها ، فسدت حاجتهم بما وجدوا ، فلا حافز يحفزهم إلى بحث جديد ، وساعد ذلك ما للاقدمين من تقدير ، وما يكسبهم الزمن من إجلال ، وعناية الأمم بتكريم السلف الصالح من الماضين ليرتبط حاضرها بماضيها برباط متين .

لهذا كله انصرف الناس إلى التقليد ، اللهم الافى تعرف علل الأحكام فى المذهب، وهذاهو الذى يسمى تخريج المناط ، أو ترجيح بعض الآراء فى المذهب على غيرها ، ويسمى من أوتى القدرة على ذلك المجتهد فى المذهب.

المناظرات والجدل : لا تظن أن المناظرات قد قات عن العصر السابق ، لاقفال باب الاجتهاد ، وإحكام إغلاقه، بل إن المجادلات قد اشتدت ، وشاعت، ولكن بينما كان الغرض منها فيما سبق الوصول إلى معرفة حكم من الأحكام، صار الغرض منها فى هذه العصور نصرة مذهب على مذهب ، وقد شاعت مجالس المناظرات شيوعا كثيرا ؛ فكانت لاتخلو منها مدينة فى العراق أو خراسان .

كانت المناظرات تعقد أمام الوزراء والكبراء ،ويحضرها كثير من أهل العلم ، وبلغ سيلها أعلى ارتفاعه ، حتى كانت تعقد فى مجالس العزاء . قال أبو الوليد الباجى :« العادة ببغداد أن من أصيب بوفاة أحد ممن يكرم عليه ، قعد أياما فى مسجد ربضه ، يجالسه فيه جيرانه ، واخوانه ؛ فاذا مضت أيام عزوه ، وعزموا عليه فى التسلى إلى عادته من تصرفه ؛ فتلك الأيام التى يقعد بها فى مسجده للعزاء ، مع إخوانه وجيرانه لا تقطع فى الأغلب إلا بقراءة القرآن ، أو بمناظرة الفقهاء فى المساجد (١) »

أنثال الناس على المناقشات الفقهية ،واشتدت المناقشة بين الشافعية والحنفية، وماكان الدافع معرفة علل الاحكام ، أو استنباط قواعد الشرع ، بل ارضاء نهمة التعصب ، وشهوة الحكام . وكان حجة الاسلام الغزالى من أحد الناس فى الجدل والمناظرة ، وأقواهم فى الأخذ بناصية خصمه ؛ ولكنه تاب إلى الله ، ولم يعد هذا النوع من النقاش من التعاون على طلب الحق : بل قال فى هؤلاء المتناظرين « إن هؤلاء القوم يلبسون على أنفسهم بقولهم إن التعاون على طلب الحق من

(١) كتاب تاريخ التشريع الاسلامى للاستاذ الخضرى بك رحمه الله .

الدين » . وقال أبو حيان التوحيد «سمعت أبا حامد يقول لطاهر العبادلى ولا تعلق كثيرا لما تسمع منى فى مجاس الجدل ؛ فان الكلام يجرى فيها على ختل الخصم ومغالطته ، ودفعه ومغالبته،فلسنا نتكلم لوجه الله خالصا ، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا فى الكلام وان كنا فى كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى ، فانا مع ذلك نطمع فى سعة رحمة الله تعالى»

وقد أدت تلك الملاحاة ، وهذه المناقشات التى كانت تتخذ أحيانا للمغالطات إلى أمرين .

(١) أحدهما إتمام وضع علم أدب البحث والمناظرة الذى سماه ابن خلدون علم الجدل ، وقد بينا انه ابتدأ فيما سبق .

(٢) اشتداد التعصب المذهبي الذى انتقل الى مخاصمات فعداوات ؛ وسرى ذلك إلى العامة ، حتى كاد يؤدى إلى تناحر ؛ ووصلت الحال الى أن بعض الفقهاء كان لايجوز إمامة المخالف للمذهب ، وفى ذلك شطط ، وخروج عن جادة الاعتدال ، فان الأئمة رضوان الله عليهم كان كل منهم يجل رأى الآخر ، وإن كان يخالفه ، والقاعدة الفقهية المأثورة التى تقول « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » كانت قانونهم . وقد كان الشافعى يقول عن أبى حنيفة « الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة » وكان يقول لاحمد ابن حنبل اذا صح الحديث عندك فأعلمنى به .

هذا ولا زال الى الآن أثارة قليلة من التعصب بين أهل المذاهب ، نرجو أن تزيلها سعة العقول والافهام .

ترجمة خطيبين
من خطباء الجدل

٣٢٣

الحسن البصرى

من سنة ٢١ - ١١٠

هو شيخ المفكرين فى العصر الأموى ، وإمام الزهاد ، وقدوة الوعاظ ؛ وذو اللسن البيان ، والتقوى والإيمان .

وإذا كان من الواجب عند دراسة المفكر أن نرد آراءه ومناحى تفكيره إلى عناصرها الأولى ، وينابيعها التى نهل منها ، فمن اللازم أن نبين عند الكلام على الحسن أسرته ودمه وجنسه ، والبيئة التى ترعرع فى ظلها ، وشدا فى جوها ، ونما تحت سلطانها ، وأن نبين أعماله التى تولاها ، فسارت على وفقها عاداته ، وتكونت على نهجها ملكاته .

أسرته : ولد الحسن من أبوين من الموالى ، بل من رقيق الفرس ، فأبوه يسار من أسرى ميسان (١) أسره المغيرة بن شعبة عند فتحها فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه.

وقد صار مولى لزيد بن ثابت رضى الله عنه ، وأمه خيرة من السبايا ، وصارت مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين ، وفى بيتها ولد الحسن وقد منحته أم المؤمنين كلاءتها ورعايتها ، حتى إن أمه ربما غابت فى حاجته ، فيبكى ، فتعطيه ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه (٢)

من هذا السياق نفهم أنه ولد ، وأمه أمة لأم المؤمنين أم سلمة ؛ وإذا

---

(١) قرية أو صقع بالعراق

(٢) ويروى ابن خلكان أن ثديها درعليه ، فشرب ويقول : «فيروون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك » اهـ

طبقنا الحكم الشرعى فى هذه الحال وجب أن نقول أن الحسن ولد على الرق ؛ لأن ابن الأمة يتبع أمه فى رقها ، مالم يكن ابن سيدها .

ولكن يظهر أن أم سلمة أعتقته هو وأمه ، أو أعتقته فقط ، لأنا لا نعرف له ما لكا سواها ، ويظهر أن العتق جاءه وهو صغير ؛ لأن الرواة لم يذكروه على أنه عبد لأم المؤمنين ، ولو أنه استمر عبدا أمدا طويلا لاشتهر ذلك ، ولتناقلته الرواة ، ولعل الحجاج كان يرمى إلى تعييره برقه صغيرا عندما قال مخاطباً جند الشام ، إذ بلغه تفسيقه له : « أيشتمنى عبيد أهل البصرة ، وأنتم حضور ، فلا تنكرون »

كان أبوه مولى لزيد بن ثابت كما علمت ، وأمه مولاة لأم سلمة ، وفى وسط هذه الحكمة ولد ، ومن أفاويقها رضع ، ومن مناهلها العذبة شرب ، وهو فوق ذلك من الموالى ، والموالى كانوا فى مقدمة الباحثين فى العلوم ، والحاملين لواءها فى العصر الاسلامى . وانظر إلى ما قاله ياقوت فى معجمه .

«قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة : عبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح . وفقيه أهل اليمن طاووس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ؛ وفقيه أهل الكوفة النخعى ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى إلا المدينة ؛ فان الله تعالى خصها بقرشى ؛ فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب » .

ولعل السبب فى ذلك (١) اشتغال العرب بالجهاد والحرب والرياسة والسياسة ، وإدارة شئون الدولة ؛ وتفرغ هؤلاء للعلوم ، فعالجوها وحصروها

(٢) وأن الموالى فقدوا السلطان ، ووجدوا فى قيادة الأفكار ، والسيادة العقلية معوضا لما فقدوا (٣) وأن موالى الصحابة اختصوا بخدمتهم واتباعهم فورثوا علمهم، ونقلوا للأجيال أفكارهم (٤) وهؤلاء الموالى حضر، ورثوا ثقافة فكرية عن أممهم ، ونزعات عقلية اتجهوا بها لدراسات دينية ، فغرسوا أقوى الغرس، وأنتجوا أطيب الثمرات .

نشأته وتعليمه . ولد الحسن بالمدينة ، ونشأ بوادى القرى ، ثم عاد إلى المدينة، وعاش فى بيت له صلة بالنبوة ، ولا نعلم بالتعيين الزمن الذي بقى فيه بالمدينة. ويظهر أنه قضى فيها السنين الأولى من شبابه ، فانه يروى أنه كان بالمدينة إذ قتل عثمان ، وكانت سنه أربع عشرة سنة .

جاء فى المنية والأمل : «قال الحسن كنت بالمدينة يوم قتل عثمان ، وكنت ابن أربع عشرة سنة . وروى الحسن أن أمير المؤمنين (عليا) لما بلغه قتل عثمان، وهو فى ناحية المسجد رفع يده ، وقال : اللهم لم أرض ولم أمالىء »

فهذا الخبر يدل على أنه كان بالمدينة ، وهو يافع، ولا ندرى إلى متى استمر وأقام وقد كانت المدينة عش الصحابة ، واليها يفد كل زعماء الأمم المفتوحة ، وفيها من كل طوائف الناس أفواج وجموع ، لأنها كانت قصبة العالم الاسلامى ، وطبعى أن يتورد الناس على قصبة دولتهم ، ومقر حكمهم ، ففى المدينة التقى الحسن ببعض الصحابة ، وقد قال: «لقيت ثلثمائة من الصحابة منهم سبعون بدريا» فأخذ عنهم وتلقى كثيرا من علومهم .

كان عمر لا يوزع الأسارى إلا بعد أن يجيئوا إلى المدينة، وكان فى هؤلاء الأسرى أشراف من الفرس والروم، فماجت المدينة بهم ، وكانوا متعلمين على النهج الذى ساد فى أممهم ، ودخل كثير منهم فى الاسلام ، فصبغوا الحياة الاسلامية بصبغتهم .

على هؤلاء وأولئك تلقى الحسن البصرى علومه الأولى ومعارفه ، وهو ناشىء ، والتقى فى دراسته علم الدين بالعلوم الفارسية، والنزعات التى كانت للأمم السابقة .

وانتقل بعد ذلك إلى العراق ، وفى العراق الملل والنحل والأهواء، وقد كان موطنا لمدنيات قديمة.كان السريان قد انتشروا فيه ؛وأنشئوا لهم مدارس به قبل الأسلام ، وكانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكان فى العراق قبل الاسلام مذاهب نصرانية تتجادل فى كثير من العقائد ، وكان فى الحيرة يونان مثقفون ، وكان العراق فى الاسلام ميدانا للحروب والفتن ، والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج وغيرهم .

فى ذلك المزدحم من الأفكار،والمضطرب الفسيح من الآراء ، وفى ذلك المزيج من النحل والأهواء— أتم الحسن رجولته ، والنفس القوية تستخلص غذاءها الروحى من كل الأفكار ، كالرجل القوى يستخلص قوته من حسك السعدان ، ومن وسط القتاد ، فلا عجب إذا تغذت نفس الحسن البصرى من هذه الأفكار المتضاربة ، والآراء المتناحرة ، واستخلصت من بينها ما ينميها ويقويها . وإن النفس القوية تستفيد من باطل الآراء كما تستفيد من صحيحها إذ تعرف ما فى الباطل من دخل ، وما فى ثناياه من خطل ؛ فيكون إدراكها للحق على بينة ويقين . وليس قويا فى نفسه ذلك الذى يتحير فى وسط الشبهات ومتنازع الأهواء والأفكار ؛ ولكن القوى فى نفسه هو الذى يتخير مذهبه الحق وسط أعاصير الأهواء ، فلا يتطرق الشك إلى قلبه ؛ ولا يرد الاضطراب إلى نفسه،بل لا يزيده اضطراب الآراء إلا يقينا ، والتحام الأفكار إلا تثبيتا ، كالشجر الثابت يأخذ من الريح العاصف غذاءه ولا يصاب بأذى .

وكذلك كان الحسن البصرى ، ففى معتلج الآراء ، ومضطرب المذاهب اتخذ له مذهبا فى الدين آمن به حق الايمان ، وأذعن له حق الاذعان ، وكان كالطود الاشم تصطدم به الرياح. فتتبدد حوله ، وهو جاثم فى مكانه ، يستخلص من تلك الفتن ما يدعم حجته ، وينير محجته ، ويقوى به دعوته ، ويثبت ما رآه فى الدين حقاً ، وفى أخلاق الناس منارا .

وقد استنبط بعض الكتاب من حال أبيه وأمه ، وكونهما كانا فارسيين من الأسارى أنهما لقناه اللغة الفارسية صغيرا ، وأجادها كبيرا . وفى الحق إنه ليس بين أيدينا سند تاريخى أثبت ذلك أو نفاه ، ولا نستطيع أن نتعرف من كلامه أنه كان يجيد الفارسية أو لا يجيدها . إذ أن أفكاره وآراءه كانت إما عملية ، وإما اعتقادية ، وكلتاهما كانت تمت الى الدين بسبب وثيق ، والى الأفكار التى انتشرت فى عصره بصلة .

الأحوال الاجتماعية فى عصره : رأى الحسن البصرى عصرين متناقضين رأى الاسلام ، وقد اكتملت قوته ، وعمت هدايته ورأى الفتن وقد اشتدت والاحن الجاهلية وقد استيقظت من سباتها، ووثبت من مرقدها .

نعم قد أدرك طرفا من عصر الخلفاء الراشدين وأشطرا من عصر الأمويين رأى فى العصر الأول حكم الاسلام قائماً ، الصولة فيه للحق ، والاخلاق يتأثرون فيها أدب النبي الكريم ، والمؤمنون فيه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة للمؤمنين ، أعزة على الكافرين ، بأسهم على عدوهم ، وهم يد واحدة على كل خصومهم ، ويد واحدة فى اصلاح شئونهم . ورأى الاحداث قد قسمت المسلمين، فريق مع الامام العادل ، وفريق قد خرج عليه ، وتأول ، ثم رأى وكيف أخذت الوحدة فى الانشقاق ، والهوة فى الاتساع ، حتى جاء العصر الأموي ، فوجد الأمة تجتمع فى بعض الاحيان ، وتختلف فى أكثرها

ورآها فى اجتماعها وافتراقها قد ضعف فيها صوت الدين ، وان اشتدت الدعوة اليه ففى وسط زوبعة من الاختلاف والانقسام والمنازعة والخصام .

وفى غفلة الناس أو انتباه من بعضهم استيقظت العصبية الجاهلية ، وقويت الاختلافات القبلية التى نهى عنها الاسلام ، وساد التفاخر بالانساب وبالاحساب لا بالاعمال والتقوى ، وانتشر التهاجى والاقذاع فى الشتم والطعن ، ولم يجد الخلفاء الأمويون حرجا دينيا يمنعهم من أن يأمروا الناس بسبب على رضى الله عنه على المنابر ، وفى المجالس ، وكأن ذلك فريضة دينية واجبة الاداء وقربة محتسبة الجزاء !!

كان لكل ذلك أثر فى نفس الحسن البصرى ، ولكن أثر الاولى موجب جعله يدرك قيمة الدين ، وأثر الثانية سلبي جعله يفهم مافى الانشقاق من آثام ، وما فى هجر الدين من مفاسد ؛ ولذا كان يدعو الناس الى الاخذ بما أخذ به سلف الأمة والاهتداء بهديهم ، والسير فى طريقهم ، واتباع نهجهم ؛ وانظر اليه وهو يصف أثر سلف الأمة فى نفسه ، وأثر عصر الفتن فيها ؛ إذ يقول لأصحابه . « والله لو أن رجلا منكم أدرك من أدركت من القرن الاول ، ورأى من رأيت من السلف الصالح ، لاصبح مهموما ، وأمسى مغموما ، وعلم أن المجد منكم كاللاعب ، والمجتهد كالتارك ، ولو كنت راضيا عن نفسى لوعظتكم ، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها ، ولذا أبغضتها وأبغضتكم .

أيها الناس ان لله عبادا قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا الأيام القلائل ، لما رجوه فى الدهور الأطاول . أما الليل فقائمون على أقدامهم يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون فى فكاك رقابهم ، تجرى من الخشية دموعهم . وأما النهار فحلماء علماء

أتقياء أخفياء ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، يخالهم من الخشية مرضى ، وما بهم مرض ، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها، ولهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنيا كم بأبصاركم ، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم. أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

وفى عصره التقت سذاجة العرب بحضارات الامم ذوات الحضارات القديمة ، وابتدأ العرب ينهلون من مناهل هذه الحضارات التى التقت فيه عادات العرب بعادات غيرهم من الأمم ، واصطدمت عواطف مختلفة ، وتصارعت العادات ، وتغالبت القوميات ؛ فكانت بجوار المعارك السياسية الفاشية والاضطرابات الفكرية السائدة معارك نفسية قوامها اصطدام مدينات واضطراب حضارات .

وفى عصور الاضطراب هذه تصهر العقائد ؛ فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماتنفع الناس فيمكث فى الارض. تظهر عقائد وآراء وأفكار ، ولكنها سرعان ما تذوب ، وتطويها لجة التاريخ ، وفى وسط ذلك المتحم ، وذلك الهياج الفكرى يتحمس كل معتقد لما يعتقده ، وكل مفكر لما يرتئيه . وقد كان الحسن فى منهجه مؤمنا مخلصا لايمانه ، لذلك تحمس للايمان ، واشتد فى طلبه ، فكان له المنزلة الاولى فى عصره .

<u>الحالة السياسية فى عصره</u> : أدرك الحسن نوعين من الحكم ، أدرك حكم الدين قائما ، وأمر المسلمين شورى بينهم ، وأدرك حكم الغلب وقد اشتد واحتد . أدرك عصر الخلفاء الراشدين ، والخليفة فيه يقول: « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » ، وأدرك عصر بنى أمية ، وخطيبهم يقول: « من قال لى

اتق الله قطعت عنقة » ، وفوق ذلك أدرك الحكم وهو ينتقل من خلافة الى ملك رفيق ، فملك عضوض .

نشأ نشأته الاولى والناس فى أمن ودعة واطمئنان وسلام ، يطيعون الله، ويطيعون أولى الامر ، ويجدون فى أولى الامر منفذين لاحكام الدين فيهم، مقيمين لما أقام الله ، خافضين لما خفض ، عن الشرع يصدرون،يشعر الناس بأن الحاكم ليس الا أحدهم ،ولـكنه معنى بأمورهم ، عليه أن يقيم حكم الله فيهم . ولما ظهرت رءوس الفتن ، وبدت أنياب الشر ، وأخذ الناس ينشرون السوء عن الخليفة الثالث ، حتى قتلوه كان الحسن قدسار يافعا ،فعلم هذه الفتنة ، ورآها رأى العين ، وأدرك ما جرته من ويلات .

رأى بعد ذلك الخليفة الرابع ، وقدرفع سلاح الحق فى وجه الباطل،يناضله بالبيان الرائع الآخذ بنياط القلوب ، وبالسيف أحيانا ، ثم رأى بعضا من العرب أخذوا ينحازون الى الباطل ، لثقل الحق عليهم ، ورأى كيف اختلف أهل الحق فى حقهم ، واجتمع المبطلون فى باطلهم .

غير أنه لم يخب ويضع فى هذه الفتن الطخياء ، بل آثر السكون ، لاضطراب حبل الامور ، واختلاط الحق بالباطل ، وان الناس يخبطون خبط عشواء وصوت الداعى الى الحق لا يصل الى الاسماع عند اشتداد الفتن واصطخاب الأحن .

رأى أن النائم فى هذه الفتن خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الساعى ، لأن سيل الشر قد طم ، والقلوب عليها أقفالها ، والأسماع قد أصمتها هوجاء الفتن .

وقد استمرت تلك الفتن سنين حدثت فيها أحـداث ، وفسدت فيها

الأمور ، وهزت الأخلاق ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وقتل ابن ذات النطاقين ، ورأى شدة فى الحكام ، لم تعهد فى سلف هذه الأمة ،رأي زياد ابن أبيه ينشر حكما لايعتمد على الحق ، ورأى الحجاج يحاكيه ، فيأخذ الناس بشدة لم يعرف لها فى تاريخ الاسلام نظير ، دماء تهراق ظلماً ، وفساد يعم الآفاق ، وتتبع لأهل الفقه والدين ، وتسقط لهفوات المسلمين ، وتقص لعورات المؤمنين .

كان لكل هذا أثر سلبي وإيجابي فى نفس الحسن وآرائه ، ومنهجه الذى سار عليه . ويجب أن تعلم أن النفوس تتلقى من بيئتها ما يوائمها ، ويسايرها ، ونفس تقية عرفت طرائق الصالحين ، لابد أن يكون تأثير هذه السياسة فيها مغايرا لتأثيرها فى نفس من كان عنده استعداد للشر والطغيان ، إذ هى بينما تغرى هذا بالطغيان ، تنفر ذلك من السلطان ، وتوجهه نحو الديان .

إن النفس التقية الوادعة المؤمنة إن رأت نوعا من حكم الطغاة ، اتجهت إلى رضوان الله تبتغيه ، وإلى جنات النعيم ، وعكفت على توجيه الناس إلى الاخرة ، ليرجوا فيها المثوبة ، لأنهم يئسوا من أية راحة فى هذه الدنيا، ولعل هذه السياسة كانت من أسباب توجيه الحسن إلى الدعوة إلى الآخرة ، والاستهانة بالدنيا .

بل لعل هذه السياسة وهى التى دفعت كثيرا من الصحابة والتابعين إلى العكوف على دراسة القرآن الكريم ، وتفهم أحكام الدين ، ورواية أحاديث النبي ﷺ كانت من أسباب انصراف الحسن إلى تلك الدراسات الدينية الواسعة النطاق بدل الاشتغال بالسياسة العملية ، وفيه استعداد لها (١)

---

(١) لبيانه وقوة نفوذه، كما يتبين ذلك فى موضعه إن شاء الله

ولقد كانت الملاحمات السياسية بين بنى أمية ، والخارجين عليهم ، من خوارج وشيعة ، ذات أثر كبير فى آراء الحسن الدينية ؛ التى لها صلة بالسياسة كما سنبين .

الأحوال الفكرية فى عصره : فتحت العراق وفارس ، والشام ومصر ، وغيرها فى عصر الخلفاء الراشدين ، ووجد بعد الفتح دعاة للاسلام بأفوالهم وبسيرتهم ، وبحكم العدل ينشر بينهم ، وبانقاذهم الناس من الاضطهاد الدينى فى مللهم ، فكان طبعياً أن يتحرك المتحمسون لتلك الديانات ، للدفاع عن كيانها ، وكان طبعيا أن تكثر المناقشات فى الديانات ، وأن يلتحم الجدل فيها فى العصر الأموى بين المسلمين وغيرهم ، وكان العراق مهدا لكثير من هذا الخلاف ، وذلك الجدل .

ولما دخل الموالى فى الاسلام دخلت معهم نحل مختلفة ، وآراء فى الدين مضطربة ، فنشأ من بينهم المجسمة المشبهة ؛ وغيرهم ؛ وكان هذا كله مثار جدل ؛ وملتحم أفكار ، والاختلاف السياسى وما تبعه من انقسام إلى خوارج وشيعة ، وأمويين ، وانقسام كل جماعة فيما بينهم تبعه اختلاف فكرى شديد ، والتحام مذهبي عنيف .

فكان لهذا وذاك أثر فكرى فى تكوين الحسن البصرى آراءه ومذاهبه فى أصول العقائد .

وفى عهده ابتدأت العلوم الدينية تتكون ، فابتدأ التابعون يستخرجون أحكام الدين من القرآن يفرعونها ، ويفصلونها ؛ وكان ذلك أنحصر فى العراق وابتدأ الحديث يدون فى هذا العصر ، فكان لكل هذا أثر فى نفس الحسن وإذا أضفنا إلى ذلك أنه اجتمع بثلثمائة صحابى أخذ عنهم ، وتلقى عليهم ، صح

لنا أن نقول أنه اجتمعت له دراسات دينية عالية مع استعداد قوى ، وإيمان ثابت ، فكان منه قائد فكر ، وزعيم جيل

صفاته : جمع الله للحسن من الصفات ماجعله وحيد عصره علماً وفضلا . وها هي ذه : —

(١) الذكاء : كان ذكياً حاد الذكاء قوى الادراك ، وكان عميق الفكرة ، لا يكتفى بالنظرة الأولى فى الأمور ، بل يرددها مرتين ، ويراجع الفكرة حتى يتكون الرأى ؛ فاذا تكون فهو الجبال الراسيات . سئل أنس عن مسألة فقال: سلوا مولانا الحسن ؛ فقيل له : أتقول ذلك ؟ فقال : سلوا مولانا الحسن ، فانه سمع وسمعنا ، وحفظ ونسينا . وانظر الى مناقشاته للحجاج ، فانها تدل على بديهة حاضرة ، وذهن جبار ؛ ونفس قوية . قال له الحجاج مرة ماتقول فى على وعثمان . قال : أقول قول من هو خير منى عند من هو شر منك ؛ قال فرعون لموسى مابال القرون الأولى ؛ قال علمها عند ربى (١) .

(٢) حرية الفكر مع الايمان الصادق : يعتبر الحسن ممن أدرك عصر الصحابة ، فهو تابعى ؛ وقد تلقى علوم الدين من أفواههم ، وسرت نورانيته اليه من قلوبهم ، وكان مع تأثره طريق السلف ، واقتفائه آثارهم ؛ يجتهد فيما يعترض من الأمور بعقل قوى ؛ جامعا بين المعقول والمنقول ، لايحاكى أحدا من غير دليل ؛ ولايتبع غيره من غير برهان . ادلهمت فتن فكرية ، وأثيرت زوابع كلامية ، ومذاهب كثيرة ، فما أعماه مدلهمها ، ولا أذهب استقلال فكره خطوبها ، بل رأيه يستمده من قلبه ، ولايستفتى سواه ؛ وسنبين ذلك واضحاً عندما نتكلم على آرائه .

(٣) الشجاعة : فى وسط ذلك الجو الخانق حبست الآراء فى الصدور ،

---

(١) المنية والأمل للمرتضى

وكتمت الألسنة عن أن تنطق بما تعتقد القلوب،ولكن الحسن بما آتاه اللهمن قلب جرىء ، ونفس مؤمنة بما تعتقد ، وقلب واثق بالله شديد الايمان به كان يقرر الحق ، لايخشى فى الله لومة لائم ، ولاعقاب معاقب ،كان فى درسه حر الفكر ، حر القول ، لايقصد بقوله إرضاء أحد ، بل يقصد إحقاق الحق . سأله رجل عن الفتن ، فقال لاتكن مع هؤلاء ، ولامع هؤلاء ، فأراد احراجه رجل من أهل الشام . فقال له : ولا مع أمير المؤمنين ياأبا سعيد ، فغضب ، وخط بيده ، ثم قال : ولا مع أمير المؤمنين ياأبا سعيد !!! نعم ولا مع أمير المؤمنين . حاوره النضر بن عمرو والى البصرة ، فكان من قوله «اتق الله أيها الرجل فى نفسك . وايم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك فى مكانك ، يعلون المنابر ، وتهتز لهم المواكب ، ويجرون الذيول بطرا ورياء الناس ، يبنون المدر ويؤثرون الأثر ، ويتنافسون فى الثياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ماجمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن ، وياويلهم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »

بنى الحجاج دارا بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلمادخلها قال:« الحمد لله،إن الملوك ليرون لانفسهم عزا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا ، يعمد أحدهم الى قصر فيشيده ، والى فرش فينجده،والى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء ، فيقول انظروا ماذاصنعت، لقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا ياأفسق الفاسقين ، أما أهل السموات فقد فعنوك ، وأما أهل الأرض فقد مقتوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء وغررت فى دار الغرور ، لتذل فى دار الحبور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله

سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه الناس ، ولا يكتمونه . وبلغ الحجاج ما قال ؛ فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام . فقال أيشتمنى عبيد أهل البصرة ، وأنتم حضور ؛ فلا تنكرون ، ثم أمر باحضار الحسن فجاء ، وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع ، حتى دخل على الحجاج . فقال ايها يا أبا سعيد ؛ أما كان لأمرتى عليك حق حين قلت ما قلت . فقال يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوفك ، حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب إليك ممن آمنك حتى تبلغ الخوف ، وما أردت الذى سبق إلى وهمك ، والامران بيدك العفو والعقوبة ، فافعل الاولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر منه وحباه »

ولم يكن فى شجاعته متهورا بل كان معتدلا متزنا يقدر للرجل قبل الخطو موضعها ؛ ولذلك كان يتخذ التقية درعا حصينا ، كما سنبين ذلك فى صلته بأمراء بنى أمية .

(٤) الزهد : كان زاهدا فى عرض الدنيا ، طالبا لثواب الآخرة ، يغلب الخوف على الرجاء ، والعقاب على الثواب . وهنا نلاحظ فى زهده ثلاثة أمور : (١) أنه كان يتهم نفسه ، فليس ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فنراه يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ، ويستهين بكل ما قدم عمل . قال عبد الواحد بن زيد : لو رأيت الحسن ، لقلت صب على هذا حزن الخلائق من طول تلك الدمعة ، وكثرة ذلك النشيج . وقيل : له صف لنا الحسن فقال : رحمه الله أبا سعيد كان والله إذا أقبل كأنما رجع من دفن حميمه ، وإذا أدبر كأن النار فوق رأسه ، وإذا جلس كأنه أسير قدم لضرب عنقه .

قيل له يوما كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ فقال : والله مامن انكسرت

(١) ابن الجوزى .

سفينة فى لجج البحر بأعظم منى مصيبة . قيل ولم ذاك؟ قال : لأنى من ذنوبى على يقين ؛ ومن طاعتى وقبول عملى على وجل ؛ لا أدرى أقبلت منى أم ضرب بها وجهى ؟ فقيل له : وأنت تقول ذلك يا أبا سعيد !! فقال ولم لا أقول ذلك ، وما الذى يؤمننى من أن يكون الله سبحانه وتعالى ، قد نظر إلى وأنا على بعض هناتى نظرة مقتنى بها ، فأغلق عنى باب التوبة ، وحال بينى وبين المغفرة ، فانا أعمل فى غير معتمل »

وفى الحق إن النظرة الناقدة الفاحصة لعيوب النفس ، هى باب التهذيب وطريق التكميل ؛ فالنفس اللوامة هى المهذبة ، والنفس المحبذة هى المغترة ، وما كان الضمير المستيقظ إلا لائما ، متقصيا للسيئات التى وقعت ، مستصغرا للحسنات التى كانت دافعا للمثل الأعلى ، ومسيرا المرء وراء الغاية السامية .

(ب) لم يكن راغبا عن الحلال الطيب ، بل سائرا فى جادة الاعتدال ، يطلب لذات هذه الحياة كما يبتعد عن موبقاتها معتقدا أن لا رهبنة فى الاسلام ؛ وأن تحريم ما أحل الله ليس من كمال الايمان . حضر مرة وليمة وحضرها رجل من المتقشفين ، فلما قدمت الحلواء رفع الرجل يده رياء وتصنعا ، فأكل الحسن وقال : كل يالكع بيته ، فلنعمة الله عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته عليك فى الحلواء . سمع رجلا يعيب الفالوذق فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، ما عاب هذا مسلم .

وكان يحب الاستماع ، ويميل إلى الغناء . قال ابن عون أدركت ثلاثة يتشددون فى السماع ، وثلاثة يتساهلون فى الغناء ، فاما الذين يتساهلون ، فالحسن والشعبى والنخعى ، وأما الذين يتشددون فحمد بن سيرين ، والقاسم ابن محمد ، ورجاء بن حيوة .

ومع أننا نحكم بأنه كان ينال من طيبات الحياه وحلالها نقول انه كان

عن زخارفها ، ويرغب عن زينتهـا ، وكان الى الزهاده أقرب . قال العـلاء بن زياد سائلا له : رجلان تفرغ أحدهما للعبادة ، واشتغل الآخر بالسعى على عياله أيهما أفضل ؟ فقال الحسن ما اعتدل الرجلان ، الذى تفرغ للعبادة أفضل.

جـ ــ كان يختلط بالناس ولا يعتزلهم ، فليس من العباد المنقطعين عن الجماعة ، ولكنه كان قواما بالليل ، وكان أحيانا يخلو ويعتكف . قال حميد خادمه : قال الشعبي يوما ، أريد أن تعلمنى إذا خلا الحسن يوما ؛ لاجتمع به خاليـاً ، فأعلمت بذلك الحسن ، فقال عرفه ، وليأت إذا شاء ، فخلا الحسن يوما ، فأعلمت الشعبي ، فبادر وأتينا منزل الحسن ، فوجدناه مستقبل القبلة وهو يقول « ابن آدم لم تكن فكونت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فبخلت ، بئس والله ويحك ماصنعت » وسلمنا عليه ، ووقفنا ساعة فما التفت الينا ، ولا شعر بنا ، فقال : الرجل والله فى غير مانحن فيه ، فانصرفنا ولم نجتمع به .

(ه) التسامح : لم يكن فى تدنيه متعصبا تعصباً يدفعه إلى أن يكون كارها لـكل إنسان مالم يأخذ بدين الاسلام ؛ بل فتح صدره لكل شخص مهما تكن نحلته واستوحى من حقيقة الاسلام الدعوة إلى المحبة والسلام ، لا إلى الحرب والخصام ، ولذا كان يحضر درسه النصارى وغيرهم لفتح صدره لهم . وكان هو يوادهم ، ويحاسنهم . ويحكى أن نصرانيا من المترددين على مجلسه لسماع أقواله مات ، فذهب الحسن إلى أخيه ليعزيه فقال له : « أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينك ، وبارك لنا فى الموت ، وجعله غير غائب عنا ننتظره ، وعليك بالصبر فيما نزل بك من المصائب » وذلك تسامح لم يعرف إلا فى الصالحين الأقوياء الايمان الذين يأخذون بلباب الدين ومرماه ، ويتركون اللجاجة والخصام ، لنفور الشريعة السمحة عنها ؛ ولأن معاملة المخالفين بالمودة تحببهم فى الشريعة وأهلها ؛ ولقد قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين

لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

(٦) الفصاحة : تفصح الحسن بوادى القرى ، ونال من اللغة العربية أشطرها ، بل إنى لا أغالى إذا قلت إنه نشأ نشأة عربية خالصة ، ولو أنه فارسى ؛ لذلك كان فصيحا ، بارع الحكمة ، قوى البيان رائع المعانى ، يحكى فى بيانه صورة صادقة لهداية المؤمنين ، وعظة للمتقين ، فقد هذب بيانه ، وراض نفسه ، وقوى إيمانه ، حتى قال فيه الأعمش : « مازال الحسن يعتنى بالحكمة حتى نطق بها » وسمعه آخر وهو يعظ فقال : « لله دره إنه لفصيح إذا لفظ ، نصيح إذا وعظ ، » . قيل للحجاج من أخطب الناس . قال : « صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة » يعنى الحسن . وقال أبو عمرو بن العلاء « ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ، ومن الحجاج الثقفى . فقيل له فأيهما أفصح ، قال الحسن » . وقد كان ذا لفظ نقى سهل رقيق ، متخير عذب ، قد جانبته معانى الزهادة والورع والتقى . سمعته أم المؤمنين عائشة يتكلم فقالت « من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟! »

قوة شخصيته : يعد الحسن البصرى من أقوى رجال الفكر الاسلامى شخصية ، وأشدهم نفوذا ، وأبعدهم فى تاريخ الفكر مدى ، أجلته العامة ، ورفعته الخاصة ، وهابه الحكام ، واستحيا من سمته القساة الطغام ، نهل من ينبوع علمه أكثر زعماء الفرق فى عصره ، ودانوا له بالاجلال ، حتى كان واصل يضع مواعظه موضع التقدير ، مع مانشب بينهما من خلاف . شتم الحجاج وهو القاسى الشديد القسوة ، ولما حضر بين يديه وخاطبه استحيا أن يعاقبه مهابة وإجلالا . وحدث عن نفوذه عن العامة ولا حرج ؛ فيروى أنه لما مات

شيعت البصرة كلها جنازته .

ما السر فى هذا النفوذ ؟ (١) لا شك عندى فى أن الحسن قد أتاه الله قوة روحية ، جعلته يستولى على نفس مخاطبه وقلبه ، فيقيدها بما يريدويدفع بهما الى مايرى ، وينبغى من سداد ، وتلك خاصة قد وهبها اللهلذوىالنفوس السامية التى تقود ولا تقاد .

(٢) هذا وقد ظهرت فى الحسن مزايا أخرى أحلته من الناس فى مكانة التجلة والاجلال . كان ذا سمت حسن ، وكان ذا إرادة قوية وخلق متين ، والناس لا يرتفعون بعلم غزير فقط ، بل بذلك وبخلق متين . قيل لعبدالواحد صاحب الحسن بأى شىء بلغ الحسن فيكم الى ما بلغ ، وكان فيكم علماء وفقهاء فقال ان شئت عرفتك بواحدة أو باثنتين . فقلت عرفنى بالاثنتين . فقالكان اذا أمر بشىء أعمل الناس له ، وإذا نهى عن شىء أترك الناس له . قلت فما الواحدة ؟ قال لم أر أحدا قط سريرته أشبه بعلانيته منه وكل هذا ولا شك من مظاهر قوة الارادة وقوة الخلق ، وقوة الايمان ، ومن الناس من يرى الآراء الحسنة ، ولكنه يتجافى عمله عن رأيه ، وليس ذلك إلا لضعف إرادته وضعف إيمانه ، وعدم تماسك أخلاقه وانحلال نفسه .

(٣) وليس من شك فى أن للشكل الجثمانى دخلا فى الاحترام اذا أضيف اليه الخلق وقوة الروح ، وقد كان الحسن ممن آتاه الله بسطة فى العلم والجسم ، وقد قالوا إنه كان من أجمل أهل البصرة ، تام الخلق ، حتى قالوا إن غرض زنك كان شبرا ، ثم كان أن سقط عن دابته ، فحدث بأنفه ما شوهه .

(٤) كان يحترم نفسه ، ويتعفف عن الذهاب الى الحكام ، والانتماء اليهم ، لايتملقهم ، ولا يندفع الى مجالسهم . ورد أعرابى البصرة ، فقال من سيد هذا المصر ؟ قالوا : الحسن بن أبى الحسن ، قال فبماذا ساد أهله ؟ قالوا :

استغنى عما فى أيديهم من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما عنده من أمر دينهم ، فقال الاعرابى لله دره هكذا فليكن السيد حقا .

(٥) وكان يجمل تلك السجايا علم عزيز ، فتضافرت هذه الأسباب ، وكونت لها مهابة عالية عظيمه ، كان بها ذا شخصيه قويه نفاذة إلى القلوب .

علمه (١) كان عالما فقيها محدثا متكلما ؛ وقد جمع الله له ميزتين عظيمتين فقد أخذ من علم السلف ، ونال من الأفكار العقليه الفلسفية خير ما فيها ؛ كانت نزعته الدينية تدفعه إلى تأثر السلف الصالح ، والاقتباس من نورهم فكان إذا ذكرت الصحابة يقول « قدس الله أرواحهم ، شهدوا وغبنا ، وعلموا وجهلنا . فما أجمعوا عليه اتبعناه ، وما اختلفوا فيه رفعناه » وقد كان مقامه فى أرض العراق ، واتصاله بالفرق الاسلاميه ، وإطلاعه على بعض الآراء والمنازع التى كانت فيها ، وهى أثارة من علم الأولين من الامم التى سكنتها . سببا فى أن نال أشطرا من المنازع العقلية ؛ وإنك لتلمح ذلك واضحاً فى آرائه فى العقيدة ، وآرائه فى الدين ، وآرائه فى السياسة . ألا تراه يوافق الخوارج فى تخطئة على فى التحكيم ، ولكن لا يكفره ، وانظر إليه وهو يقول : « لم يزل أمير المؤمنين عليه السلام مظفرا مؤيدا بالنعم ، حتى حكم ، ولم تحكم والحق معك ؟ ألا تمضى قدما لا أبالك ؟؟ » .

(٢) وفى الحق إنا نلاحظ فوق ما سبق أنه لم يكن متخصصا فى مادة لا يجيد سواها ، بل كان ملما بأكثر المنازع التى اشتهرت فى عصره ، يختار منها أجودها وأحكمها . ولا نصف علمه وفكره وقوة مواهبه بخير مما وصفه قرة الحرانى الحكيم فيما نسبه إليه أبو حيان التوحيدى ، إذ قال .

« كان الحسن بن أبى الحسن البصرى من درارى النجوم علما وتقوى وزهدا وورعا وعفة ورقة وتألها ، وفقها ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه

تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا ، ولا قريبا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته ، عاش تسعين سنة ، لم يقترف بمقالة شنعاء ، ولم يزن بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقى الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يتبعه فى كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة . وهو فى جميع هذا كالبحر العجاج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقا ، ولا تنس مواقفه ، ومشاهده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان بن فلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنية لائمة فى الله ، ولا تذهله رائعة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى اسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق وأشباه هؤلاء ، ونظراؤهم فمن ذا مثله ؟ ومن ذا يجرى مجراه » .

آراؤه فى أصول الدين : لم نر للحسن كتبا قد دونت فيها آراء ، ومذاهب

ولكن وجدنا آراء منقولة بالرواية ، وهو يشبه سقراط فى أنه ربى رجالا ، ولم ينشىء كتبا ، ولذا كان من العسير الحصول على آرائه فى كل ما تصدى له ، وبيان وجهة نظره فيما ارتآه . وإنا لنعثر على آرائه فى بطون الكتب مبعثرة ؛ ونلمس من المأثور من كلامه ما نراه دافعا دفعه الى تلك الآراء ، وهاهى ذى آراء فى أصول العقيدة .

(١) رأيه فى الايمان : يرى الحسن أن الايمان الجدير باسم الايمان هو ما يدفع إلى العمل به ، فالايمان فى نظره يستلزم العمل حتما ، وذلك الرأى يشبه رأى سقراط فى المعرفة ، فهو يرى أن الفضيلة المعرفة ؛ لأن معرفة الخير تستلزم فى نظره عمله .

ومن السهل أن ترى من كلام الحسن ما تستدل به على أخذه بذلك الرأى وهذا المنزع قال فى بعض مواعظه : « الرجل الذى يحب الله يحب التعب ، ويؤثر النصب ، هيهات لاينال الجنة من يؤثر الراحة ،من أحب ماعند الله سخا بنفسه ان صدق ، وترك الأمانى ؛ فانها سلاح النوكى » قيل له كيف ترى يا أبا سعيد فى الرجل يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب . قال : « ما أعرف هذا من أخلاق المؤمنين » وكان يقول : « ان الرجل اذا طلب القرآن والعلم لله ، لم يلبث أن يرى ذلك فى خشوعه وزهده وحلمه وتواضعه » وانظر الى تلك الموعظة التى رويت له ؛ فأنك ترى فيها هذا الرأى واضحا ، ثم يدلل على رأيه ويقول : « ابن آدم إنك لن تجمع إيمانا وخيانة ؛ كيف تكون مؤمنا ، ولا يأمنك جارك ؛ أو تكون مسلما ؛ ولا يسلم الناس منك ؛ أليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه » .

(٢) رأيه فى مرتكب الكبيرة : وقد بنى على رأيه فى حقيقة الايمان رأيه فى مرتكب الكبيرة ، فهو يرى أن مرتكب الكبيرة منافق ؛ لأنه لو كان مؤمنا ما ارتكبها ، وما يعلنه من الايمان لم ينل صميم القلب ، وانظر اليه وهو يقول : « الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض ؛ وأما الكافر فقد قمعه السيف ، وشرده

الخوف ، فأذعن بالجزية ، وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففى الحجرات والطرقات ، يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة ، ويلك قتلت وليه ثم تتمنى عليه جنته » .

(٣) رأيه فى أفعال الانسان : يظهر من مجموع المأثور عن الحسن أنه يرى أن أفعال الشر إنما هى من العبد لا من الله ، ، وان العبد يخلق الشر بقدرة أودعها الله أياه ، ولكن الشهرستانى ينكر أن يكون ذلك رأى الحسن فقد جاء فى الملل والنحل : « رأيت رسالة نسبت الى الحسن البصرى ، كتبها إلى عبد الملك بن مروان ، وقد سأله عن القول فى القدر والجبر ، فأجابه بما يوافق مذهب القدرية ، واستدل فيها بآيات من الكتاب ، ودلائل من العقل » ثم قال « ولعلها لواصل بن عطاء ، فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى ، وان هذه الكلمة كالمجمع عليها عندهم » وعندى أن ذلك لا يصلح ابطالا لما نسب إلى الحسن من رأيه فى أفعال الانسان ؛ لأن عقيدة السلف فى القدر تضاربت أقوال العلماء بشأنها ، فالمعتزلة يعدونها مناصرة لهم ، والأشاعرة يعدونها موافقة لطريقهم ، وعلى فرض أن عقيدة السلف كمذهب الأشاعرة ، فلا نستطيع أن نقول : إنها كانت محل إجماع لم يخالفها مخالف منهم ، وقد روى عن على رضى الله عنه ومقامه فى الدين مقامه ما يخالف طريقة الأشاعرة ، فلا مانع إذن من أن يكون الحسن قد اعتنق هذا الرأى ، مع أنه يتأثر طريقة السلف .

وإذا كان لدينا من المأثور عنه أقوال صريحة فى اعتناقه هذا المذهب وجب أن نجزم بدلالتها على اعتناقه وقد روي عن الحسن كلام كثير يدل على ذلك ، منها الرسالة التي أشار إليها الشهرستاني ، ولا يقبل طعنه فى صدق نسبتها إليه ، كما لا تقبل

نسبتها إلى واصل؛ لان عبد الملك قدمات، وسن واصل حوالى ست سنوات ، وتلك سن لا تتكون فيها آراء بداهة ، وعلى فرض أن واصلا كان فى عصر عبد الملك فى سن تكونت فيها آراؤه ، فاحتمال نسبتها إليه احتمال غير ناشىء عن دليل، وليس له سند تاريخى يعتمد عليه . وإذا كان لدينا كلام كثير للحسن ينحو منحى هذه الرسالة بطل كل احتمال ، وفسد كل استدلال .

قال داود بن أبى هند : سمعت الحسن يقول كل شىء بقضاء الله وقدره ، إلا المعاصى . وكتب إليه الحجاج يقول ، « بلغنا عنك فى القدر شىء ، فا كتب إلينا بقولك ، فكتب إليه ، وكان من رسالته إن أهل الجهل قالوا : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولو نظروا إلى ماقبل الآية ومابعدها ، لتبين لهم أن الله لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر ، لقوله تعالى: « ويضل الله الظالمين » أى يحكم بضلالهم وقال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، وما يضل به الا الفاسقين »

ومنها « واعلم أيها الامير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يعولون فى أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر ، ثم لا يرضون فى أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والبحث والطلب ، والأخذ بالحزم فيه ، ولا يعولون فى أكثر دنياهم على القضاء والقدر .

قال : أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسودا وجهه » من هذا كله يبدو لنا أن الحسن كان رأيه فى إرادة الانسان كرأى المعتزلة .

رأيه فى بنى أمية : بينا لك أن الحسن قد اعتزل السياسة عمليا ، ولكن لم يعتزلها فكريا ، بل كون له رأيا فى كل الأحداث التى نزلت بالأمة الاسلامية وقد علمت أنه كان من الموالين لعلى رضى الله عنه ، ولم يخطئه إلا فى التحكيم

وانظر إلى وصفه له كرم الله وجهه ، فقد جاء فى نوادر أبى على القالى « عن هشام بن حسان قلت للحسن البصرى : يزعم الناس أنك تبغض عليا . قال : أنا أبغض عليا ! كان سهما صائبا من مرامى الله عز وجل ، ربانى هذه الأمة وذا فضلها وشرفها ، وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ ، وزوج فاطمة الزهراء وأبا الحسن والحسين ، لم يكن بالسروقة لمال الله ، ولا بالنئومة فى أمر الله ، ولا بالملولة لحق الله ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما له فيه وما عليه ، حتى قبضه الله اليه ، ففاز برياض مونقة ، وأعلام مشرقة . أتدرى من ذاك ذاك على ابن طالب كرم الله وجهه » وعند ما بلغه مقتل الحسين بن على رضى الله عنهما بكى وانتحب وتأوه ، وقال : « واحسرتاه ، ماذا لقيت هذه الأمة ، قتل ابن دعيها ابن نبيها ، اللهم كن له بالمرصاد وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .
لذلك نقرر فى يقين أن الحسن لم يكن من أنصار بنى أمية ، ولكنه لم يدع الناس إلى الخروج عليهم ومنابذتهم ، وإذا سئل فى درسه عن الخروج على الحكام الظالمين حرم ذلك ولم يبحه . وقد كان يأخذ بالموعظة الحسنة فى هدايتهم ، وينقم عليهم مظالمهم.

ولعل سائل يسأل لماذا سكت عن هذه المظالم ، ولم يدع الناس إلى الوقوف فى وجه الظالمين ، والضرب على أيديهم سالكا فى ذلك سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والجواب عن ذلك (١) أنه لاحظ أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى فى الأمور وإضطراب الامن وفساد الأحوال ، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم ما لا يرتكب فى استبداد سنين ؛ إذ الطبائع الفاسدة تظهر والجبلات المنحرفة تتبين ؛ فيشيع الشر ، ويكثر الفساد . وقد سأله رجل قائلا ما تقول فى أئمتنا هؤلاء ، فسكت مليا . ثم قال : وما عسى أن أقول فيهم ؛

وهم يلون من أمورنا خمسا : الجمعة ، والجماعة ، والفيء والثغور ، والحدود ؛ والله لا يستقيم الدين إلا بهم ، وإن جاروا ، وإن ظلموا ، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون » والاصلاح بهم دفع خطر الفوضى ومظالمها .

وكان يقول « هؤلاء (يعنى الملوك) وأن رقصت بهم الهماليج ، ووطىء الناس أعقابهم ، فان ذل المعصية فى قلوبهم ، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم ، ومنعنا من الخروج عليهم ، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم .

(٢) ورأى أن كثرة الخروج على الولاة يحل الدولة الاسلامية ، ويجعل بأس المسلمين شديدا فيما بينهم ؛ فيكلب فيهم عدوهم ، ويحرب عليهم خصومهم ويستعدى عليهم موتورهم .

(٣) ذلك الى أنه رأى الدماء تهرق فى الخروج بدون حق يقام ، ومظلمة تدفع ، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم .

(٤) ووجد أن الطريق المعبد لاصلاح هذا الأمر إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم ، رأى أن الفساد عم الاثنين ، وتغلغل فى الفريقين ، فاعتقد أن الحكام لون من الوان الشعب ، ومظهر لحاله ؛ فان يتغيروا ما لم يتغير هو ، والملازمة بينهما ثابتة ، فاذا اتجه الشعب إلى إصلاح حاله ، وصار فى الطريق تبعه حتما صلاح الحكام ، سمع رجلا يدعو على الحجاج فقال : « لا تفعل رحمك الله . إنكم من أنفسكم أوتيتم . إننا نخاف إن عزل الحجاج ، أو مات أن تليكم القردة والخنازير فقد روى أن النبي ﷺ قال «عمالكم كأعمالكم ؛ وكما تكونون يولى عليكم » ولقد بلغنى أن رجلا كتب إلى بعض الصالحين يشكو اليه جور العمال ، فكتب اليه يا أخى ، وصلنى كتابك تذكر ما أنتم فيه من جور العمال ، وأنه ليس ينبغى لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة ، وما أظن الذى أنتم فيه الامن شؤم الذنوب والسلام »

ورأيه هذا الذى ارتآه من أن صلاح الشعب يتبعه صلاح الحاكم ، وأن الثورة ليست هى الطريق لاصلاح نظام الدولة هو رأى جوستاف لوبون فى إصلاح نظام الحكومات ، واقرأ كتاب الثورة الفرنسية تر ذلك الرأى واضحاً بأدلته .

من كل هذا ترى أن الحسن كان ينكر مظالم بنى أمية ، وينكر الخروج عليهم ، ويرى أن حكمهم ليس هو الحكم العدل القائم على أساس من الهداية ، وقد كان يعتقد أن الحكم المنتظم حقاً ماقام على أساس الشورى ، وكان ينقم من بنى أمية عامة ، ومعاوية خاصة أن جعل الحكم وراثيا بعد أن كان شوريا . كان يرى أن أمرين أفسدا الناس سياسيا فى عصره أحدهما : مافعله عمرو بن العاص من رفعه المصاحف ، والأمر الثانى إشارة المغيرة بن شعبة على معاوية بالعهد لابنه يزيد . وقال فى هذا : « من أجل هذا بايع هؤلاء لابنائهم ، وصارت الخلافة تتوارث ، ولولا ذلك لكانت شورى ، لايليها إلا من اتفق على فضله واستحقاقه الامامة إلى يوم القيامة » ، وجاء فى المنية والأمل أنه قال : « أربع خصال فى معاوية لولم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة:خروجه على هـذه الأمة بالسفهاء ، حتى ابتزها بغير مشورة منهم ؛ واستخلافه يزيد ، وهوسكير خمير يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زيادا ، وقدقال النبى ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجربن عدى فياله من حجر وأصحاب حجر)

وللحسن وصف للحاكم العادل ، ذكره فى كتاب أرسله إلى عمر بن عبدالعزيز إذ طلب منه ذلك الوصف وهاهو ذا الكتاب

«اعلم ياأميرالمؤمنين أن الله قد جعل الامام العادل قوام كل مائل ،وقصد

كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته . والامام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والامام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ، ويسمعهم ، وينظر إلى الله ، ويريهم ، وينقاد إلى الله ، ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم . واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا فتزود له بما يصحبك « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين ، وإنك فى مهل ، قبل حلول

الأجل ، وانقطاع الأمل . لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بأذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، « وقد عنت الوجوه للحى القيوم » وإنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى عليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

اتخاذ الحسن التقية : يظهر أن الحسن مع ما أبداه كان يخفى آراء أخرى ويمتنع عن إعلانها خشية أن تقع عليه المظالم ، ويشتد به استبداد الأمويين يروى أنه كان إذا حكى عن على شيئاً فى ملأ من الناس ، قال عنه أبو زينب .

قال إبان بن عياش قلت يا أبا سعيد : ما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى شأن على ؟ فقال : يا ابن أخى أحقن دمى من هؤلاء الجبابرة ، لولا ذلك لسالت بى أعشب .

ولا شك أن هذا أخذ بمبدأ التقية وهو أن يخفى الانسان ما يعتقده خشية أن يقع عليه ظلم ، بل يظهر غيره من غير أن يكون فى ذلك ضرر على جمهرة المسلمين ، وقد بنى ذلك على بعض آيات وردت فى القرآن مثل قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح

بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم » فقد أبيح النطق بالكفر مع إضمار الايمان ، ومثل قولة تعالى « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة » . فأبيح فى هذه الاية موالاة الكافرين عند الخوف منهم تقية من غير ضرر دينى يلحق المسلمين .

ولكن أخذ الحسن بمبدأ التقية هذا لم يكن كثيرا ، بل كان قليلا ، ولم نعلم أنه دفعه إلى مناقضة آرائه الدينية أصلا ، ولكن كان يدفعه إلى الموادبة أحيانا فى آرائه السياسة .

اتصاله بالحكومة فى عهده : تولى الحسن فى شبابه الكتابة للربيع بن زياد والى خراسان . وفى عهد الدولة الأموية طلبه عدى بن أرطأة ليوليه قضاء البصرة فرفض .

وقال ابن الجوزى : « قيل لما ولى عدى بن أرطأة البصرة عزم على أن يولى الحسن القضاء ، فهرب الحسن ، واستتر ، وكتب اليه : أما بعد ، أيها الامير فان الكاره للأمر غير جدير بقضاء الواجب فيه ، وإن العامل للعمل بغير نية حقيق الايعان عليه ، ولك فى المختارين للأمر الذى دعوتنى اليه كفاية وقناعة ، وقصدك إياهم ، وتعويلك عليهم أولى بك وأصون لعملك ؛ فانه لاخير فى الاستعانة بمن لايرى أن العمل الذى يدعى اليه واجب عليه ، وفرض لازم له ، فعافنى أيها الأمير عافاك الله ، وأحسن إلى بترك التعرض لى ؛ فان الله لايضيع أجر من أحسن عملا ... » فعافاه وأكرمه ؛ وقال : والله ما كنت لأبتليه بما يكرهه .

ويظهر أن الذى حمله على الرفض خشيته أن يعين بتوليه الظالمين . ولذا تولاه عند ماطلبه عمر بن عبد العزيز ، وقال فيه عمر حينئذ : « لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين » .

. وكان مع بعده عن الظالمين من ولاة بنى أمية ، كان إذا استشير أخلص فى الشورى ، ومحضهم النصيحة جريئة قوية . قال ابن الجوزى : « لما قدم عمر ابن هبيرة واليا على العراق أحضر الحسن والشعبى ، فقال لهما : أصلحكما الله إن أمير أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب الى كتبا أعرف فى تنفيذها الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن سطوته ، فما تريان لى ؟ فقال الحسن للشعبى يا أبا عمرو ، أجب الأمير ؛ فرقق له فى القول ، وانحط فى هوى ابن هبيرة ، وكان ابن هبيرة لا يستشفى دون أن يسمع قول الحسن ؛ فقال قل يا أبا سعيد فقال : أو ليس قد قال الشعبى : فقال ابن هبيرة فما تقول أنت ؟ قال « أقول والله إنه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ ، لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك فلا يغنى عنك ابن عبد الملك شيئا ، وإنى لأرجو أن الله عز وجل يعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ؛ فاتق الله أيها الأمير ، فانك لا تؤمن أن ينظر الله اليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد نظرة يمقتك بها ، فيغلق عنك باب الرحمة ، واعلم أنى أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » وإذا كنت مع الله عز وجل فى طاعته كفاك بوائق يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله ، وكلك الله إلى يزيد حين لا يغنى عنك شيئا » .

دروسه . كانت دروس الحسن التى يلقيها فى المسجد تحوى أنواعا كثيرة من المعلومات المتفرقة ، ففيها الحكمة والموعظة الحسنة ، والبحوث الكلامية التى فى مهدها نشأت المعتزلة ، وفيها الحديث ورواياته ؛ وفيها الفتيا والأحكام وفيها التفسير والقصص . وقد ورد منهله العذب كل الطوائف بل كل النحل ونهل منه الخاصة ؛ واستفاد منه العامة ، وفى حلقات درسه ظهرت الفرق

الـكلامية: المعتزلة، والحشوية، وغيرهم ؛ فدل هذا على أن الناس على تباين مشاربهم وتعدد مذاهبهم كانوا يحضرون دروسه ، ويشتارون من حلاوة بيانه ، مدفوعين الى ذلك بدافع من الدين ، أو بجاذبية اختص بها ذلك الحكيم .

ويظهر أن أكثر أهل عصره تأثروا به ، ونالوا من علمه قليلا أو كثيرا على حسب اتصالهم به وقربهم منه أو بعدهم عنه ، وعلى حسب استعداداتهم وقواهم ويظهر أنه ما كان يخص بمواعظه مكانا دون مكان ؛ بل كان يلقيها حيثما لاحت له بارقة من حسن الأثر ، ينتهز الفرص إذا سنحت ، وكثيرا ما كان يعظ فى الجنائز حتى شاع أنه كان يسأل رفقاءه وغيرهم عند الدفن هذا السؤال ما ذا أعددتم لهذه الفجوة ؟ أو نحو ذلك .

قصصه : انتشر القصص فى المساجد فى عهد عثمان رضى الله عنه ، ومن جاء بعده من الخلفاء ، وقد قسمه الليث بن سعد الى قسمين : « قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس . يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه(١) لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ، ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للخليفة ، ولأهل ولايته وحشمه وجنده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة (٢) .

وقد اختلط فى هذا القصص الصدق بالكذب ؛ ولذا اتهم الأكثرون من القصاص بالكذب ، وكان من القصاص الحسن ؛ ولكن قصصه امتاز بأنه كان يعتمد على التذكير بالآخرة ؛ ولا يحكى إلا الصدق . كان يجلس فى آخر المسجد

(١) لعل هذا النوع من القصص كان فيه الكثير من الكذب ولذا كرهه

(٢) من كتاب فجر الاسلام نقله عن المقريزى .

بالبصرة ، وحوله الناس يسألونه فى الفقه وفى الفتن التى حدثت فى عهده ؛ فيجيبهم، ويعظهم، ويحدثهم بالمأثور، ويقص عليهم .

ولأنه يتحرى الصدق فى قصصه أبقاه على رضى الله عنه عند ما أخرج كل القصاص من المساجد .

ولما أنحى الغزالى باللائمة على القصاص ، لاقترافهم الكذب استثنى الحسن من بينهم .

ومما أثر عن قصص الحسن قوله: « روى أن عيسى عليه السلام قال للحواريين اعملوا لله ، ولا تعملوا لبطونكم ، فان الطير لا تزرع ، ولا تحصد ، تغدو ولا رزق لها ، الله يرزقها ، فان قلتم إن بطونكم أكبر من بطونها ، فهذه الوحوش من الدواب لا تزرع ولا تحصد ، تغدو ولا رزق لها ، الله يرزقها »

وكان يروى أن عائشة رضى الله عنها رأت رجلا متماوتا ، فقالت ما بال هذا ؟ فقال : إنه صالح ، فقالت لا أبعد الله غيره ، كان عمر رضى الله عنه أصلح منه ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع دعوا التصنع ، فان الله لا يقبل من متصنع عملا .

جاء فى البيان والتبيين للجاحظ أن الحسن قال : « قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة ، وأمير المصرين ، وأشب الناس ، فلما صرنا به إلى الجبانة ، فاذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبا لهم ، فصلوا عليه ، ثم حملنا بشرا إلى قبره ، وحملوا صاحبهم الى قبره ، ودفنا بشرا ، ودفنوا صاحبهم ، ثم انصرفوا وانصرفنا ، ثم التفت التفاتة ، فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى فلم أر شيئا قط كان أعجب منه » .

الخاتمة : قضى الحسن تلك الحياة الطويلة الزاخرة بجلائل الأعمال ، فى نفع وإرشاد ؛ وكان بحق مثلا كاملا للرجل الذى ساد الناس بمواهبه وأخلاقه . ولد عبدا ، ومات سيدا ، ولد مغمورا ومات مشهودا . أدرك فتنا كقطع الليل ، وكان فيها يلوح كما يلوح النجم الثاقب فى الدجنة الحالكة ، وما كان ذلك إلا بمواهبه ، وخلقه المتين ، وعقله الجبار ، وإيمانه بالواحد القهار هابه الحكام ، وأحبته الخاصة ، وتيمنت به العامة . ولقد كان ذا أثر فى تفكير كل من اتصل به من الرجال الذين أودعهم نفسه ؛ ونحل له مخزون فكره ، ودان له بالاجلال الموافقون له فى الرأى والمعارضون ، وما ذلك إلا لأنه فتح قلبه للناس ؛ وكانت سريرته كعلانيته ، فرضى الله عنه وأرضاه .

واصل بن عطاء

٨٠ هـ الى ١٣١

لا بد لنا قبل التعرض لصفاته وما امتاز به من مواهب وسجايا وآراء أن نشرح - ١ - عنصره والدم الذى يسرى فى عروقه ، فان للعنصر والجنس الأثر الأكبر فى تكوين مواهب أصحاب المواهب وتوجيه أفكارهم - ٢ - والبيئة التى أظلته والعصر الذى أحاط به ، وما اشتمل عليه من أحوال سياسية واجتماعية وفكرية ؛ فان هذه الأجواء المختلفة تظهر المواهب ، وتوجهها وتوحى اليها بالآراء التى تواثمها .

عنصره : واصل من أصل فارسى ، وكان مولى لبنى ضبة وقيل لبنى مخزوم ، والموالى فى ذلك العصر كانوا قواد الحركات العلمية ، وأصحاب البدىء من الأفكار ، والجديد من النزعات ، كما بينا ، ففى كل ناحية من النواحى العلمية نرى أثرهم واضحا ، وفعلهم ناجحا ؛ وفكرهم راجحا . وحيثما رأيت نحلة فى الاسلام جديدة ، أو مذهبا فيه جديثا ، فاعلم أن نابتته نبتت فى رءوسهم ، عنهم صدر ، واليهم يعود . جاء فى العقد الفريد « قال لى ابن أبى ليلى قال لى عيسى ابن موسى ، وكان ديانا شديد العصبية من كان فقيه العراق ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين قال فما هما ؟ قلت موليان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبى رباح ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وسليمان بن يسار قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . قال فمن فقهاء المدينه ؟ قلت زيد ابن اسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح . قال فمن هؤلاء قلت موال ، فتغير لونه ثم قال فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعه الرأى وابن أبى الزناد . قال فما كانا ؟ قلت من الموالى . فاربد وجهه ، ثم قال فمن فقيه اليمن ؟

قات طاوس ، وابنه ، وابن منبه.قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه ، وانتصب قاعدا. قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى . قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى . فازدادوجهه تربدا ، واسود اسودادا ، حتى خفته . ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول . فقال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى . فتنفس الصعداء ، ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبه ، وعمار بن أبى سليمان. ولكن رأيت فيه الشر . فقلت ابراهيم النخعى والشعبى.قال فما كانا ؟ قلت عربيان فقال الله أكبر ، وسكن جأشه » .

ولماذا كانت العلوم فى الموالى والنحل من بينهم تنبت ، وعن آرائهم تصدر لعل السبب فى ذلك يرجع إلى الأمور الآتية .

أن العرب فى عصر الدولة الأموية كانت لهم السيادةوالسلطان ، وكان عليهم الحرب والنزال ، فشغلهم كل ذلك عن العكوف على الدرس والاستقصاء والبحث والتعمق ، والموالى رأوا بين أيديهم فراغا ، فأزجوه بالمدارسه والتنقيب والاطلاع والتمحيص،ووجدوا أنهم فقدوا السلطان فأرادوا أن يسدوا تلك الخلة، وينالوا الشرف عن طريق آخر وهو المعرفة والعلم ، والنقص قد يؤدى إلى الكمال ، والحرمان قد يدفع الانسان الى كبرى الغايات ، وجلائل الأعمال ، وذلك ما كان بالنسبة لهؤلاء الموالى ، فقد سيطروا على الفكر العربى الاسلامى ، وإن كان للعرب اغلب المادى .

٢ – أن العرب لم يكونوا أهل صناعات ، والعلم إذا تفرغ له الانسان صار كأنه صناعة له . قال ابن خلدون من كلام طويل فى هذا المقام: «ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وإن العرب أبعد الناس عنها

فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعــد عنها العرب ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر .

٣ ـ أن الصحابة استكثروا من الموالى ، وكان هؤلاء لهم تبعا ، وملازمين يصاحبونهم فى غدوهم ورواحهم ؛ فيأخذون عنهم ما عرفوا من رسول الله ﷺ ، حتى إذا انتهى عصر الصحابة ، كان أولئك حملة العــلم للعصر الذى يليه ؛ ولذلك كان أكثر التابعين منهم .

ومما يروى فى هذا أن عكرمة مولى ابن عبــاس ، كان على الرق يوم مات ابن عباس ، فباعه ولده على من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه عليا ، فقال له ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف فاستقاله ، فأقاله ، فاعتقه .

٤ - أن أولئك الموالى ينتسبون إلى أمم عريقة ، ذات أفــكار قديمة وآراء دينية ، فكان لهذه تأثير فى تكوين أفــكارهم ، وتوجيه أذهانهم بل معتقداتهم وانظر الى قول جوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات : « دلت التجربة والاختبار على أن للامم ذات الماضى الطويل آراء ومعتقدات واحدة فى بعض الموضوعات الاساسية .... ليست روح الشعب عبارة عن تصوير نظرى ، بل هى حقيقة ذات حياة تكونت من تقاليد وأفكار وأساطير وخيالات متكاثفة فى النفس تــكاثفا ارثيا » ومعنى ذلك أن كل شخص ينتمى إلى أمة ذات ماض طويل فى حضارة ، وثقافة لابد أن يكون فى نفسه ميراث فكرى من جنس حضارة هذه الأمة ، هذا الميراث يكون استعدادا كامنا تنميه أو يخفيه بيئته الاجتماعية أو الفكرية ؛ لذلك لايأخذنا العجب ، إذا رأينا كثيرا من هذه الآراء ، وتلك النحل التى ظهرت فى العصر الأموى ، ونمت فى العصر العباسى ، لها نظير فى النحل الفارسية القديمة والمذاهب المسيحية أو اليهودية

ولكنها تفترق عنها بأن تلك هذبها الاسلام ، إن كان أصحابها ممن أشربت قلوبهم حبه

إذا علمت ماامتاز به الموالى فى الاسلام ، وان واصلا كان منهم فلا تعجب اذا كان بعد ذلك رئيس فرقة تكلمت فى أصول الاعتقاد ،وخالفت فى طرائق تفكيرها،وفى بعض ماأنتجه فكرها المألوف عند الفقهاء والمحدثين الذين تتبعوا المنصوص عليه فى الكتاب والسنة لايعدونه إلى ماوراء ذلك

بيئته : إن المفكر ذا الأثر فى أفكار أهل عصره لاتكون آراؤه بديئة لم تكن لها مقدمات سابقة ، ولا عش فرخت فيه،حتى ظهرت تلوح لكل من يطلب علما ، بل هى نتيجة لمقدمات سبقت ، وثمرات لأشجار غرست ووسط مناخ فكرية تشعبت ، فالمفكر العظيم نتيجة سبقتها مقدمة ، ومقدمة تتلوها نتيجة ، هو ثمرة جيل ، وغارس الأصول لجيل

والبيئات التى يتغذى منها المفكر هى الاحوال السياسية فى عصره ، والاحوال الاجتماعية ، والاحوال الفكرية

أما الأحوال السياسية فى العصر الأموى فهى كما تعلم ، دولة مستبدة لاتعتمد على قوة من الحق ، تريد أن تفرض حكمها فرضا على الناس ،وتتخذ لذلك وسائل الاغراء تارة والتحذير أخرى ، تستدنى القلوب بالمال أحيانا ، وتبرق بالسيوف أحيانا كثيرة ، وقدشق عصا طاعتها كثيرون ، بعضهم امتشق الحسام ، وبعضهم سكن ، وفى نفسه لوعة ، وفى قلبه حسرة ونقرة ، كثر خروج الخوارج على الدولة ، وشغلوها بغاراتهم،وأحيانا كانت تكون كفتهم قريبة من الرجحان ، والشيعة قد استقرت فى العراق وفارس وخراسان إن لاحت بارقة نجاح ظهروا ، وان رأوا مدلهمات الخطوب سكنوا ، ولم يكن ذلك التناحر السياسى خاليا من النزعات الفكرية بل إنها سادته ، وسيطرت

عليه ، فالخوارج كانوا يفكرون فى كل شىء ، فى حكم مرتكب الكبيرة ، ثم فى حال الخلفاء الراشدين ، وغير ذلك من المسائل التى يتعلق بعضها ، بالامامة وبعضها بأصول الاعتقاد ، والشيعة فكروا فيمن يستأهل الامامة ،وانشعبوا فى ذلك الى فرق كثيرة على ماتعلم ؛ ولم يقتصروا على ذلك ، بل اتجهوا الى العقائد ؛ ففكروا فيها بل الى الفروع ، فكانت لهم آراء خاصة بهم ومذاهب فقهية امتازوا بها ، فالاحوال السياسية تبعها أحوال فكريه متشعبة

الاحوال الاجتماعية : حسبك أن تعلم أن واصلا قضى أكثر حياته فى العراق ، والعراق كان موطنا لطوائف مختلفة الاجناس ، فمنهم عرب وأغلبهم مضريون ، ومنهم النبط ، ومنهم فرس ، ومنهم آراميون ، ولكل طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد تستمدها من مدنيتها الاولى وجنسيتها القديمة ، وحد الاسلام دينهم ، ولكنه لم يجمع أهواءهم ، ولم يوحد أجناسهم ، ولذلك بدت فى العراق أهواء مختلفة ، واحساسات متناقضة ؛ نجم من هذه العناصر مخلوط غير تام المزاج ، يتوحد فى ظاهره ؛ ويختلف فى باطنه ؛ ولذلك سادته الفتن وخطبة زياد البتراء ؛ وخطب الحجاج المختلفة أصدق مصور لاحوال العراق الاجتماعية فى ذلك العصر ؛ ولكن كان بجوار أهل الشقاق والفتن فى العراق زهاد كثيرون من أمثال الحسن البصرى والشعبي وغيرهما من كبار رجال الدين الممتازين

الاحوال الفكرية ــ ا ــ امتازت الحال الفكرية فى العصر الاموى بظاهرتين احداهما دينية ؛ والاخرى علمية ؛ فاما الدينية فهى أن الاحكام الدينيه ابتدأت توضع لها قواعد جامعة ؛ وكان فى كل جهة إمام فى الدين له مدرسته ، فأبو حنيفة فى العراق ؛ ومالك فى الحجاز ؛ والليث فى مصر ؛ وأما العلمية الفلسفية فهى أن الترجمة ابتدأت تظهر ؛ وحركة النقل من اللغات الاخرى الى اللغة

العربية أخذت تنتشر ، وأولئك الاجانب الذين تفصحوا فى العربية أخذوا يدونون بها ماقرءوه فى لغاتهم ، وكان بعضهم قد مهر فى الفلسفة والعلوم قبل اسلامه ، فهذا عبد الملك بن أبجر الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز أيام كان واليا على مصر كان فى أول أمره مدرسا فى الاسكندرية ومن علماء مدرستها ، وأمثاله كثيرون ، وعنهم أخذت الافكار الاسلامية تنهل من علم الفرس واليونان ، والعراق الذى تربى فيهاواصل ونشأ كان السريان منتشرين فيه قبل الفتح،ولهم مدارس يدرسون فيها الاداب اليونانية ، وكانت فى العراق مذاهب نصرانية يتجادل أصحابها فى كثير من العقائد ، فكان لا بد أن تتخلف من هذا جميعه آراء وأفكار خمدت فى أثناء الحروب ، ثم استيقظت بعد أن قرت سياسة البلاد ، ولما دخل كثير من أهل العراق فى الاسلام أخذت هذه الاراء تصطبغ بالصبغة الاسلامية،يزهر منها مايتفق مع الاسلام،ويذبل منها مايخالفه (١)

اذا كان ذلك كذلك فلا تعجب اذا رأيت أكثر الفرق الاسلامية قد نبتت فى العراق ، خصوصا الفرق التى تجانفت عن بعض الاصول الاسلامية ، والفرق التى نزعت منزعا فلسفيا فى اثبات العقائد كالمعتزلة ، ولا عجب إذا كان شيخهم واصلا ممن تغذى من تلك الحركات الفكرية التى ظهرت فى العراق فى ذلك العصر

نشأته : ولد بالمدينة . ولكن لا نعلم الزمن الذى مكثه فيها بالتعيين لنعرف ما ارتسم فى ذهنه من عادات أهلها ، وما كان يظلها من أفكار وآراء ، وقد انتقل الى العراق ، ويظهر أنه قضى فيه سن التعلم ، فقد جاء فى الملل والنحل

---

(١) فجر الاسلام

أنه كان تلميذا للحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والاخبار ، واستمر تلميذا للحسن إلى أن اعتزل مجلسه عند ما اختلفا فى مسألة مرتكب الكبيرة ، ويظهر أنه كان ينتاب مجالس غيره من العلماء ، بل يظهر أنه كان يغشى مجالس الشيعة ، حتى عد ممن تخرج عليهم وتربى ، وحتى إنه كان يقال أخذ واصل الاعتزال عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفه . وإذا ساغ لنا أن نستنبط من آرائه نوع تربيته ، وأثر العلماء الذين تخرج عليهم ودارسهم ، فيجب أن نقرر أنه اتصل بالخوارج والشيعة وأهل الحديث وأرباب النحل المختلفة ، فان آراءه مزيج من كل هذه العناصر ، تكونت واتحدت ، فكونته ، وأظهرته ، فمذهبه فى مرتكب الكبيرة ، ومذهبه فى الامامة ، ومذهبه فى العقائد ، تلمح فيها كل التعاليم السابقه كما سنبين ذلك جليا عند الكلام على آرائه .

٢ — لايتخرج المفكر على الرجال فقط ، بل يستمد من البيئة العامة التى تظله والآراء التى تضطرب وتتناحر فى عصره ، وخلاصة الكتب التى يقرؤها ، ولذلك يجب علينا أن نقول : ان واصلا قد استمد من العراق ووروث ما فيه من نزعات فكرية ، واضطرابات مذهبية ، فعصر كل ذلك واستساغ منه ما يلائم نفسه ، وما يتفق مع هدية وإيمانه ، فقد كان شديد الايمان بالله ، قويا فى دينه ، كما سنبين ذلك عند الكلام على صفاته ، وعلى دفاعه عن آرائه .

٣ — وقد كان كثير المراقبة لعيوبه شديد المؤاخذة لنفسه ، ولذلك هذبها أتم تهذيب ، وكملها أكبر تكميل . ان الانسان لا يتخرج على الكتب والرجال فقط ، بل لارادته أحيانا أثر كبير فى نفسه ، فتوجيه الانسان

عقله وسيطرة إرادته على هواه من الأمور التى تكمل فكره ، وتهذب نفسه ، وتربى ملكاته ، ويظهر أن واصلا كان عنده من هذا القدر الوافر ، يدلنا على ذلك أمران ، أحدهما أخذه نفسه بالابتعاد عن الراء إذ رأي لثغته فيها ، كما سنوضح ذلك ، ثانيهما امتناعه التام عن الغضب فى مجادلاته ، وأخذه نفسه بذلك. وانظر إلى ما روى عنه مع عمرو بن عبيد ؛ فان إنسانا سأل عمرا هذا عن شىء فى القدر بحضرة واصل ، وغضب عمرو على سائله ، واجابه له بما لم يرضه، فقال له واصل: «ياأبا عثمان إياك وأجوبة الغضب ؛ فانها مندمة ، والشيطان يكون معها ، وله فى تضاعيفها همزة ، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعيذ من همزات الشيطان ، وان يكونوا معه بقوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين الخ الآية » وقلما شاهدت أحدا تثبت فى جوابه ، وماينطق به لسانه ؛ فيلحقه لوم»

صفاته : امتاز واصل بصفات جعلته من كبار الرجال حقا ؛ وأعظم تلك الصفات .

١ — صمته . فلم يكن ثرثارة كثيرة الفضول ، بل كان لا ينطق إلا بقدر معلوم ، والا عند الحاجة . وقد جاء فى المنية والأمل « كان واصل يلازم مجلس الحسن ، ويظنون به الخرس من طول صمته ، فمر ذات يوم عمرو بن عبيد ، فأقبل عليه بعض مستحيى واصل ، فقال هذا الذى تعدونه فى الخرس ، ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقه والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه » (١) ، والسكوت فى مواطن السكوت يجعل المجادل أقوى على خصمه، وأعرف بمواضع ضعفه ، فاذا رمى

(١) هذا يدل على أنه اتصل بالشيعة والخوارج وغيرهم وتأثر بهم وإن كان قد رد عليهم، فان المخالف قد يتأثر بمخالفه وإن ناضله ونازله

أصاب ، وإذا جودل أجاب ، وكان كلامه فصل الخطاب

(ا) قدرته على الخصام والجدل : كان مع صمته قوى الذهن حاضر البديهة ، فهو يسكت عند ما لا يكون الكلام واجبا ، فاذا وجب القول تدفق كالسيل المنحدر فى الوادى ، فلا يترك مقالا لقائل ، ولا شبهة لمشتبه ، وهو بصير بمرامى الكلام وغاياته . وفى الحق أن القدرة على البيان ، وصرع الأخصام فى مقام النزال تستدعى خمسة أمور ، كلها اجتمعت لديه ، وتوافرت فيه ، وهذه الأمور هى :—

(ا) مقدرة على التصرف وعدم الحبسة الفكرية ، مع ثبات الجنان ، وتلك كانت فيه. ومما يدل على ذلك القصة التى حكاها صاحب الكامل إذ جاء فيه : «حدثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فى رفقة ، فأحسوا الخوارج ، فقال واصل لأهل الرفقة إن هذا ليس من شأنكم ، فدعونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا شأنك ، نخرج اليهم ، فقالوا : ماأنت وأصحابك قال مشركون مستجيرون ، ليسمعوا كلام الله ، ويعرفوا حدوده ، فقالوا قد أجرناكم ، قال فعلمونا ، فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا فامضوا مصاحبين ، فانكم إخواننا ، قال ليس ذلك لكم قال الله تبارك وتعالى : «وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم ، حتى بلغوا المأمن (١)

هذه قدرة على تصريف الأمور ومعرفة كيف يستدرج الخصم إلى مايريد لو لم يتخذ هذا لكان نصيبه القتل حتما ، ولكنه كان يفهم عقلية الخوارج فاستغلها ، وعرف من أين ينالهم ، فينجو من شرهم .

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠

(ب) — حضور البديهة . لتواتيه بالألفاظ الجيـدة ، والمعانى المحكمة ، والأساليب التى تأخذ باللب فى أوجز زمن ، ولقد أتاه الله ذلك الحظ منها ، وليس أدل على ذلك من قدرته على تجنب الراء فى كل خطبه من غير إخلال بالمعنى ، ولا مجافاة للعربية الفصيحة ، مع تصدية للارتجال فى أكثر المناسبات فان ذلك لايتأتى إلا لشخص أسعفته بديهة حاضرة ولسن ، وسرعة خاطر وقوة ذهن ، وذكاء فطرى .

(جـ) الحلم والتأنى ، فقد عرفت مجانبته للغضب ، ورأيه فيه ، وأنه يعقب اللوم فيما سلف من القول .

(د) اطلاع غزير . وقـد عرفت مقـدار اطلاعه وإلمامه بأقوال الفرق الاسلامية التى ظهرت فى عصره ووجوه الرد عليها .

(هـ) الفراسة الصادقة ، وربما كانت هى أعظم العوامل فى الجدال ليعرف المجادل من ملامح خصمه ماتكنه نفسه وما يجول بفكره ، فيأخذ له العدة فى أقل مدة ، وقد يأخذ عليه طريقه إذا كان هو المتكلم ، ويرد على الدليل قبل إلقائه ، ويميت فكرته عنـد سنوحها ؛ وقد آتى الله واصلا من ذلك القـدر الوفير ، والحظ الكبير ، وأظنك قد لمحت ذلك فى مجادلته مع الخوارج التى نقلها صاحب الكامل .

٣ — اللثغة كان واصل الثغ بالراء ، وقد عرف ذلك النقص فيه ، فاندفع إلى تكميل نفسه من هذه الناحية ، ليستطيع التغلب على ذلك العيب الخلقى ، فلم يقوم لسانه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يقوم بيانه ، فمنع الراء من كلامه، وانتصر فى ذلك انتصارا عظيما ، وقد واتته فى ذلك بديهة حاضرة ، وعلم بدقائق اللغة غزير ، ومادة مهيأة معدة ، وأمدته اللغة بسعة مترادفها ، وكثرة موادها، وسهولة تناولها ؛ وانظر الى ما قاله الجاحظ فى محاولة واصل التغلب

على ذلك العيب » ولما علم واصل بن عطاء أنه الثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه اذا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، وانه يريد الاحتجاج على أرباب النحل ، وزعماء الملل ، وأنه لابد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضه ، وإلى تمام الآلة، واحكام الصنعه وسهولة المخرج ، وجهارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن ، وإن حاجة المنطق الى الطلاوة والحلاوة كحاجته الى الجلالة والفخامه وان ذلك أكبر ما تستمال به القلوب ، وتنثنى اليه الاعناق وتزين به المعانى وعلم وأصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه وسلامه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة ومع المحبة والاتساع والمعرفة، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ولذلك قال بعض شعراء النبي صلى الله عليه وسلم .

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبئك بالخير

ومع ما أعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة الى أن حل الله تلك العقدة ، ورفع تلك الحبسة وأسقط تلك المحنة . ومن أجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفه اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ، ويغالبه ، ويناضله ، ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ؛ حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ولو لا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ، ولظرافته معلما لما استجزنا الاقرار به ، والتأكيد له ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله

المخلدة،لان ذلك يحتمل الصنعة ،وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الاكفاء .
ومفاوضة الاخوان » .

٤ — القدرة على الارتجال . اذا كان من الخطباء السياسيين من يجيد الخطـابة ، وان كانت مقدرته على الارتجال غـير كبيرة ، كما كانت حال بعض خطباء اليونان والرومان فى الأزمنة القديمة،فمن المحال أن يكون ذلك شأن الخطيب المناظر ، فان المناظرة ومساجلة الآراء تستدعى القول للتو والساعة ليرد على المناقش حجته ، ويأخذ عليه محجته ، وليبدهه بما لا ينتظره من حقائق ويرد عليه ما يتعرض به ، وعلى ما يريد أن ينقض به دليله : وقد كان واصل بما آتاه الله من ثبات جنان ، وحضور بديهة ، ومواتاة الالفاظ التى تتحدر على فيه ، وينساب سيبها عند ما يريد ـ من أقدر الناس على الارتجال وبده مخاطبه بمالا ينتظر من حجج بينات ودلائل واضحات ، واقرأ خطبته الخالية من الراء التى ارتجلها وقد تبارى مع خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل ابن عيسى فى القول أمام عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ـ تر مقدار قوته فى الارتجال وها هى ذه .

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوه ، ودنا فى علوه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يئوده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعا ، وعدله إصطناعا ، فأحسن كل شىء خلقه وتمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، وتواضع كل شىء لعظمته ، وذل كل شىء لسلطانه ، ووسع كل شىء فضله ، لا يعزب عنه مثقال حبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، علا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا

تحيط به العقول ولا الافهام ، ويعصى فيحلم ، ويدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، وأشهد شهادة حق وقول صدق باخلاص نية وصحة طوية أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه . ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ، ودين الحق ، فبلغ مألكته ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يصده عنه زعم زاعم ، ماضيا على سنته ، موفيا على قصده : حتى أتاه اليقين ، فصلى على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى وأتم وأنمى وأجل ، وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه ، وخاصة ملائكته ، وأضعاف ذلك أنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته وأحضكم على ما يدنيكم منه ، ويزلفكم اليه ، فان تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها ، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فانها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شىء منها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبت لكم من حبائلها ، وأهلكت من جنح اليها واعتمد عليها ، وأذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سما ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ؛ وكاثفوا الحجاب ؛ وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ؛ واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمحملها ؛ وطحنتهم بكلكلها ، وعضتهم بأنيابها ، وعاضتهم من السعة ضيقا ؛ ومن العزة ذلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لاترى إلامساكنهم ولا تجد إلا معالمهم ؛ ولا تحس منهم أحدا ، ولا تسمع لهم نبسا ، فتزودوا ؛ عافاكم الله فان خير الزاد التقوى ، واتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون ؛ جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظه وسعادته ؛ وممن يستمع القول فيتبع أحسنه ؛ أولئك الذين هداهم الله ؛ وأولئك هم أولوا الألباب ؛

إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فاذا تلى عليكم فأنصتوا له ، واسمعوا لعلكم تفلحون ، أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـد . ثم قال نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم والوحى المبين وأعاذنا وإياكم من العـذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم (١)

— ٥ — تقواه وزهـده : كان واصل ممن امتلأ قلبه رهبة ، وروعة ، ومراقبة لله ، وثقة به ، واطمئنانا لحكمه وسكونا لقضائه . وقد رأيت ذلك واضحا فى خطبته السابقة ، وقد قال الجاحظ فيه « لم يشك أصحابنا أن واصلا لم يقبض دينارا ولا درهما . وفى ذلك قال بعضهم فى مرثيته .

ولامس دينارا ولامس درهما ولا عرف الثوب الذى هو قاطعه

كان واصل يقول « المؤمن إذا جاع صبر ، وإذا شبع شكر ، وبذلك أخذ نفسه ، وسار على هذا النهج ، واتبع هذا الطريق فهو صابر أو شاكر .

---

(١) قد ذكر هذه القصة فى شعره صفوان الأنصارى مادحا واصلا فقال كما فى البيان والتبيين

فسائل بعبـد الله فى يوم حفله وذاك مقام لا يشاهده وغـد
أقام شبيبا وابن صفوان بقول خطيب لا يجانبه القصـد
وقام ابن عيسى ثم قفاه واصـل فأبدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصتـه الراء إذ كان قادرا على تركها واللفظ مطرد سرد
ففضل عبد الله خطبة واصـل وضوعف فى قسم الصلات له الشكر
فاقنع كل القوم شـكر حبائهم وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد

مطمئن فى كلتا الحالتين

لم يعهد اليه عمل حكومى ، ولم يسع اليه ، ويظهر أنه كان ذا اقطاع أوذا تجارة ، ولكن من مجموع أعماله يفهم أنه ماكان معنيا بتدبير ماله ، وربما كان يعنى بتدبيره ربيبه أبو عبد الله الغزال . كان جل عنايته نشر مذهبه ،والرد على مخالفيه ، مالئا قلبه بتقوى الله

لقد كان شديدا فى الله شدة لاحدلها ، كان صديقاالبشار بن برد ، فلماعرف فيه الالحاد قاطعه ونافره ، وسعى فى نفيه فنفاه ، وكان يقول فيه « إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملحد » وكان بشار قبل ذلك يمدحه ويقول فيه

تكلف القول والاقوام قدحفلوا — وحبروا خطبا ناهيك من خطب
وقال مرتجلا تغلى بداهته — كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد — قبل التصفح والاغراق فى الطلب

فلما قاطعه واصل قال فيه

مالى أشايع غزالا (١) له عنق — كنقنق (٢) الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة مابالى وبالكم — أيكفرون رجالا أكفروا رجلا

(٦) الجرأة فى الحق : كان جريئا فى الحق ، لايخشى فيه لومة لائم ، اذا

---

(١) كانوا يلقبون واصلا بالغزال قيل لأنه كان يجلس فى سوق الغزالين عند ربيبه أبى عبد الله مولى قطن الهلالى ، وقال أبو العباس المبرد فى الكامل « كان يلقب بذلك ؛ لانه كان يلزم الغزالين ؛ ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن » وجاء فى البيان والتبيين كان واصل بن عطاء غزالا

(٢) النقنق الظليم والدو الفلاه ، والمراد أن له عنقا طويلة ، كعنق النعامة وقد قال فيه عمرو بن عبيد قبل معرفته عند مارآه « أرى عنقا ، لايفلح صاحبها »

اعتقد جرى اعتقاده على شفرة لسانه سيفا بتارا قاطعا، شاقا لحجب الظلمات يجأر باسم الله ، ويدافع لله . سأل سائل الحسن البصرى عن حكم مرتكب الكبيرة : أهو من أهل الايمان أم من الكفار ، فاجاب واصل غير ملتفت لأى أمر سوى الحق ، الذى أحس بصوته يجلجل فى قلبه « إنه فى منزلة بين المنزلتين » ثم اعتزل المجلس الى آخر ماهو مشهور معروف

جاء فى كتاب البيان والتبيين إنه كان يزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد رسول الله ﷺ ، فقيل له وعلى أيضا . فأنشد

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لاتصحبينا

ولا نعرف مقدار ذلك الزعم من الصحة . ولكنه إذا صح يكون دليلا ليس فوقه دليل على قوته فيما يعتقد ، وكيف كان لايهاب أحدا . كان يرى رأيا سيئا فى معاوية بن سفيان ، وعمرو بن العاص ، ولا يمتنع عن المجاهرة به مع أن سيف بنى أمية مشهور ، ورماحهم مشرعة ، وسلطانهم قاهر ، ولكنها النفس المؤمنة ليس لسوى الله عليها سلطان ، ولا لغيره قوة ، واذا عظم سلطان الله على النفس ضعف سلطان العبد عليها ، واذا امتلأت النفس بقوة الله لم تستخذ للانسان ، ولم تهن لمخلوق

وأولئك الذين تحررت عقائدهم من ربق التقليد ، ونفوسهم من مظاهر الخنوع والضعف ، فلم يميتوا فى نفوسهم مذاهبهم ، ولم يخمدوا فيها نيران الحق المقدس ، أولئك هم قادة الفكر الانسانى ، وأولئك هم هداة الانسانية ، ورواد الحق ودعاته ، ويظهر من أخبار واصل أنه كان فى الرعيل الأول من هذا النوع

فسمعه واصل ، فلما سلم وجلس ، قال لعمرو : أما علمت أن من عاب الصنعة فقد عاب الصانع ، لتعلق مابينهما ، فاسترجع عمرو ، وقال لا أعود لمثلها يا أبا حذيفة

الفهرست لابن النديم

آراؤه : كان موضوع آراء واصل الامور التي شغلت أهل عصره ، وكانت موضوع مناظراتهم وملاحاتهم ، فهي بنت بيئته ؛ ترعرعت في مهدها ،ونمت واستغلظت سوقها تحت ظلها – ولئن كانت آراء الشخص صورة عقله لقد كانت آراء واصل سالكة طريق الاعتدال ، إذا أضيفت الى آراء معاصريه وهي بالتالي تدل على تفكيره الهادئ المتزن ، وعقله المسدد المستقيم ، كانت آراؤه وسطا بين متجاذبين ، وملتقى متناحرين

ولقد ذكر الشهرستاني في كتابه الملل والنحل أمورا أربعة ارتآها واصل وهانحن أولاء ذاكروها ؛ لا على أنها هي الامور التي شغلت كل تفكيره ، بل على أنها أمثلة نسوقها لاثبات ماقلناه ، وهو أن آراءه وسط بين متنازعين دائما

(١) كان واصل ينفي صفات الله سبحانه وتعالى من القدرة والارادة والعلم ، والحياة ؛ فهو يقول : الله قادر ، ولكن من غير قدرة زائدة على الذات ، الله عالم ، ولكن من غير علم زائد على الذات ، وفي الحق إن مذهبه هذا مادفعه اليه إلا الخشية من أخطار فرق ثلاث . اندفعت الى وصف الله بما لايليق الأولى المجسمة وأهل الحلول الذين كانوا يزعمون أن الله يحل في مكان كالحوادث والثانية الحشوية الذين كانوا يثبتون لله تعالى الله تعالى صفات كثيرة مما يتصف بها الحوادث حتى قال قائلهم : استثن اللحية والفرج ، واثبت ماعداهما من صفات الانسان لله والثالثة النصارى الذين قالوا بالتثليث (الاقانيم الثلاثة) وظن واصل أنه لو أثبت صفات لله قديمة زائدة على الذات لحكم بتعدد الآلهة ؛ ولقال مقال النصارى

رأى واصل كل هذا ، ورأى القرآن الكريم يصف الله بالقدرة والارادة وغيرها ، فأثبت ماجاء في القرآن ، وابتعد عن أن يثبت أن القدرة زائدة والارادة زائدة وهكذا

(٢) قال إن المرتكب للكبيرة فاسق ، وأنه في منزلة بين الكفار

والمؤمنين ، وفى الحق إن مذهبه فى هذا هو الوسط بالنسبة للمذاهب الشائعة فى هذا العصر ؛ فان الحسن البصرى كان يرى أنه منافق ، والخوارج كانوا يرون أنه كافر ، وبعضهم يكفره ، ويكفر أولاده ، والمرجئة يرون أنه مؤمن ولا يضر مع الايمان معصية ؛ بل غلا بعضهم ، فقال إن الايمان الاعتقاد بالقلب وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الاوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الاسلام ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عزوجل من أهل الجنة . فى وسط ذلك المضطرب شق واصل لنفسه مهيعا وسطا ، ونريد أن نتركه يحتج لدعواه هذه ، لتعرف طريق فهمه للدين وأصوله. قال « وجدت حكم الله فى المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة . قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا » . « والله ولى المؤمنين » « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » . « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار » . « يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه » فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ؛ لزوال أحكام المؤمنين عنه ووجدت حكم الله على الكفار على ضربين : ضرب حد لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فهذا حكم الله فى أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة ، وهذا هو الضرب الاول وقوله تعالى: « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء » وهذا حكم الله فى مشركى العرب وغيرهم من الكفار سوى أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم بينت السنة المجمع عليها أن الكفار لا يورثون ، ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ؛ وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة وهذا هو الضرب الثانى .

فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بكافر لزوال أحكام الكفار عنه .

ووجدت حكم الله فى المنافق ماجاءت به السنه المجمع على صحتها من أنه ان ستر نفاقه فلم يعرف عنه ، ولم يشتهر به ، وكان ظاهره الاسلام ، فهو عندنا مسلم له ماللمسلمين ، وعليه ماعليهم ، وان أظهر كفره استتيب ، فان تاب، والا قتل وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة ؛ فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بنافق لزوال أحكام المنافقين عنه ، واذن مرتكب الكبيرة يسمى فاسقا فاجرا ، لتسميته بذلك فى كتاب الله ولاجماع الامة على هذه التسمية»

(٣) قوله إن الله خالق أفعال نفسه بقوة أودعها الله اياه ، ولقد كان مذهبه وسطا بين نهجين ، كلاهما ضلال بعيد ، كان بعض الدهريين ينسبون المخلوقات الى الدهر ، أو الى الطبيعة ، أو نحو ذلك وهو كفر ليس فى ذلك من ريب وقد انتشر مذهبهم فى عصر واصل ، واطلع على مقالاتهم تلك

وكان على الجانب الآخر طائفة من الجهمية التى تقول ان أفعال العباد هى أفعال الله سبحانه ، والانسان لاارادة له فيما يعمل ، بل الله يفعل فعله على يديه ، كما يجرى الريح ، وكما ينبت الزرع ، وكما يحرك الارض . وقد رأى واصل فى ذلك خرقا للعدل الالهى، وهدما لقانون الجزاء من عقاب المسىء ، واثابه المحسن ؛ بل رأى فيه هدما للتكليف ؛ ولمح من ورائه هدم الشرائع الدينية ؛ لأنه لامعنى لتكليف الانسان أمرا لاارادة له فيه ؛ ولا قدرة له عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . هذا ما ارتآه وأنت تراه وسطا لآراء متجاذبة وأفكار متضاربة

(٤) كان يرى فى أهل واقعة الجمل من فريقى على وطلحة أن أحد الفريقين فاسق من غير تعيين ؛ ولذا كان يقول لاتقبل شهاده اثنين : أحدهما من فريق على ؛ والاخر من فريق طلحة ؛ ومذهبه فى الحقيقة وسط لرأى معاصريه. وقد شرح ذلك البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق ؛ فقال : «زعمت الخوارج أن طلحة ، والزبير ، وعائشة ، وأتباعهم يوم الجمل كفروا لقتالهم عليا ، وأن عليا

كان على الحق فى قتال أصحاب الجمل ، وفى قتال أصحاب معاوية بصفين الى وقت التحكيم ثم كفر بالتحكيم ، وكان أهل السنه والجماعة يقولون بعدم فسق الفريقين فى حرب الجمل ، وقالوا ان عليا كان على الحق فى قتالهم ، وأصحاب الجمل كانوا مخطئين فى قتال على ، ولم يكن خطؤهم كفرا ولا فسقا يسقط شهادتهم ، وأجازوا الحكم بشهادة عدلين من كل فرقة من الفريقين ، وخرج واصل عن قول الفريقين ؛ وزعم أن فرقة من الفريقين فسقة لا بأعيانهم ، وأنه لا يعرف الثقة منهما » وأنت ترى أن مذهبه فى هؤلاء وسط بين الخوارج والجماعة

مناظراته : قد شرحنا لك فى أوصاف واصل أنه كان من أقدر أهل عصره على الجدل والخصام ، وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وملاقاة الخصم بقدم أثبت من قدمه ، وبرهان أسطع من برهانه . وقلنا إنه كان جامعا لكل الصفات التى تقتضى الغلب فى النقاش ، والسبق فى ميدان المناظرة : فراسة صادقة ، وأناة وحلم ، وجنان رابط ، وجأش ثابت ، وعقل رزين ، لا يطيش ، وبديهة حاضرة ، وقدرة على التصرف فى الأمور ، لا يعتريه حصر ، ولا يأخذه فزع ؛ وعلم غزير وإحاطة تامة .

ولذا كان له الغلب على الأقران فى ميدان الخصام ، لا يعترض عليه بالاعتراض إلا أسرع إلى تفنيده ، ولا يقام عليه دليل إلا أسرع إلى تزييفه . وذلك مقام صعب لا يصل الى إليه إلا أولوا الألباب ، وذوو المرتبة الأولى فى البيان . جاء فى العقد الفريد : « إن الجوابات هى أصعب الكلام كله مركبا ، وأعزه مطلبا ، وأغمضه منصبا ، وأضيقه مسلكا ؛ لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة ، يروم فى بديهته نقض ما أبرم القائل فى رويته ، فهو كمن أخذت عليه الفجاج ، وسدت له المخارج ، قد اعترضته الأسنة ، واستهدف للمرامى ، لا يدرى ما يقرع به ، فيتأهب له ، ولا ما يفجؤه من

خصمه ، فيقرعه بمثله ، ولاسيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام ، فقاده بزمامه بعد أن رأى فيه ، واحتفل ، وجمع خواطره ، واجتهد ، وترك الرأى يغب حتى يختمر ؛ فقد كرهوا الرأى الفطير ؛ كما كرهوا الجواب الدبرى ، فلا يزال فى نسج الكلام ، واستثباته ، حتى إذا اطمأن شارده ، وسكن نافره ، صك به خصمه جملة واحدة ، ثم قيل له : أجب ، ولا تخطىء ، وأسرع ، ولا تبطىء ، فتراه يجيب بجواب من غير أناة ، ولا استعداد ؛ يطبق المفاصل ، وينفذ إلى المقاتل كما يرمى الجندل بالجندل ، ويقرع الحديد بالحديد ؛ فيحل به عراه ، وينقض به مرائره ، ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابات لبدت عجاجته ، فلا شىء أعضل من الجواب الحاضر ، ولا أعز من الخصم الألد الذى يقرع صاحبه ، ويصرع منازعه بقول كمثل النار فى الحطب الجزل »

لم يكن يناظر واصل حبا فى الغلب ، بل دفعاً لأوهام وأكاذيب سادت ذلك العصر ، وسيطرت على عقول كثيرين فيه ، وقد عنى نفسه بذلك ، حتى إنه كان يهمل بعض شأنه الخاص . كان يناظر الرافضة ، والدهرية ، والصابئة ، والزنادقة وغيرهم ليرد فرياتهم ، ويجعل كيدهم فى نحورهم . وشغلت مناقشته لهؤلاء كل خواطره ، وقد ذكرت زوجه بعض حاله فقالت : « كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان ، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف ، جلس ، فكتبها ، ثم عاد فى صلواته » (١)

ولقد كان عليما بأفكار كثير من الزنادقة ، وأهل النحل المختلفة ؛ لأنه خالف كثيرا منهم ، وكان صديقا لبعضهم كما علمت من أخباره مع بشار ، وفى كتاب الأغانى « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، ورجل من الأزد هو جرير بن حازم ، فكانوا يجتمعون فى منزل

(١) المنية والأمل للمرتضى

الأزدى ، ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ؛ وأما بشـار فبقى متحيرا مختلطاً . وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية»

وقد كان مرجعاً لكل من يجادل هؤلاء الخارجين عن حـدود الاسـلام وموئلا لهم ، يصدرون عن رأيه إذا التبس عليهم الأمر . جاء فى كتاب المنية والأمل : « روى أن بعض السمنية قالوا لجهم بن صفوان هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة. قال : لا . قالوا فحدثنا عن معبودك، هل عرفته بأيها ؟ قال : لا . قالوا فهو إذن مجهول . فسكت ؛ وكتب بذلك إلى واصل ، فأجاب وقال تشترط وجها سادساً ، وهو الدليـل . فتقول لا يخرج عن المشاعر والدليل ، فاسألهم هل تفرقون بين الحى والميت ، والعـاقل والمجنون ؟ ولا بد من قولهم هذا عرف بالدليل فلما أجابهم جهم بذلك ، قالوا ليس هذا من كلامك فأخبرهم فخرجوا الى واصل وكلموه ، وأجابوه الى الاسلام »

وقد كان يسجل كثيرا من ردوده ؛ ويقيـدها ، وبعض مناقشاته كانت كتابية . وعن عمرو الباهلى أنه قال : « قرأت لواصل الجزء الأول من كتاب ألف مسـألة فى الرد على المـانوية ؛ فأحصيت فى ذلك الجزء نيفاً وثمانين مسألة» (١)

ولم يكن جـدله مع المناقضين للاسلام فقط ، بل كان يجادل كثيرا من المسلمين المخالفين له فى مذهبه فى العقائد ؛ وكانوا كثيرين . ومما يروى أن خالد بن عبد الله القسرى قال له « بلغنى أنك قلت قولا فما هو ؟ فقال أقول يقضى الله بالحق ويحب العدل . قال فما بال الناس يكذبونك . قال يحبون أن يحمدوا أنفسهم ويلوموا خالقهم . فقال لا ، ولا كرامة ؛ الزم شأنك» (٢)

(١) المنية والأمل . (٢) الكتاب المذكور

ومناقشاته كثيرة مع المسلمين الذين خالفوه . «يروى فى هذا أنه اجتمع مع جعفر بن محمد الصادق ؛ فقال جعفر « أما بعد فان الله بعث محمدا بالحق : والبينات ؛ والنذر والآيات ؛ وأنزل عليه « بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» فنحن عترة رسول الله ، وأقرب الناس اليه ، وانك ياواصل أتيت بأمر يفرق الكلمة ، وتطعن به على الأمة ، وأنا أدعوك الى التوبة . فقال واصل : «الحمد لله العدل فى قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم ، نهى عن القبيح ، ولم يقضه ، وحث على الجميل ، ولم يحل بينه وبين خلقه ، وانك ياجعفر ، وابن الأئمة شغلك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً وما أتيناك الا بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه وضجيعه ابن أبى قحافة ، وابن الخطاب ، وعثمان ، وعلى ابن أبى طالب و جميع أئمة الهدى ، فان تقبل الحق تسعد به ، وان تصدق عنه تبؤ باثمك » (١)

رسله فى الآفاق . لم يكتف واصل بمناظراته الكتابية والخطابية ، بل أرسل أتباعه فى الآفاق يردون على الزنادقة وغيرهم . قال أبو الهذيل . « بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، فأجابه خلق كثيرون ، وبعث الى خراسان حفص ابن سالم ، فدخل ترمذ ، ولزم المسجد ، وناظر جهما (٢) فقطعه ورجع الى قول الحق . فلما عاد حفص الى البصرة رجع جهم الى قول الباطل ، وبعث القاسم الى اليمن ، وبعث أيوب الى الجزيرة ، وبعث الحسن بن زكوان الى الكوفة ، وعثمان الطويل الى أرمينية »

---

(١) ذكرت هذه الخطبة فى المنية والأمل وأنت ترى أن فيها مناقضة للآراء المروية عنه من شكه فى فسق على وأصحابه ولعله كان قد انتهى فى آخر حياته من شكه فى أحد الفريقين إلى الجزم ببراءة أحدهما .

(٢) جهم بن صفوان رأس الجبرية .

وقد كان متتبعا لأخبار رسله ، ليتعرف أحوالهم ، فاذا لاحظ فى أحدهم خروجا عن الجادة أرسل اليه يعظه . يروى فى ذلك أنه بلغه أن عمر بن عبيد يؤول بعض الأحاديث تأويلا فيه شطط ؛ فأرسل إليه كتابا جاء فيه : «عهدى والله بالحسن ، وعهدكم به أمسى فى مسجد رسول الله ﷺ بشرقى الأجنحه وآخر حديث حدثنا إذ ذكر الموت وهول المطلع ، فأسف على نفسه واعترف بذنبه ، ثم التفت والله يمنة ويسرة باكيا ، فكأنى أنظر اليه يمسح مرفض العرق من جبينه ، ثم قال : اللهم إنى قد شددت وضين راحلتى ؛ وأخذت فى أهبة سفرى إلى محل القبر ، وفرش العفو ، فلا تؤاخذنى بما ينسبون إلى من بعدى ، اللهم إنى قد بلغت مابلغنى عن رسولك ؛ وفسرت من محكم كتابك ماقد صدقه حديث نبيك ، ألا وإنى خائف عمرا ، ألا وإنى خائف عمرا ،شكاية لك إلى ربك جهرا،وأنت لاأنت عن يمين أبى حذيفة أقربنا إليه . وقد بلغنى كثير مما حملته نفسك ، وقلدته عنقك من تفسير التنزيل ، وعبارة التأويل ، ثم نظرت فى كتبك ، وما أهدته إلينا رواتك من تنقيص المعانى ، وتفريق المبانى ، فدلت شكاية الحسن عليك بالتحقيق بظهور ما ابتدعت ، وعظيم ماتحملت ، فلا يغررك تدبير من حولك ، وتعظيمهم طوالك وخفضهم أعينهم عنك إجلالا لك ، غدا والله تمضى الخيلاء والتفاخر ،وتجزى كل نفس بما تسعى .

ولم يكن كتابى إليك ، وتجليبى عليك ، إلا ليذكرك بحديث الحسن رحمة الله ، وهو آخر حديث حدثناه ؛ فأد المسموع ؛ وانطق بالمفروض ؛ ودع تأويلك الأحاديث على غير وجهها ، وكن من الله وجلا »

انتـــــهى

الفهرس

ـ٣ـ المقدمة

ـ ١٠ـ جدل العرب فى الجاهلية

ـ٣٨ـ الجدل فى عصر النبوه

ـ٥٧ـ جدل القرآن الكريم

تم

